٢

ـ ٦ ـ

ميشيل زيفاكو

جوهانة الشجاع

ابن باردليان

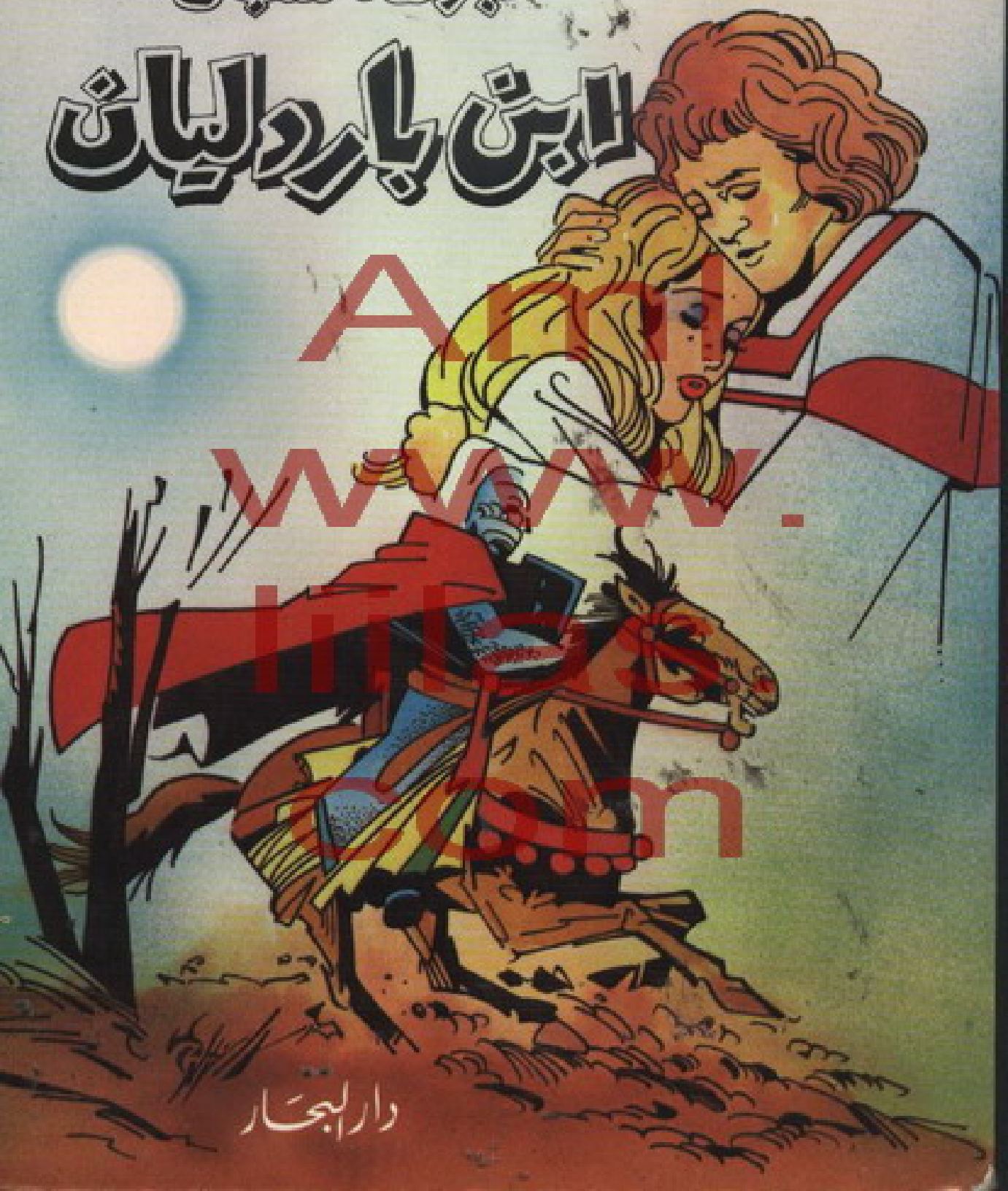

Ahlan
www.
Ahlan
.com

دار البحار

الفصل الثلاثون

خطف برتيل

كان المنزل الذي يقيم فيه الفارس باردليان واقعاً في شارع انديس على زواية لشارع الحدادين الكائن بين شارعي السانزينوسان وكنيسة القديس اربورتون .

وهو أشهر فنادق تلك المحلة وهو النزل الذى اخذت الية الآنسة برتيل قبل يومين واليه أخذ باردليان ابنه جوهان الشجاع وأخذ يقص عليه كيفية تخليصه من أسره .

وتحقق أن الزوجين يتعمدان ايصال الاذى اليه فالتجأو إلى الغير لنصرته فعدها في نظره نقيصة لا تغتفر

ولم يكن من اخلاقه المباهات بما يعمله ولم يداخل الشك سامعيه غير أن جوهان لم يتمالك أن قال له .

ـ لا اظن يا سيدي أن المسألة قد انتهت بمثل هذه السهولة وكيف كانت الحال فقد قدمت لي خدمة لا انساها لأنك خلصت لي حياتي من الموت .

وبينما هم كذلك إذا بباردليان قد أخذ يفكر بالحديث الذي سمعه من اليونورا التي اخبرت زوجها أنها وضعت الفتاة في قبر .

وكتم مقصده عن الجميع وذهب صباحاً إلى منزل الدوق داندبلي مع جوهان وعرف من الخدم أن الآنسة برتيل قد خرجت من القصر فنظر باردليان بحدة الى الخادم الذي بلغه هذا الأمر فقال له :

– عفواً يا سيدي فقد تبلغنا أوامرك بأن نسهر على الآنسة برتيل ولم تأمرنا بأن نبقيها سجينة هنا .

وهل خرجت بملء أرادتها .

– نعم يا سيدي الفارس وقد أردت أن أبدي لها هذه الملاحظة بملء الاحترام فقالت لي أنها مضطرة للخروج للقيام بواجب عظيم الأهمية وأن غيابها لا يطول أكثر من بضع ساعات فلا تقلق عليها ولما لم نكن تلقينا تعليمات صريحة بهذا الشأن لم نرى مسوغاً لمخالفة أرادتها .

وتبدع باردليان وجوهان الشجاع يستعلمان من خدم الدوق داندبلي كيفية ذهاب الآنسة برتيل من القصر ويطلع القراء على ما جرى ليكونوا على بينه من الأمر .

في ذات الساعة التي كان اسقف اوسون زائراً منزل كونسيني تقدمت امرأة عجوز الى منزل الدوق داندبلي وطلبت مقابلة الآنسة دي سوجيس فقال لها الخادم أنه لا يعرف

فتاة بهذا الاسم وأراد أن يصرف العجوز ولكن سوء الحظ قضى بان تسمع الآنسة برتيل من غرفتها اسم سوجيس وكانت تعلم علم اليقين أن هذا الاسم لا يعرفه الا خمسة اشخاص هم الملك وجوهان وباردليان الذي لم تكن تعرفه الا باسم الكونت دي مارجنسي والدوق داندبلي وزوجته .

ولم يكن أحد من هؤلاء الخمسة موجوداً في القصر فحسبت أن هذه العجوز مرسلة اليها من احدهم .

وكان الملك يعتقد أنها لا تزال مقيمة في منزلها الكائن في شارع الشجرة اليابسة فهي والحالة هذه غير مرسلة من قبله ولو كان الملك في حاجة اليها لكان بعث أحد ضباطه أو رجال حاشيته ؟

ولم تكن مرسلة من قبل الدوق داندبلي وزوجته لأنهما سيعودان الى قصرهما في اليوم الثاني فجزمت بفكرها أن العجوز من جوهان الشجاع أو الكونت مارجنسي وكان شعورها بدلها على أنها مرسلة من جوهان الشجاع فاستولى عليها قلق داخلي فقامت من مكانها وسمعت العجوز تقول للخادم .

– أذا لم تسمح لي بمقابلة هذه الفتاة النبيلة يقع مصاب عظيم الذي عليك تبعته فانظر الي وقل لي هل ترى في هيئتي وملابسي ما يدعو للخوف والقلق .

وضاعفت هذه الكلمات قلق الآنسة برتيل ففتحت باب غرفتها من غير تردد وادخلت اليها العجوز وكان الخادم قد قام

بما يجب عليه ولم يعد مسؤولا عما يمكن حدوثه .

ولم يكن له ما يحاذره من العجوز لأنها كانت عاجزة عن استعمال العنف وهي لم تكن تقوى على الوقوف الا بمساعدة عصا تتوكأ عليها فانصرف وهو مرتاح البال مطمئن الفكر .

دخلت العجوز غرفة الآنسة برتيل فأخذت تتوسمها بدقة فاذا هي حيزبون هرمة وعليها ثياب الفلاحات ضخمة الجثة متجعدة الوجه مقرنة الحاجبين ولو كان الناظر اليها اكثر خبرة من الانسة برتيل لرأى ملامح المكر والدهاء بادية بين عينيها أما فتاتنا فلم تر فيها ما يدعوها للقلق وسألتها قائلة :

– من أنت ايتها الأمرأة الصالحة ؟

– اصيب أحد النبلاء بنكبة عرضت حياته للخطر فأرسلني اليك .

– وهل هو جوهان الشجاع ؟

– كلا لم يذكروا لي هذا الاسم بل قال أنه يدعى الفارس بار ، باردا ... باردفان ... لا ... بل باردليان .

فاضطربت برتيل ولكنها كانت قد اطمأن بالها على حالة جوهان الشجاع ولم تكن قد سمعت اسم باردليان قبل هذه فسألتها قائلة :

– من هو هذا الرجل فاني لم اسمع باسمه قبل الآن .

– اخطأت يا سيدتي فهو الفارس الذي جاء بك إلى هذا الليلة الماضية وهو الذي اطلعني على هذا الأمر .

فدهشت الفتاة من هذا الجواب وقالت :

– أن الذي جاء بي إلى هنا هو الكونت مارجينسي وليس الفارس باردليان .

فاظهرت العجوز فرحها لاعتراض الفتاة وأخذت بعصاها وقالت :

– ان الفارس باردليان هو ذات الكونت مارجينسي كما قال لي ولكن كبري كاد يفقدني الذاكرة فنسيت كل الاسماء .

فارتابت الفتاة بصدق هذا الحديث وقرعت جرسها فاقبلت الخادمة المخصصة لها وسألتها قائلة :

– هل تعرفين فارساً يدعى باسم باردليان ؟

– نعم يا سيدتي وهو الفارس الذي جاء بك الى هنا .

– إذن فهو الكونت مارجينسي .

– نعم يا سيدتي وهو يفضل اسم باردليان على لقب الكونت فشكرتها الفتاة وامرتها بالانصراف وقالت للعجوز باضطراب .

– إذن فانت مرسلة من قبله ... وهو جريح أو لعل تكون جراحة خطرة فافيدينى حالاً عن حالته .

– يجب علي أن احقق قبل ذلك أنك الفتاة التي ارسلت اليها فاسمحي لي أن أوجه اليك سؤالين لأني أنا أنفذ الاوامر التي تلقيتها .

– هاتي اسئلتك لاجارب عليها .

– هل أنت ابنة سيدة كانت مخطوبة لسيد نبيل يدعى

الكونت دي ... تبا لذاكرتي الملعونة فقد كنت انسى اسمه . أنه يدعى الكونت دي فو ... دي فـوبرين – اجـل أنا هي بالذات .

– الم يكن عندك أوراق تتعلق بالفارس باردليان وابنه .

– أية اوراق تعنينها ؟

– لست ادري وأني أعيد عليك الاقوال التي سمعتها .

– أجل أن عندي اوراق تتعلق بهما .

– اذن فـانت هي المقصودة وسأعيد عليك كل مـا بقي في ذاكرتي من الحـديث الذي سمعته من ذلـك الفارس النبيل الذي هو صديق حميم للكونت الذي كان خطيب والدتك وقد كان اتيا اليك منذ ساعـة ليسألك عن هـذه الاوراق ويخابرك بشأنها ولكنه سقط عن جواده وكسر دماغه .

– اذن فاذهب معك الآن لأقوم بواجبي نحوه .

– روبدك يا سيدتي فقد طلب مني الفارس أن أوصيك بالتزام الكتمان التام بشأن هذه الأوراق لأنه شعر بوجود بعض الطفيليين الذين يريدون المداخلة في الامر وقادت العجوز الفتاة في اثناء مسيرهما ارخت الفتاة سدول قناعهـا على وجهها وسألت العجوز قائلة :

– الى أين تذهبين بي ايتها العجوز الصالحة ؟

– الى قرية مونتارتر .

فلم تبد الآنسة برتيل ادنى اعتراض ولو كلفتها الذهـاب

لاقصى العالم لما كانت تأخرت باتباعها .

ولم تبتعد كثيراً حتى صادفتا الاخ كولار الكامل وهو ثمل كعادته فحاول بوقاحته المعهودة أن يرى وجه الفتاة التي كانت تريد كتم ملامحها عن المارة .

والظاهر أن العجوز كانت شديدة التمسك بمبادىء الشرف فانها رفعت عصاها بيدها المرتجفة وأنهالت بها على رأس الراهب وهي توسعه شتما واهانة غير مبالية بثوبه الاسود فتحمل تلك الضربات وهو يبتسم كأن هـذه الاهـانة غـير موجهـة اليه فارتاحت الانسة برتيل لهذا الدفاع الباسل وزال من فكرهـا كل ارتياب بالعجوز .

وقبل أن تصلا الى باب مونتارتر بقليل مرتا امام كنيسة القديسة مريم المصريه فاحنت العجوز رأسها أمام بابها وأخذت تبدي شارات الورع والتضرع فاصابت قناع الفتاة فانزاح عن وجهها وبدا جمالها للعيان .

وخرج من الكنيسة في تلك اللحظة رجل اشقر الشعر اصلع الناصية ثاقب البصر فجمد في مكانه لرؤيته جمال برتيل الذي يسبي الالباب وقد بدت عليه ملامح السرور الذي لا يوصف فمرت الامرأتان أمام باب الكنيسة ودخلتا القرية .

وأخذ الرجل يتبعهما عن بعد وهما لا تشعران به حتى اجتازا الجسر الصغير الحجري القائم فوق السد الذي كانت مزروعة على جوانبه اشجار السرور والصفصاف .

وبعد أن اجتاز الجسر سارتا على يسارها ودارتا حـول خرائب الكنيسة المتهدمة إلى أن وصلتا إلى باب الدير فوقفتـا أمامه . فسألتها برتيل قائلة :

– وهل جئت بي إلى الدير ؟

– اجل فهنا ينتظرك الفارس .

– عجباً اينتظرني في مأوى الراهبات ؟

– نعم ولا ... نعم لأني في خدمتهن وأنا اقيم في الطـابق العلوي ... ولا ... لأني انا مطلقة التصرف في غرفتي التي يقيم فيها الفارس الجريح .

واكتفت الفتاة بهذا القول وتبعت العجوز فاجتازت عتبة الدير وكانت كلودين دي بوفيليير قد نقلت برئاسة دير آخر منذ إحدى عشر سنة وتولت رئاسة هذا الدير ماري دي بوفيليير وقد زعم أحد المؤرخين أنها شقيقة كلودين .

ولم تكون ماري قد بلغت الرابعة والعشرين من عمرها لما تعينت رئيسة لهذا الدير الغريب الذي كان اشبه ببيوت الخلاعة منه بمحل زهد وعبادة فاظهرت مهارة فائقة دلت على كفاءتها بهذا المنصب الخطير . .

وكان وسط الحديقة الصغيرة سرداق جميل تحيط به الزهور من جهاته الاربعة فعادت اليه العجوز والآنسة برتيل وفتحت بابه فدخلته الفتاة من غير حذر واقفلت العجوز الباب من خلفها ووضعت المفتاح في جيبها وذهبت مطمئنة فلما سمعت الآنسة

برتيل قفل الباب تحققت أنها وقعت في كمين فانقضت على الباب لتفتحه ولكن الوقت قد فات .

ورأت نافذة فأسرعت اليها وفتحتها فـاذا هي مشبكة بقضبان حديدية ضخمة فصرخت واستنجدت ولكن صراخها ذهب صرخة في واد فلم يلب أحد نداءها وتحققت أن صوتها لا يمكن أن يسمعه غير الراهبات وهن قد تلقين الأوامر للالزمـة بشأنها فلا يقدمن على مساعدتها فالتزمت الصمت .

وكان الرجل قد تبع الأمرأتين إلى مدخل الدير وظل برهة طويلة أمام بابه على أمل أن يرى التي كان يتعقبها حـتى أقبل الليل ولم تخرج الفتاة من الدير فصمم على العودة إلى باريس وأخذ يناجي نفسه قائلا .

– بما أنها لم تخرج من الدير فذلك دليل على رغبتها في الاحتماء فيه . المهم عندي انها نجت من قبضة الذئب المتوج ولا ريب بان جوهان الشجاع سيكون كثير التعاسة لفيابهـا ولكنه يقتدي به بالصبر .

وتوقف فجأة عن المسير كأن قوة رهيبة أوقفته في ذلك المكان فارتمى على ركبتيه جاثياً وأخذ يضرب صدره بيديه كانه يريد تمزيق صدره وزمجر قائلا :

– جان فرنسوا لماذا تسر لشقاء الرجل الذي اشفق عليك ومد اليك يد المعونة واطعمك لما كدت تقضي جوعاً وخاطبك بلطف وغرز قوتك ؟ ... لماذا تسر يا رافيلياك لتعاسته ذلك

لأنه محبوب وانت لن تحصل في عمرك على هذه النعمة فاخذت تنادي قائلا « لايمكن أن تحب وتحب يا جان فرنسوا وأنت تعلم بان ايامك معدودة وأن يد الجلاد ممدودة فوق رأسك » ...

نفاق يا رافلياك نفاق .. لقد كنت ترجو في سرك أن تتم هذه المعجزة وأن يأتي يوم تحبك فيه أنت الملعون المحكوم عليه ...

كنت تظن بانه لوحده أهل لأن يحب لأنه صالح لأنه شجاع وكريم وأنه يقتضي عليك التسليم له .. نفاق يا رافلياك فانت منافق محتال وكاذب مثل ذلك الكافر الذئب المتوج أنك يا جان فرنسوا حاسد لولي نعمتك والمحسن اليك وفؤادك يتدفق شراً وتجسر بعد ذلك على الانتصاب في موقف الحكم .

وأخذ يضرب رأسه بالاحجار حتى دمه وهمس قائلا :

اسألك بالله أن ترجعني وتحنن علي وتساعدني وترشدني إلى ما يجب عمله وتطرد الشيطان الذي يعذبني .

وظل برهة طويلة جاثياً وهو يصلي من اعماق نفسه ويبكي وينتحب إلى أن عادت اليه سكينته تدريجياً فانتصب واقفاً ومشى بخطى متعثرة ولم يلبث أن توارى في الظلام .

الفصل الحادي والثلاثون

البحث عن برتيل

ولما خرج سانيا من منزل كونسيني الذي كان سجيناً فيه جوهان الشجاع أخذ يناجي نفسه بقوله وهو سائر في طريقه

– لست ادري كيف ساعدت الأقدار جوهان الشجاع الخلاص من سجنه . اعلي وصلت متأخراً ويكون كونسيني قد قتله وتخلص من جثته وهذا ما يجب علي معرفته فاذا كان جوهان طليقاً فسيعود إلى منزله وهناك يجب أن أنتظره إذا لم يعد إلى الغد انذر البوتورا بالامر لترشدني إلى ما يجب عمله وإذا كان كونسيني قد سلب مني انتقامي فالويل له وما على زوجته الا أن تعد ملابس الحداد عليه .

ووطد عزمه في الحال على ما يجب عمله فاخذ يتمشى نحو منزل جوهان الشجاع ولم يلبث أن وصل اليه ودخله .

وكان اسكوكاس لا يفارقه طرفه عين فلما رآه دخل المنزل

حسب أن مهمته قد انتهت فاطلق ساقيه للريح واسرع للذهاب إلى المنزل الذي يقيم فيه باردليان .

وسهى جوهان الشجاع عن قفل بابه بالمفتاح فدخله ساتيا بعد أن قرعه مرتين ولم يلق جواباً .

وكانت امتعة الغرفة التي دخلها بسيطة للغاية وهي مؤلفة من طاولة وكرسيين وصندوق وسرير صغير وعلى المستوقد بعض الأواني المستعملة في المطبخ لأن جوهان الشجاع كان يتولج طهى طعامه بيده لما يكون كيسه فارغاً ويحاول دون تناول اكله في المطعم .

ولذع عقرب الجوع بطن ساتيا فاخذ يفتش في سائر جهات المنزل ولكنه لم يجد فيه ما يسد رمقه فجلس على كرسي وقد وطد عزمه على الصبر حتى النهاية .

وارخى الليل سدوله فلم ينر المصباح لأنه سر لوجوده في الظلام اكثر من النور وقرعت الساعة التاسعة وإذا به يسمع وقع خطى على السلالم فعرف للحال القادم واستنار وجهه بامارات البشر وصرخ قائلا .

— هذا هو

ولم يستطع صبراً في مكانه فاسر الى الرواق المظلم وسأل قائلا .

— هل هذا أنت يا ولدي ؟

— نعم .

وكان القادم في تلك الساعة من الليل هو جوهان الشجاع

فان الضربة التي اصابته حين بلفه اختفاء الانسة برتيل كانت شديدة الوقع عليه وكادت تصعقه لأنه تركها في مكان لا تصل اليه ايدي الاعداء .

ولم يستطع باردليان رغم الحاجة بالاسئلة أن يعرف من رئيس الخدم اكثر مما عرفه وهو أن الآنسة برتيل غادرت القصر مع امرأة عجوز بعد أن تقابلتا سراً وتحادثتا طويلا حديثاً لم يسمعه .

وكان باردليان قد سمع بان اليونورا زوجة كونسيني قباهي بخطفها الفتاة فجزم بفكر أن تلك العجوز مرسلة من قبلها لهذه الغاية ولكنه كان يجهل أنها قامت بعمل كان اسقف لوسون يؤكد قيامه به غير أن ريشليو كان قد امتثل في عمله لتعليمات الاب جوزف وكان يعلم حق العلم أنه كاذب ايضاً بهذا الادعاء .

ويذكر القراء أن كولار الذي صادف العجوز والآنسة برتيل بمجرد خروجهما من قصر الدوق داندبلي وكفى بهذه المصادفة دليلا على ما جرى بعد ذلك .

وكانت هذه الحوادث كثيرة الارتباط ببعضها فلم يستطيع باردليان حل اسرارها ببضع دقائق وخطر بباله أن يعيد الاقوال التي يسمعها بشأن الآنسة برتيل ولكنه تأكد بأن ذلك يقوده إلى خيوط بعيد في تحقيقه فعدل عن فكرته الاولى وقد صمم عزمه على جلاء هذا السر حباً بذينك العاشقين .

ولما أقبل الليل ولم تعد برتيل إلى قصر الدوق كما وعدوت

الخدم اضطر جوهان إلى مغادره القصر مع باردليان حتى وصلا إلى المنزل الذي كان يقيم فيه الفارس فوجد الرفاق الثلاثة بانتظارهما بفارغ الصبر فسأل جوهان الشجاع اسكركاس يقوله :

– هل جاء الرجل ومن هو ؟

– نعم يا سيدي أنه ابوك المحترم .

– إلى اين ذهب بعد ذلك ؟

– إلى المنزل الذي تقيم فيه وقد تحققت امارات القلق عليه وسمع باردليان هذا الحديث فارتجف عند سماعه جواب اسكركاس الاول ولكنه ظل ملتزماً الصمت ولما القى عليه جوهان تلك النظرة الاستفهامية سأله قائلاً :

– هل أنت ابن ذلك الرجل ؟

– هذا ما اخاله يا سيدي .

إذا كان الأمر كذلك فان ظنوني كانت من قبيل الارهام ويسوؤني كثيراً أني كاشفتك بها .

– الا تستطيع أن تذكر لي ما كنت تعتقده .

– لا فائدة من ذلك فقد صرت على يقين من خطائي لأن الأمر يتعلق بأبيك المحترم .

فكاد جوهان الشجاع يجاهر بان هذا الرجل ليس ابوه ولكنه التزم الصمت لسبب يجهله فتناول يد باردليان وضغط عليها بشدة وقال له :

– عفواً يا سيدي لعدم قيامي بالشكر الواجب ولكنك

تعذرني ولا ريب لأني لا استجمع أفكاري في الوقت الحاضر فتأمله باردليان طويلا وقد اضطربت احشاؤه من فرط تأثره على مصابه لأنه رغماً عن تظاهره بالسكينة ومحاولته الابتسام كان يشابه الأموات بصفرة وجهه وقد بذل كل مجهوده ليبقى يأسه مكتوماً فلا يشعر به أحد .

ورأى الفارس بعد مزيد التروي أنه يحسن صنعاً إذا ارجعه إلى منزله ولكنه كان يحتاج لذلك إلى سبب معقول ففكر برهة في امره وقال :

– إذهب يا ولدي اذ لا يخلق بك أن تدع والدك بالانتظار ولعله قلق عليك ولست اسألك الا أن تتذكرني دائماً ولا تنس اني مستعد ابداً لخدمتك ومساعدتك .

– صدقت فان والدي ينتظرني والولد الصالح يجب أن يبر بوالده فلا يخلق بي أن ادعه بالانتظار .

وغادر باردليان والرفاق وأخذ يمشي مستعجلا نحو منزله ولم يكد جوهان الشجاع يصل الى منزله حتى أثار مصاحبه وارتقى السلالم بتمهل فوقف أمام ساتيا وحدجه ببصره ولم ينطق ببنت شفة فتظاهر ساتيا بتجاهله ما كان في هذه الوقفة من التهديد والوعيد لأنه كان قد بلغ الدرجة القصوة من التأثر فتظاهر بالفرح والسرور فلم يشك جوهان بامره بل خيل له أنه يرى في عينيه اشعة العطف والحنان فتغير ظنه به لسلامة طويته فلم يلاحظ ساتيا هذا التغيير بل اخذ يد الشاب وضغط عليها بشدة :

وكانت هذه هي المرة الثانية أو الثالثة التي اتى فيها بجياته مثل هذه الاشارة بيد أن الغضب الشديد الذي استولى عليه لما عرف أن الرجل الذي ارتاب فيه باردليان لم يكن غير ساتيا الذي كان ينتظره في منزله زال فجأة ولم يظهر شيئاً من عواطفه .

وقاده ساتيا إلى المقعد وقال بلطف لم يكن يعهده من قبل

— اجلس قريباً مني يا ولدي فلا ريب بان التعب استولى عليك لأنك اصفر الوجه ولكن المهم عندي أني رأيتك سليما وكفاني هذه النعمة لاشكر الله عليها . ثم حاول ساتيا اقناع جوهان بالاستيلاء على كنوز فوستا ولم يذكر له مكانها بالتدقيق بل قال انها مخبوءة بجوار كنيسة الشهيد وظل يسرد له البرهان تلو البرهان إلى أن اقتنع بقبول جوهان مطلبه وأنه مستعد للاستيلاء على تلك الكنوز .

ولما اصبح جوهان لوحده أخذ يفتكر بامره ويناجي نفسه قائلا :

— لقد عرفت مقصده والغاية التي يسعى اليها فهو يريد أن يدفعني لارتكاب سرقة وهو منذ مدة بعيدة يحاول أن يحملني لصاً فما هي غايته يا ترى ؟

الفصل الثاني والثلاثون

التحقق من شخصية ساتيا

وبعد ذهاب جوهان الشجاع صعد باردليان إلى غرفته وقفل بابه عليه وأخذ العلبة التي اودعت لعهدته وافرغ ما احتوت . . .

وتناول ورقة من تلك الاوراق والقى نظرة عليها بغير مبالاة وبعد أن طالع كل الأوراق اعادها إلى العلبة ولم يحفظ معه الا ورقتين منها واخفى العلبة في خزانته .

ثم تناول احدى الورقتين وهي كتاب الكونت دي فوبرون الذي اتينا على نصه في فصل سابق فاعاد تلاوته عدة مرات وهو كلما طالعه يزيد اهتماماً ثم وضعه على الطاولة وأخذ يفكر بامره قائلا :

— من هو هذا الرجل المدعو لوبجي كابولو الملقب بالكونت دي فوبرون الذي كان في خدمة الأميرة فوستا ويزعم أنه صديق لي . . . وبعد أن راجع تذكاراته القديمة صرح قائلا :

Ami www.liilas.com

– لقد تذكرته الان فلوجي كابولو الكونت التوسكاني هو الرسول الذي بعثته فوستا الى الجنرال الكسندر لتأمره بحصار المملكة في طليعة جيوشه وهو الذي جرحته بعد أن أوقفته على طريق كرافلين أجل لقد عادت لي تذكراتي الماضية فاني بعد أن جرحت هذا وسلبته مكتوب الاميرة فوستا ثم اعتنيت به وضمدت جراحه فتأثر للمعروف الذي عملته معه ولما تماثل إلى الصحة تماماً اعلن لي شكره الخالص وأنه بات لي مخلصاً نفساً وجسداً .

– وعاد بافكاره إلى نقطة اخرى شغلته كالاولى فقال :

– ساتيا . من هو يا ترى هذا الرجل ؟ أني لما تعقبت اثار موبغير إلى ايطاليا منذ سنوات بعيدة اتذكر أنه التجأ إلى ايطاليا واتذكر أني تعرفت في فلورنسا بعمل للسلاح الذي اكتشف ضرباً جديداً من الطعن دعاه ساتيا أي الصاعقة وما تلك الطعنة التي كان يباهي بها الا ما يتعلمه اولاد المدارس وقد عرفتها في الحال لما رأيتها للمرة الاولى فهل هو ذات الرجل ؟ .. أجل لعله يكون هو المذكور في هذا الكتاب إذ قيل عنه أنه من اهالي فلورنسا وأنه مستعد للقيام بكل مهمة تعهد اليه . . ما معنى ذلك ؟ ولعل الظروف قد دعت هذا الرجل للتدني إلى هذه السفالة .

وبعد أن فكر بامره ملياً وهو ملقي رأسه على وسادة المقعد عاود افكاره بمناجاة نفسه .

– لا يوجد شيء من المستحيل ولعل هذا الرجل المدعو

ساتيا بستطيع افادتي عما أريده وكيف كانت الحال فأني سأتمكن بفضل هذا الكتاب من معرفة ما كنت اجهله ولا ريب باني إذا واليت التحقيق اتوصل إلى ما أريده فالواجب يقضي علي بمعرفة الرجل المدعو ساتيا والاجتماع معه إذا كان لايزال على قيد الحياة ولا ريب بانه يفيدني عن ابني واعرف منه الحالة التي وصل اليها وهو لا يستطيع نكران الحقيقة علي .

واستغرقته افكاره فرفع رأسه بعد برهة طويلة وقال :

– ولدي .. عجباً لماذا لم توثر علي هذه الكلمة قبل الان تأثيرها اليوم ؟ أن هذا الشاب يقلق فكري قلقاً عظيماً بيد أنه لم يتعرض لي في حياتي الامرة واحدة وكثيراً ما صادفني مثل هذه الاحوال إذ أشعر لمن لا اكون اعرفه ولا رأيته الامرة واحدة بعواطف الحب الفجائي .. ولكن ما السر باستغرابي اليوم ما كنت اخاله فيما مضى حادثاً طبيعياً .

أن هذا الشاب يشبهني شبهاً غريباً فان عمله يسبق قوله كما كنت افعل وأنا في السنة العشرين من عمري وهذا هو السر الذي يحرك عواطفي ويؤثر علي حتى صرت اتساءل إذا كان الشاب ليس ..

لقد بقيت عشرين سنة وانا لا اهتم بامر هذا الولد لأنه ابن فوستا وإذا كان يشبه والدته بادني الصفات فلا يمكن أن يتفاهم مع أبية ولعل الصالح يقضي علينا بان نبقى مجهولين من بعضنا . وقد كدت اعتقد بهذه الحقيقة لو لم يبرز فجأة امامي جوهان

ومن الغريب أنه يدعى هنا وهو اسمي ايضاً .

لقد بقيت مدة سبع عشرة سنة وأنا الاحق دي موريفير لأجل أن اقتله والتخلص منه إلى أن ظفرت به وعفوت عنه وما الذنب ذنبي إذا كان الخوف قد صعقه .. ولقد بقيت عشرين سنة وأنا لا اهتم بولدي ... ولو قال لي احدهم أني سالقاه بعد هذه المدة الطويلة واتعلق به كما يتعلق بي لما كنت صدقته ولكن غرائب هذه الايام لا تخطر بعقل بشر .

★★

الفصل الثالث والثلاثون .

دي سولي وزير الملك

وفي صباح اليوم الثاني ذهب باردليان الى الثكنة القائمة في شارع سان انطوان لزيارة المسيو دي سولي .

ولما وصل إلى يهر الانتظار صدم رجلا على غير قصد منه فاعتذر اليه واجابه الرجل فتلطفاً وهو حادث بسيط لا اهمية له غير أنه انتهز فرصة ذهاب الخادم لاخبار مولاه بقدومه ليدرس ملامح هذا الرجل الذي كانت تدل ظواهره على الثروة والغنى وكان يتمشى ذهاباً وأياباً بخطى ثابتة .

وبعد أن تأمله برهة تبسم ابتسامة من يراجع تذكاراته الماضية وهمس في سره قائلاً :

ـ عجباً أين ومتى رأيت هاتين العينين وهذه الهيئة والمشية أنه يتظاهر بالثبات والسكينة وقد سمعت لهجته فدلني كلامه على أنه أيطالي الاصل فمن هو يا ترى ؟

وعاد الخادم ليدعوة إلى غرفة مولاه فلبى الدعوة وقد نسي الرجل الذي شغله برهة من الزمن .

وكان مكسيمليان دي بتون البارون دي روستي والدوق سولي وزير الملك هنريكوس الرابع وصديقه الحميم رجلاً يناهز الخمسين من عمره عالي الجبهة غزير شعر اللحية وهو كثير العناية بها حديد البصر قاس الملامح تدل ظواهره على الشدة فقام لاستقبال الفارس باردليان كما يفعل الصديق مع صديقه ومد له يده مصافحاً وقد ادهشته هذه الزيارة ولكنه كتم استغرابه لسروره مع مقابلته صديقه والاجتماع معه .

وابدى اشارة إلى خادمه فادنى كرسياً من طاولته الملأى بالاوراق وقال له :

— متى قرعت لك الجرس تدخل الموسيو كيدولوبيني .

فانحنى الخادم باحترام وخرج من الغرفة وظل الصديقان لوحدهما وجهاً ازاء وجه وقال دي سولي .

— يجب يا عزيزي مجاراتك على غرابة طباعك فلست اسألك عما استطيع نفعك به بل أقول لك أية خدمة جديدة تريد أن تقدمها ؟

— اخطأت يا سيدي فاني جئت اليك لارجوك أن تقدم لي خدمة تهمني كثيراً .

— يا لسروري إذا كنت استطيع نفعك وأرجوك أن تطلب ما تريده فهو مقضي في الحال .

— لا يخفاك يا سيدي أني لكثرة اعتزالي العالم لم أعد ادري شيئاً من حوادثه وقد بت اجهل كل الجهل ما يجري في بلاط

ملك فرنسا حتى بت اخجل من نفسي فخطر لي أن اذهب لزيارة الوزير واستطلع منه ما تهمني معرفته :

فكتم الوزير تعجبه من هذا القول ولكنه كان يعرف الفارس باردليان حق المعرفة وأنه لا يضيع له وقته الثمين بالحديث الذي لا طائل منه وأنه لا يبوح بسره وبما يريده الا متى أزف الوقت الملائم فسأله قائلاً :

— ما الذي تريد معرفته يا عزيزي .

— كل شيء فكلمني إذا شئت عن الملك والملكة وحفلة سيامتها ملكة على فرنسا فمتى تجري هذه الحفلة ؟

فتهجم وجه الوزير وقال له الملك يؤجل القيام بهذه الحفلة رغماً عن الحاح الملكة عليه .

وكان باردليان مستنداً كوعه على الطاولة الملأى بالاوراق وبينما الوزير يتكلم وقع بصره على ورقة احتوت ثلاثة كلمات قرأها وهي عشرة ملايين كيدولوبيني » .

وعاود حديثه بسكينة مع الوزير وقال :

— أن الملكة ستزيد في الحاحها هذه المرة .

— كيف عرفت ذلك ؟

— الم يتكهن أحد المنجمين للملك بشأن هذه الحفلة .

— اجل وأن الملك قد زاد خوفاً وهذا التكهن هو الذي يؤخره عن القيام بهذه الحفلة .

— لقد أحسن الملك صنعاً .

– وهل تعتقد بمثل هذه الخرافات ؟

أني قليل التشاؤم لا أصدق غير المحسوس اما هـذه النبوءة فاني على يقين في صحتها .

بربك تكلم لي وقل ما تعرفـه فهل أنت مطلع على شيء جديـد .

كم من مرة قلت لك أني لا اعلم الا أن الملك سيقتل في عربة بعد حفلة عظيمة كحفلة سيامة الملكة وهذا ما تكهن به المنجم .

– وهل تعتقد أن الملكة ..

– لا تكرهني يا سيدي على التكلم بغير أفكاري فان الملكة امرأة والنساء من طبعهن الزهو والمباهاة فهي تريد القيام بهذه الحفلة لتفاخر بعظمتها الملوكية وسيان عندها العواقب مهما كانت وخيمة ولا ريب بانها تجهل أن حفلة سيامتها مقرونة بهذه النبوءة

– سانصح الملك بان يرفض بتاتاً القيام بهذه الحفلة .

– لا أوافق على هذا الرأي .

– لأي سبب !

– لأن الملك إذا ابى على الملكة القيام بحفلة سيامتها فـلا يعدم اعداؤه وسيلة لاقناعه بحفلة اخرى لم تكن تخطر على بالنا فتتم عندئذ نبوءة المنجم .

وما الذي يجب عمله ؟

– أرى أن يحيب الملك رغائب الملكة ويضرب موعـد صريحاً لهذه الحفلة حتى لا يرتاب أحد بحسن نواياه .. أننا الآن

في منتصف شهر ايار وفي امكانه أن يجعل موعدها في منتصف شهر ايلول فتكون أمامنا اربعة اشهر وهي المدة اللازمة للقيام بهذه الحفلة العظيمة الشأن وفي اثناء ذلك يستطيع مليكك أن يكون في مأمن من كل اعتداء اثيم .

صدقت ... وبعد ذلك ؟

– لا تحرم وسيلة لارجاء الحفلة الى الربيع .

– ومتى أقبل الربيع ؟

– حقاً أنك كثير الاسئلة يا سيدي فقد وجدت لك طريقة تتاكد فيها حياة الملك مدة سنة كاملة وخلال هذه السنه تحدث أمور لا تخطر بالبال ويموت كثير من الناس وتتبدل الأفكار وقد لا تتم هذه النبوءة المشؤومة .

لقد كنت على يقين من أنك جئت لتقدم لي خدمة عظمى وقد صرت اخال لما اراك أن أحد الاخطار يتهددنا وأنك جئت لدفعه .

– أنك تبالغ بتلطفك فقد انذرتك الآن بما يجب وأمامك عدة اشهر تكون فيها مطمئناً مرتاح البال وأنا على يقين بانك لا تضيع هذا الوقت سدى .

– كيف أقوم لك بواجبات شكري فانك تهب اصدقاءك مساعدتك دائماً وتأبى أن تتقاضى منهم جزاءاً .

– لا بد من يوم اسألك فيه مساعدتك والملك تراني يومئذ مبالغاً في طلبي .

وقام ليودع باردليان وفي ذات الحين مد يده إلى جرس كان على طاولته وقرعه ليدخل الزائر الذي كان في غرفة الانتظار وكان باردليان قد تقدم خطوتين نحو الباب فتوقف فجأة وضرب جبهته بيده وقال :

– وجدت ...

– ما الذي وجدته ؟

– سألتني منذ هنيهة كيف تستطيع شكري للخدم الزهيدة التي قمت بها وقد وجدت الطريقة التي تمكنك من أدراك مأربك

– هل لك من خدمة تريد أن تسألني عنها ؟

– نعم وهي في نظري عظيمة الاهمية وذلك اني لقيت صعوبة عظمى باجتياز هذه الغرف الملأى بالمنتظرين فهل بامكانك أن تجد وسيلة لمروري من غير هذه الطريق ؟

– هذه هي النعمة التي تريد الحصول عليها .

– أن ما تراه زهيداً يا سيدي اعتبره عظيم الاهمية لأني كما لا يخفاك غريب الطباع .

– الأمر بسيط للغاية فاتبعني إذا احببت .

– كلا يا سيدي فقد اضعت لك كثيراً من وقتك الثمين ولست اطلب منك الا أن ترشدني إلى الطريق التي يجب أن أمر بها .

– اذهب من هذه الطريق التي تؤدي إلى غرفتي الخاصة ومتى صرت في اخر الرواق سر يميناً فتصادف السلم التي تنتهي إلى باحة الشكنة .

فاكتفى باردليان بما سمعه لأنه ادرك الغاية التي يسعى اليها وابدى إلى دي سولي اشارة وداع فعاد الوزير إلى مكانه ولم يخطر بباله إلى ما يدعوه للارتياب .

وازاح باردليان الستارة ولكنه لم يقفل الباب من خلفه بل وقف يصغي إلى ما يقال في الغرفة .

وادخل كيدر إلى غرفة الوزير وتأكد باردليان حين سماعه بداية الحديث أنه لم يخطيء في ظنه وأنه ذات الرجل الذي صادفه ولم يعرفه لأول وهلة وأنه ساتيا الذي صمم على التفتيش عليه .

Ami
www.
Liilas.
Com

الفصل الرابع والثلاثون

اعتقال باردليان

وقف ساتيا امام طاولة الوزير وانحنى باحترام زائد مقرون بمظاهر الاناقة الكاذبة فتفحصه دي سولي برهة وكفنه نظرة وجهها اليه لمعرفة حقيقة الرجل فسأله بجفاء .

– وهل أنت الذي تزعم أنك تريد اهدائنا عدة ملايين ؟

– اجل يا سيدي فاني احمل إلى الخزينة ثلاثة وثمانين مليوناً

– اين هي هذه القيمة ؟ تكلم باختصار واسرع في حديثك لأن وقتي ثمين .

– أني عارف يا سيدي أن وقتك ثمين ولست أطلب منك الا عشر دقائق منه اعطيك لقاءها ثلاثة وثمانين مليوناً فيكون ثمن كل دقيقة عشرة ملايين وهو ثمن باهظ لا يستهان به ولو كان المشتري وزيراً .

– فكر بعواقب كلامك قبل أن تتفوه به وأظنك ستطلب حصتك من هذه الثروة وينتهي أمرك بان اكون أنا المعطي وليس أنت .

اخطأت يا سيدي فاني لا انوي طلب شيء وبالعكس فاريد أن اسديك نصيحة خطيرة تعرف اهميتها متى سمعتها وذلك فضلا عن الملايين التي انا مستعد لتقديمها لك فهل تحققت الآن اني أنا المعطي

– إذا كان الأمر كما تقول فتكلم .

– لا اخالك يا سيدي لم تسمع بكنوز الاميرة فوستا .

– ليس من أحد يجهل خبأ هذه الكنوز إذا كان لها نصيب في الوجود .

– بل هي موجودة وأنا اعرف مكانها وقد جئت لاعرضها عليك .

– وكيف توصلت إلى هذه المعرفة .

– لا يهمك هذا الامر يا سيدي وليكفيك اني جئتك بكنوز الاميرة وأريد تقديمها لك .

واخرج من جيبه ورقة مطوية قدمها إلى الوزير وقال له :

– أن هذه الورقة تتضمن يا سيدي التعليمات الصريحة عن المكان المودعة فيه الكنوز وما عليك الا التنازل لمطالعتها .

وكانت الورقة التي اعطاها ساتيا للوزير هي التي عثر عليها في السجن الذي كان فيه جوهان الشجاع في منزل كونسيني فانه بسقوطه وقعت منه العلبة فتناثرت الاوراق التي كانت فالتقطها واحدة فواحدة وأعادها إلى مكانها ولكنه بسبب الظلام الذي كان مخيماً على ذلك المكان لم ير واحدة منها كما لم يرها باردليان وكرنكايل اللذان انقذاه من سجنه .

واخذ دي سولي الورقة والقى عليها نظرة ولكنه ابدى اشارة دلت على استيائه فلاحظ ساتيا منه هذه الحركة وقال له

– أن هذه الورقة مكتوبة باللغة الايطالية وإذا امرت يا سيدي فاني اترجمها لك لأني ايطالي الاصل كما يدلك اسمي ويمكنك تكليف من تشاء بمراجعة الترجمة لتتأكد صحتها .

فلم يجاوبه دي سولي بل اعاد الورقة فاخذ ساتيا يترجمها بصوت عال وهي ذات الترجمة التي قام بها الاب جوزيف من اللغة الايطالية وباردليان من الاسبانيولية .

ولما انتهى ساتيا من ترجمته اعادها إلى دي سولي وقال له :

– الامر صريح للغاية يا سيدي .

– انك تقدم خدمة مثلى للملكة باعطائك لنا هذه الورقة من غير مقابل ولا بد لي من شكرك على عملك .

– بقي علي أن اسدبك النصيحة التي وعدتك بها فلا اكتمك بانك ستلقى من ينازعك هذه الكنوز التي لم تحصل عليها بعد وصالحك يقضي عليك بان تستولي عليها رغم أنف ...

– ومن الذي يجسر على منازعة ملك فرنسا حقه ؟ اخاف من البابا أو من ملك اسبانيا اعلم أن الزمن الذي كان بداخل فيه الملوك والاغراب بشؤوننا الداخلية قد انقضى وبار .

– أني اتكلم عن شخص هو أشد سطوة وبطشا من البابا وملك اسبانيا .

– لا ريب من جنونك فمن هو هذا الرجل ؟

– هو أحد الاشقياء يا سيدي .

– أن امر الاشقياء يتعلق برئيس الدرك فدعنا من ذكره .

– لست تعرفني يا سيدي قبل الآن فانت تراني بهذه الملابس الانيقة التي يحسدني عليها كثير من الاغنياء وأني ابدو بمظهر أنيق ولكنك عرفتني لأول وهلة أني احد المساكين الذين لا يعرف لهم اصل ولا فصل وقد عاملتني في بداية الامر كما استحق وكدت تأمر خدمك بطردي من أمامي وضربي بالعصى فعجبت لصدق فراستك ولكنك اسأت إلي بهذه المعاملة فاحببت أن ابين لك استيائي منك بالطريقة التي اعرفها .

وانتصب ساتيا واقفاً بمنتهى القوة والجسارة واخذ يحدق بالوزير من غير مبالات وكان يكلمه بشدة مقرونة بادعاء كاذب فذعر دي سولي من لهجته ولكنه بات يهتم كثيراً بهذا الرجل الغريب واحب الوقوف على غايته فقال له :

– صرح لي بافكارك جلياً .

– احببت أن اثبت لك باني لست احمقاً إلى الدرجة التي تتوهمها ولست من الناس الذين يتولام الذعر بسهولة .

– وأراك يا سيدي تنصفني بحكمك علي فانا الرجل غير الاحمق الذي لا يرهب القليل ولا الكثير أقول لك احذر لنفسك يا سيدي فاذا تركت الشقي الذي ذكرته لك حراً طليقاً فهو يتلاعب بك كالريشة في مهب الريح رغم اشتهارك في المقدرة السياسية وأنك لا تعلم قوة بطشه ففي امكانه التغلب عليك وعلى رجالك وعلى الجند إذا خطر ببالك ارسالهم للقبض

عليه وفي نهاية الامر يستولي على الكنوز ولا ينالك الا حرقة خسارتها .

– إذن فانت تكلمني عن الشيطان بذاته وعن زعم عصابة رهيبة لا علم لي بوجودها .

– كلا بل هو رجل لا تثنيه قوة عن مأربه فاذا لم تتخذ كل التحويطات اللازمة حين تمد يدك للقبض عليه فاربما تجد الصناديق خاوية خالية ولعلها تكون افرغ من فؤاد أم موسى .

– أني اقدر لك اهمية هذه النصيحة الثمينة ولست اسألك الا أن تذكر لي اسم هذا الشجاع الغريب

– انه يدعى جوهان الشجاع .

– واين نستطيع العثور عليه ؟

– أنه يقيم في شارع الشجرة اليابسة .

– منذ هذه الساعة اصبحت الملايين التي ذكرتها ملكا لجلالة الملك وكل من يجسر على مديده عليها يتعرض لاشد الجزاء ويسلم بلا شفقة ولاوسعة إلى يد الجلاد سواء كان جوهان الشجاع أو غيره . وإذا ذهبت هذا الشاب على التجول في ضواحي دير مونتارتر اكفل له خلاصه من هذه الحياة وساستدعه الليلة واتولج استجوابه بنفاني .

– أن مولاي أدرى بما يجب عمله .

– هل هذا كل ما تريد ابلاغي اياه ؟

– نعم يا سيدي .

وانحنى أمام الوزير باحترام وخرج من الغرفة برباطة جأش

ولم تفت باردليان كلمة من هذا الحديث فلما شعر بانه لم يبق من موجب لبقائه في مخبأه خرج منه مسرعاً وذهب فوقف في زاوية شارع السبلستين بجانب الباب .

وكان نهر السين يعترض السور الداخلي والثكنة وهنالك مكان فسيح مزروع بالاشجار فكان اللاعبون بالطابة يتبارون باللعب في ذلك المكان .

ووقف باردليان في مكانه برهة وهو يتظاهر باهتمامه بامر اللاعبين ولكنه في الحقيقة لم يكن يفارق باب الثكنة ببصره .

وبعد قليل خرج ساتيا وذهب عن يمينة قاصداً شاع سان انطوان ولم يكد يراه باردليان حتى نسي اللعبة واللاعبين واخذ يسير في اثره ولم يكن قد وطد عزمه بعد على ما يجب عمله معه لأنه كان يود قبل كل شيء أن يستوثق من المحل الذي يقيم فيه ليتمكن من الاهتداء إلى مقره متى احتاج اليه .

عاد ساتيا إلى منزله ولم يخطر بباله أن باردليان كان اتبع له من ظله فانتظر الفارس البرهة الكافية حتى تأكد مكان اقامته فعاد إلى تزلم آمناً مطمئناً .

وكان يؤمل مصادفة جوهان الشجاع في انتظاره ولكنه لم يره فذهب إلى حيث كان يقيم في شارع الشجرة اليابسة فرأى الباب مفتوحاً ودخل المنزل من غير تكلف ولكنه لم يجد فيه احد من الناس .

ولما دخل غرفته كتب ورقة ووضعها في غلاف وختمه واخذه بيده وقال لصاحبة النزل .

– لعلي لا أعود هذا المساء لتناول الطعام كالمعتاد فاطلب منك أن تنهضي غداً في ساعة باكرة فاذا لم اكن موجوداً في غرفتي تأخذين هذا الكتاب وتذهبين به إلى الدوق سولي وتطلبين مقابلته بحجة أنك مرسلة من قبلي فيدخلونك عليه في الحال فتعطيه الكتاب وتعودين آمنة الى نزلك .

وفي الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم خرجت من الثكنة التي كان يقيم فيها الوزير دي سولي باعتباره رئيساً للدفعية فرقة من الجند يقودهـا ضابط شاب فوقفت في شارع الشجرة اليابسة أمام المنزل الذي يقطنه جوهان الشجاع فاوقف الضابط ستة من رجاله امام المنزل ودخل اليه اربعة من الجند .

وكان جوهان الشجاع كعادته لم يقفل الباب من خلفه بالمفتاح فتمكن الجند من دخول المنزل بسهولة فرأوا رجلا نائمـاً على سرير صغير وهو ملتف بردائه فعرفوه أنه جوهان الشجاع وفي اسرع من لمح البصر شدوا وثاقه وقـادوه الى الحفة التي كانت بانتظاره فاحاط بها الجند وعادوا به الى الثكنة .

قبض على جوهان الشجاع بسرعة زائدة فلم يلاحظ احد من الجوار ولم يكد السجين يصل الى الثكنة حتى وضع في غرفة مظلمة واقفل عليه بابها وقد تركوه موثقاً فاضطر ان يبقى على الحالة التي تركوه فيها وهو لا يستطيع أن يأتي حراكا .

وظل جوهان في مكانه ست ساعات ونصف كانوا قد وضعوا على رأسه طرف ردائه لئلا تظهر ملامح وجهه وكان

مغلولا مكوماً في آن واحد .

وفي الساعة السادسة والنصف دخـل سجنه اربعة رجـال أشداء فحملوه على اكتافهم إلى حيث كان لا يـدري لأنه لم يكن يرى النور فوضعوه على كرسي ونزعوا الرداء عـن وجهه ولكنهم لم يفكوا اغلاله ووقفوا من خلفه يلتظرون الأوامر التي ستصدر لهم بشأنه .

ولما ظهر وجه السجين في النورتقدم منه رجل كان لا يزال جالساً قرب طاولته في آخر الغرفة وهو الوزير دي سولي وقال مبهوتاً :

– الفارس باردليان !

وكان الفارس باردليان قد بات سجيناً في الغرفة التي قوبل فيها صباحاً كزائر عظيم القدر والمقام فلم يبد شيء من امارات الدهشة لما صارت اليه حالته كانه كان عالماً بها من قبل بل بدت عليه ملامح السكينة التامة .

ودهش الوزير دي سولي دهشاً عظيماً لرؤيته هـذا الامر الذي لم يكن يتوقعه وقد زاد تعجبه لما سمع الفارس يقول له :

– ما معنى هذا المزاح البارد يا سيدي فهل جن رجالـك يا ترى .

وكان دي سولي قد رأى الفارس باردليان مقيداً بين ايدي جنده فلم تطق عينيه ولكنه لما سمع حديثه لم يبقى عنده شيء من الريبة فصرخ منتهراً رجاله وقال لهم :

— الويل لكم ايها الاشقياء لماذا تتأخرون عن حمل اغلال الفارس ؟ الم تتأكدوا حق الآن انكم ارتكبتم خطأ فادحاً بالقبض عليه .

فاسرع الجند بحمل قيود الفارس التي كانت تدمي ذراعيه وانسحبوا من الغرفة امتثالاً للاشارة التي ابداها لهم الوزير الذي اخذ يستفيض بالاعتذار لباردليان فكان يسمع اعتذاره مبتسما حتى بلغ الوزير الحنق اشده فصرخ قائلا .

— عجباً كيف جرى هذا الامر .

— وحقك يا سيدي أني لست اكثر علماً منك به .

— يجب أن اعرف كيف توقعت هذه الحادثة واقف على تفاصيلها لأني لا أريد ترك هذه الاهانة التي لحقت بك من غير عقاب .

— لا موجب لهذا الامر الذي ستلحقه بؤلاء المساكين لأنهم لا يستحقونه فضلاً عن كوني عفوت عنهم .

— انك جواد كريم كعادتك ولكن أريد أن اعرف كيف ينفذ رجالي الاوامر التي اصدرها لهم .

— لا بد لي والحالة هذه من مكاشفتك بما اعرفه لأني بينما كنت اترقب عودة صديقي الغائب عن منزله تغلب علي النعاس فقمت واستلقيت على سريره وبينما أنا نائم لم اشعر الا والجند قد انقضوا علي وقيدوني بالاغلال قبل أن اتمكن من تعريفهم بنفسي وقادوني إلى هنا واذا كنت تستطيع افادتي عن السبب

الذي لاجله عوملت هذه المعاملة اصبر شاكراً لك إلى الابد .

— وما اسم الصديق الذي تترقب عودته ؟

— جوهان الشجاع .

فقفز دي سولي عن كرسيه وقال :

— جوهان الشجاع ؟ لقد ادركت الآن سر المسئلة .

— لا غرابة إذا كنت اعلم مني بهذه الدقائق الغريبة

— وهل جوهان الشجاع صديق لك ؟

— اجل بل هو من غيرة اصدقائي

— كنت اصدرت أوامري بالقبض على جوهان الشجاع وهو احد اصدقائك فرآك القائد نائماً في سريره كما لو كنت في منزلك فتوهملك اياه وقبض عليك .

— وما الداعي للقبض عليه ؟ وأية جريمة ارتكبها هذا الصديق ؟

— لست اكتمك ايها الفارس باني تبغلت عن هذا الشاب أنه شقي يرهب جانبه وأنه يتآمر على الملك .

لقد اخطأ كل من بلغك هذا الامر أيها الدوق فأني اعرف الناس بجوهان الشجاع واؤكد لك بأنه لن تخطر بباله المؤامرة على الملك وعدا ذلك فان لهذا الشاب المسكين من المشاغل الخطيرة ما تصرفه عن الافكار بهذا الامر فهو عاشق ولهان لفتاة يهمني امرها كثيراً وهذه الفتاة قد اختفت وهو يهتم بالتفتيش عليها وليس له من وقت يضيعه بالمؤامرة وامثال

هذه الترهات أما قولك عنه انه شقي .

– يخال أنك صادق في قولك واعدك وعداً شريفاً بان لا ازعج هـذا الشاب بعد الآن بما انك كفلته لي ولكن اسألك التنبيه عليه بان يمتنع عن التجوال حول دير مونتمارتر فان ضواحيه ستصبح عن قريب شديدة الخطر أو بالحرى محظورة على كل من لا اعرفه معرفة شخصية فبلغ هذا الامر الى صديقك بالنيابة عني .

فانحنى باردليان أمام الدوق وقد بدت على ملامحه امارات السخرية كأنه لا يبالي بهذه النصيحة أو هو يحتقرها واستأذن منه وعاد إلى المنزل وطلب من صاحبته الكتاب الذي كلفها بايصاله الى الدوق واطعمه للنار .

وبينما هو كذلك اقبل جوهان الشجاع فقال له :

– لقد جئت وايم الحق في الوقت الملائم لأني كنت أود الذهاب اليك ثم اخذ الشاب يقص على الفارس الحوادث التي جرت له في ذلك اليوم وخلاصتها أنه لم يقف على آثار الانسة برتيل رغم المساعي الكثيرة التي بذلها في هذا الشأن وكان باردليان يصغي اليه بمزيد الانتباه وكتم عنه انه قبض عليه بدلا منه ولم يذكر له شيئاً عن خيانة ساتيا لكنه انتحل اسم كيدولوبيني ولا عن الحيلة التي استعملها لابطال دسيسته .

ثم خاطبه الفارس قائلا لقد نسيت أن اسألك إذا كنت تعرف من يقطن المنزل الكائن في زاوية شارع الترواندييري

ازاء بئر الغرام .

– اجل اني أعرفه وهو ابي !

فلم يتمالك باردليان عن الارتجاف حين سماعة هذا الجواب وقفز من مكانه كأن الافعى لسعته فتبسم جوهان ابتسامة غريبة وترك الفارس في مكانه عرضة للحيرة والأفكار .

الفصل الخامس والثلاثون

هنريكوس والملكة

وهنا نستميح القراء عذراً أو عفواً لنقلهم إلى غرفة الملك الخاصة المجاورة لغرفة منامه التي رأيناه فيها في فصل سابق ولم يكن يقبل في هاتين الغرفتين الا اوفى اخصائه ورجال ثقته .

وفي اليوم الثاني لزيارة باردليان للدوق دي سولي كان الوزير مجتمعاً مع الملك هنريكوس الرابع في هذه الغرفه فحاول في بداية الامر اقناعه بالفكرة التي ارتآها باردليان وهي أن يتظاهر الملك باجابة طلب الملكة ويحدد يوماً معيناً لحفلة سيلبسها ملكة على فرنسا غير ان الملك لم يكن من الذين يقتنعون بغامض الاقوال فاضطر الدوق أن يطلعه على ما جرى بينه وبين باردليان من الحديث .

ولم يكد هنريكوس الملك يسمع الكلمات الاولى حتى اصفر وجهه وارتمى على مقعد لأن خوفه من القتل كان شغله الشاغل ولما انجز الوزير حديثه ضرب الملك فخذيه بغضب ونهض واقفاً وقال :

— اجل انهم سيقتلونني ولن أخرج حياً من هذه المدينة .

— اخطأت يا مولاي بل تبقى سليما إذا تنازلت لاتباع نصيحتي والعمل بها .

— وما الذي استفيده من تأخير هذه الحفلة إلى الربيع .

— اقول لمولاي ما قاله الفارس باردليان أننا نستفيد سنة برمتها وهي مدة كافية فيما أرى لتنفيذ مشروعنا الاعظم ومتى جاء فصل الربيع تنجو من خنجر القتلة وتعود من حملتك على المانيا ظافراً مكللا بتيجان النصر والظفر ولا يعود أحد من اعدائك يجسر على النظر اليك

وأخذ الملك يتمشى كعادته في الغرفة ذهاباً وايابا بخطى متسعة وهو يفكر بالاقوال التي سمعها من وزيره وهو كما روى عنه التاريخ سريع الخاطرة قوي الارادة فقال لوزيره :

— صدقت فلست أرى غير هذه الوسيلة لادراك مأربنا والنجاة من الخطر الذي يتهددني ولكن يلزمنا لذلك المال الكثير فهل من وسيلة لايجاده :

— أجل يا مولاي وإذا تناولت لالقاء نظرة على هذه الورقة تتأكد صدق قولي :

قال هذا وأعطاه الورقة التي اخذها من ساتيا وكان هنريكوس الرابع متعلماً اكثر من رجال بلاطه ويحسن اللغتين الاسبانية والايطالية فقرأ الورقة ولم يحتج إلى مترجم كما فعل الدوق دي سولي ولما انتهى من قرائتها اعادها لوزيره وقال له :

– ما هو هذا الكنز وما فائدتنا منه .

– أن هذا الكنز يبلغ ثلاثة وثمانين مليوناً .

– حقاً أن هذا المبلغ لطائل .

وقص عليه بوجيز العبارة ما عرفه عن حكاية كنوز الاميرة فوستا وانجز حديثه بقوله :

– أن هذا المبلغ العظيم يفيدنا فائدة كبرى لانجاز معداتنا العسكرية .

– ولكن هذه الأموال لا تخصنا .

– عفواً يا مولاي فان هذه الكنوز مخبوءة في املاكك منذ عشرين سنة وصاحبها لم يظهر بعد إلى الوجود وما وجد في املاك الملك يخص الملك وهذه حقيقة مسلمة لا يستطيع احد نكرانها .

فنهض الملك للحال واستدعى اليه الملكة ولما وصلت خاطبها بسكينة

– رغبت في مقابلتي واظنك تريدين محادثتي بشأن حفلة سيامتك ملكة على فرنسا .

– صدقت يا سيدي ولكني اظن أن ملتمسي سيقابل بالرفض هذه المرة ايضاً فسان الملكة لا تستطيع أن تحصل من الملك .

اخطأت يا سيدتي فاني أريد اليوم منحك ما رفضته عنك حتى الآن .

– كيف ذلك ! هل تجيب يا مولاي مطلبي !

لقد قررت مع ابن عمي سولي اموراً خطيرة للغاية ومن المحتمل أن اجرد حملة في الربيع القادم وفي غياب الملك تنوبين عنه في ادارة المملكة وقد رأيت أن الواجب يقضي بتأييد سلطتك ورغماً عن النفقات الطائلة التي تتطلبها هذه الحفلة العظيمة فان الواجب يقضي باقامتها لذلك قررت اجراءها في اليوم العشرين من شهر ايلول .

– لقد صيرتني سعيدة وأنك طيب الفؤاد يا هنريكوس .

– صدقت يا عزيزتي ولملك تعرفين قيمتي الحقيقية لما افارق هذه الحياة .

– اما وقد تلطف جلالة الملك معي إلى هذه الدرجة فلي نعمة أخرى اسأله اياها ولعله لا يبخل علي بها .

– وما الذي تريدينه ؟

– أني في حاجة إلى المال .

– المال ... المال .

– قيمته زهيدة فاني أطلب عشرين الف ذهب فقط .

– وهل ترين أن هذه القيمة زهيدة لا تستحق الذكر ؟ ام تريدين أن ندفع شعبنا إلى الدرجة القصوى من الفقر بما نفرضه عليه من الضرائب الباهظة لتشبعي بطن كونسيني وزوجته لأن كل الاموال التي تأخذينها منا تتسرب إلى صناديقها وأنت تريدين سلبنا البقية القليلة لتغني هذين النهمين وإذا كنت طيب

القلب كما تقولين فما انا بالرجل الابله .

– أنك لا تبخل باموالك على خليلاتك بخلك علي بها .

فضرب الارض برجله وقال بغضب أني الحاكم المطلق افعل ما اريده .

– امرك يا سيدي وسأقول لرئيسة دير مونتارتر أن ملكة فرنسا لا تمكنها وسائلها المالية من تقديم الخدمة التي طلبتها منها لترميم منزل الرب وابغيلها بان تطلب ذلك من السيدة دي فرنيل التي لا يبخل عليها جلالة الملك الحاكم المطلق بما تطلبه منه .

وبلغ بها الغضب اشده فنسيت الجميل الذي اسداه لها منذ هنيهة فتوجهت نحو الباب غضبى تريد الخروج .

ولما سمع الملك اسم رئيسة دير مونتارتر تبادل مع الدوق دي سولي نظرة سريعة تفاهما منها ما يريدانه وقال الملك وقد لطف لهجته .

– مهلا يا سيدتي واذا كنت ارفض عليك المال الذي تعطينه لذلك الايطالي وزوجته الطماعين ولكني لا ابخل به اذا كان الامر يتعلق بعمل خيري أو ديني ولست اريد أن يقال بان خادمات الله كن يلجأن إلى كرم الملكة ولم تلب طلبهن .

وادركت الملكة انها فازت بما تريده فعادت اليها ابتسامتها ولكن لم يخطر ببالها أن زوجها اطلع على ورقة مثل الورقة التي اطلعتها عليها اليونورا فباحت بسرها وهي لا تدري وقالت :

– لقد قالت رئيسة دير مونتارتر انها علمت عن ثقة بانه يوجد

تحت كيسة الشهيد قبو فيه مذبح حجري وهو القبو الذي كان يصلي فيه القديس دنيس فيما مضى ويقيم على مذبحه القداس الالهي وتريد الرئيسة أن تجري فيه الحفريات اللازمة لتكشف هذا المكان ويصبح للمؤمنين مكاناً يحجون اليه وتعاد إلى ديرها شهرته السابقة غير أنها فقيرة فعمدت إلى كرم الملكة وطلبت مساعدتها والمال الذي طلبته يخصص لهذه الغاية المقدسة التي ستجلب على فرنسا بركات الاله .

فنظر الملك إلى وزيره كأنه يريد أن يستشيره بالامر فاقترب منه وهمس في اذنه بعض كلمات بصوت منخفض ونظرت اليه الملكة ماري دي ميديسيس بقلق زائد لأن الدوق دي سولي كان أمين خزينة الملك الاعظم . وهو الذي كان يعطي الملكة وخليلاته الأموال اللازمة وقد اختاره لهذه الوظيفة ليضع حداً لمطامع خليلاته اللواتي كن يكثرن عليه من الطلب .

ولم تلبث الملكة أن اطمأنت لأنها سمعت الملك يقول لها بتعجب :

– معاذ الله يا سيدتي أن امنعك عن الاشتراك بعمل خيري يجلب علينا بركات الاله وسيعطيك الدوق دي سولي ما أنت في حاجة اليه غير أني اضع لذلك شرطاً واحداً .

– وما هو شرطك يا مولاي ؟

– تبين لي من حديثك أن هذا العمل كثير القداسة نبيل الغاية فلست أريد أن اشترك فيه بالمساعدة المالية فقط بل أريد

أن أراقب وادير هذه الاعمال إذا اقتضت الحال فبلغني ارادتي إلى رئيسة الدير .

ولم يخطر ببال الملكة أن الملك يضمر مقصداً خفياً فوثقت بحسن نيته وشكرته بقولها :

– أن جلالة الملك هو الحاكم المطلق .

واسرعت لتبليغ هذه البشرى إلى اليونورا وكونسيني فلم يخطر ببالهما انهما سيشتبكان عن قريب مع الملك واكوافيفا وأنهما سيمنعانهما عن الحصول عن الكنوز التي حسبا امتلاكها .

**

الفصل السادس والثلاثون

أنفصال جوهان عن رفاقه الثلاثة

وفي ذات اليوم عند الظهر استصحب جوهان الشجاع اسكركاس ورفيقيه إلى الحانة وخاطبهم بقوله :

– لم يبقى لي من أوامر اصدرها لكم ايها الاخوان ولم أعد رئيسكم وقد انتهت بيننا كل علاقة فاستودعكم الله .

فنظروا اليه مبهوتين وقد اصفرت وجوههم حتى شابهت الأموات بلونها وزال سكرهم فجأة وقالوا بصمت واحد .

– اذن فانت تطردنا من خدمتك .

– ما الذي جنيناه لنستحق عقابك .

– كيف نستطيع المعيشة بدونك .

– ليست اطردكم أيها الرفاق الشجعان ولم تأتوا عملا اشكوه منكم ومع ذلك فيجب علينا أن نفترق .

– وما الموجب لهذا الافتراق ! أن من يريد طرد الذين هم في خدمته يبلغهم سبب طردهم إذا استغنى عن خدمتهم .

لأني قد عولت على تغيير نوع معيشتي وإذا بقيتم تتعرضون

Ami Wwwilas.Com

للموت جوعاً :

– لماذا نموت جوعاً ؟

– الم نجد طعامنا حتى الآن ؟

– كيف نشكو الجوع وسيوفنا في اغمادها .

– هذا هو الأمر الذي صممت على العدول عنه وهو الذي يدعونه السرقة .

واعاد ثلاثتهم هذه الكلمة بصوت واحد وقد بدت عليهم امارات القلق فادرك جوهان مقصدهم وقال لهم بشدة :

– نعم أنكم لم تدركوا مقصدي فقد طالما كنت اعتقد أن من العدالة مطالبة الغني بحصة الفقير أما اليوم فقد عرفت الحقيقة وتأكدت بأني كنت لصاً .. نعم أني ارتكبت هذه السفالة التي أخجل منها اليوم لمجرد افتكاري بها وأني افضل قطع معصمي وطرحه للكلاب على عودتي لهذه السفالة .

وكانت لهجته تدل على الجد فأدركوا مقصده وتوقفوا مذعورين لأنهم كانوا على يقين من غرابة اخلاق رئيسهم فتبادلوا النظرات وتفاهموا في الحال وقد ايقنوا أن ارادة رئيسهم لا تتحول ولا يحاول من تنفيذ مأربه مهما كلفه الامر فما عليهم إلا اطاعته ولا قضي عليهم سوء الطالع بالموت جوعاً .

وكانوا في ذلك الحين يمتلكون ما يكفيهم بفضل كرنسيني وما كان ينفقه عليهم فكانت ملابسهم جديدة انيقة وسلاحهم ماضياً ومنزلهم واسعاً فسيحاً وجيوبهم ملأى بالجواهر والنضار ولم يكن جوهان يريد الافتراق عنهم الا لكونه لم يكن

يستطيع الانفاق عليهم فلما اطمأن على حالتهم سكنت هواجسه واطمأن باله وعزم على استخدامهم متى احتاج اليهم .

وظلوا واقفين في الطريق ينظرون اليه وهو يبتعد عنهم حتى غاب عن بصرهم فذهبوا إلى المنزل الذي كانوا يقيمون فيه للمداولة فيما بينهم بما يجب عليهم عمله .

وتبين لهم أنهم يمتلكون اربعمائة ذهباً وهي ثروة طائلة بالنسبة لهم عدا المجوهرات التي كانوا قد اختلسوها من كرنسيني وهي تساوي ثلاثة الاف ذهب فيستطيعون أن يعيشوا سنة كاملة في بحبوحة واسعة من العيش والكيف .

وكان لكرنكايل اخت تدعى بيريت الحسناء وهي التي سيمر بنا ذكرها وكانت قد ناهزت السنة السابعة عشرة من عمرها وقد استحقت لقب الحسناء بكل معنى الكلمة لأنها على وضاعة اصلها وفساد المحيط الذي كانت تعيش فيه ظلت محافظة على عفافها وكانت تشتغل بيدها لتقوم باودها ورغماً عن نحافة بنيتها فقد كانت تظهر نشاطاً غريباً وشجاعة زائدة في العمل متى صارت تضرب فيها الامثال بين أترابها .

ولم تحب في حياتها غير كاركان رفيق أخيها فكان حبها له صحيحاً خالياً من كل شائبه ولكن ما الذي ترتجيه فتاة طاهرة الذيل من حب لص قضى حياته في الشقاء والدعارة .

غير أن حبيبها لم يخن لها عهداً بل تقدم إلى اخيها الذي كان رئيساً للعائلة وطلب منه الاقتران باخته فبلغ هذا الطلب لشقيقته الحسناء ولكن ما كان أشد انذهاله ودهشته حين

سمعها ترفض هذا الطلب بتاتاً وتصرح بانها لا ترغب بالزواج ولكنه لكثرة ما الح عليها وعدته بان تفتكر بالأمر وتجاوبه بعد حين من الزمن .

واقتنع العاشق بهذا الوعد ولكنه ظل على عوائده السابقة من معاقرة الخمر ومنادمة الحسان وقد وطد عزمه على الاقلاع عن تلك العوائد الرديئة حتى صار زوجاً للفتاة التي كان يهواها

ولما حسب الرفاق ثروتهم تذكر كاركان أن جسم بيريت النحيل وبنيتها النحيفة يمنعانها من مداومة الشغل الشاق وكان اقصى امانيها أن تمتلك الف ذهب لتشتغل لحسابها الخاص وتستأجر العاملات وتكون عليهن الرئيسة وهو عمل لا يتعبها كثيراً .

تذكر كاركان كل ذلك واعاده لرفيقه كرنكايل واقترح عليه أن يشتركا باعطاء الفتاة الف ذهب لتحقيق امنيتها فسر الشقيق لهذا الاقتراح الذي لم يكن يخطر له ببال وقبله من غير تردد .

وقسموا في الحال المال إلى ثلاثة اقسام متساوية ورأى اسكوركس أن كل من رفيقيه يفرز خمسائة ذهب على حده فاستعلم عن السبب لما عرفه حنق عليهما حنقاً زائداً وابدى لهما رغبته الوطيدة في مشاركتهما بهذا العمل ارضاء للعزيزة بيريت التي يعتبرها بمثابة شقيقة له وقام بملء الرضا والسرور ا لمتوجبة عليه .

الفصل السابع والثلاثون

وليمة العجوز بريجيت

ولم تدم ثروتهم اكثر من خمسة عشر يوماً وما ذلك لاتقانهم المال على قارعة الطريق أو لانفاقهم من غير حساب أو لمشتراهم ما كانوا في غنى عنه .

كلا فانهم لم يغيروا شيئاً من اخلاقهم وكان في وسعهم أن يبقوا معهم تلك الثروة شهرين وثلاثة اشهر يعيشون فيها في بسطة ورضاء من العيش .

ومن سوء الحظ أنه خطر ببالهم المقامرة في الحانات التي كانوا يرتادونها وبما أنهم عولوا على التوبة فقد حسبوا أن جميع الناس يهابونهم وأن لصوص باريس قد صاروا أشرافاً مثلهم ومنذ تلك الساعة لم يعودوا يجازفون احداً من الاشقياء .

وفي إحدى ليالي النحوس وجدوا في حانة مع جماعة من لصوص القمار المشهورين وفي أقل من ساعة خسروا كل ما كان معهم مما اضطرهم أن يفروا هاربين لأن الذين سلبوهم اموالهم

انسلوا خلسة وفي يوم من أيام شهر حزيران الحارة بينما كانوا يتمشون في شوارع العاصمة الكبرى وهم يصيفون سمعاً لكل حديث يسمعونه على أمل العثور على فرصة مناسبة يبدون بها طوى بطونهم الجائعة إذا بهم قد بلغوا شارع الشجرة اليابسة .

وبينما هم كذلك ضرب كاركان جبهته بيده وصرخ قائلا :

– لقد وجدت .

وما الذي وجدته .

– الوسيلة التي نتناول بها طعامنا اليوم ولعلها تفيدنا في المستقبل فالبثا في هذا المكان ولا تتحركا منه إلى أن استدعيكما

جرى ذلك أمام منزل كولنيكل فان كركان ابصر وجه العجوز من خلف النافذة وتذكر في الحال ما كانت عرضته عليه يوم خطف الآنسة برتيل فانها لم تكن تفارق تلك النافذة وقد وطد عزماً على الانتفاع من هذا الخطف .

كانت العجوز قد بحثت طويلا عن المركيز لا فارين ولكن نديم الملك لم يكن يفارق منزله لأنه لم يكن يحسر على الظهور أمام الناس وآثار اللطم بادية على وجهه فلما يئست من وجوده حصرت املها بكاركان غير أن الشاب لم يرجع اليها كما كانت طلبت منه .

ولما اخذت تقطع أملها من رجوعه إذا بها تراه واقفاً أمام منزلها فلم تتردد بأمرها بل فتحت النافذة وبادته منها .

وعرف كرنكابيل واسكركاس العجوز فادركا مقصد رفيقهما وعاد لهما الأمل فوقفا في مكانهما وعزما على عدم

مبارحته إلى أن يبدي لهما كاركان اشارة بما يجب عمله .

وفتحت العجوز باب منزلها فدخله كاركان بوقار وولج محرابه إلى المطبخ الذي كان بمثابة غرفة للطعام ايضاً ولما اصبحا لوحدهما رأت العجوز أن تتظاهر بالخجل فخفضت بصرها ورأى كاركان أن من حسن الرأي ملاطفتها ومداعبتها بالحديث فقال لها :

– منذ رأيتك ايتها الحسناء خيل لي أني نسيت فؤادي في هذا المكان وقد جئت لافتش عليه فاذا كنت وجدتيه فستبقيه معك ولكني اسألك بالله أن تهبيني قلبك بدلا عنه إذا اردت أن ابقى في قيد الحياة .

– لماذا أنتظرت هذه المدة الطويلة ايها الشاب بعد أن اذنت لك بان تأتي لزيارتي ؟

لسوء الحظ أني في خدمة امير عظيم فاضطررت أن أتبع مولاي الذي ارتأى أن يتغيب عن العاصمة مدة من الزمن فامنت سوء طالعي وقد قاسيت العذاب ما تنوء بحمله الجبال الراسيات . !

ثم أخذت يده وضغطت عليها بلطف كأنها تريد أن تفهمه بان زمان عذابه قد انتهى وقالت له :

– أني ادعى بريجيت وأنت ما اسمك ؟

– اسمي كاركان فيا بريجيت يا مليكة فؤادي أني مغرم بك إلى الممات وقد ثبت لي أني لا اقوى على الحياة بدونك فكاننا خلقنا لنجتمع سوية .

– وقد قررت عزمي على البقاء عندك ولست افارقك بعد الآن يا بريجيت المحبوبة وسنقضي حياة سعيدة . ثم الح عليها باحضار شيء من الطعام فلبثه طائعة وبينما هي في القبو تهيىء لعشيقها الجديد مـا يسد به الم الجوع سألته على الاباحة لها من غير تكتم .

الم تأزف ساعة الطعام بعد ؟

ولم يكن مرتاح البال كما يجب في مثل هـذه الحـال لأن العجوز كانت لا تزال تظهر له شيء من التحفظ والتكتم ولكنه كان مخطئاً في وهمه لأنها كانت تفتكر في أمرها فهي بخيلة للغاية ولكنها لم تكن بلهاء وقـد عملت حساب مـا سيكلفها ذلـك الطعام ولكنها فكرت في ذلك الحين أن التظاهر بالكرم خير وسيلة لاطلاق الالسنة عن عقالها وهي تريـد أن تسمع منه مـا كانت تجهـله فـالنفع الذي كانت تجنيه يفوق كثيراً المصروف القليل الذي تتكبده فصممت عزمها على العمل في الحال وقالت له لا تتناول طعامي قبل الساعة السادسة .

– أخطأت يا بريجيت الحسناء وأني على يقـين من خطئك لأن معدتي تؤكد لي بان الساعة قد بلغت التاسعة .

ورأى ملامح الذعر والقلق بادية على محياها فعمد إلى الوسيلة العظمى التي نجحت معه في المرة الأولى فاخذها بين ذراعيه وقبلها في عنقها وقال لها :

– لقد صيرتيني ايتها العزيزة اسعد البشر ولا ريب بان السعادة تؤثر على المعدة كما ترين حالتي الآن .

– كفاك مداهنة ايها الخبيث .

– وحقك أني منذ رأيتك لم أعد أهنأ بأكل ولا شرب ولا نوم والآن وقد اجتمعت معك فقد حصل لي رد فعل شديد فاذا لم تقدمي لي يا بريجيت طعاماً في الحال اسقط تحت قدميك مغمياً علي قبل أن اتمكن من جني ثمرة القبلة التي اخذتهـا من عنقك الفتان" .

وكانت العجوز تبذل مجهودها لتكسب وجهها حمرة كاذبة وقد كانت منذهلة في سرها من هذا الواقع الغريب الذي ابداه لها هذا الشاب ولكنها كتمت تعجبها وقالت له : سأهيء لك حالاً وخرجت لاعداده .

وإذا بكمار كان قـد وضع كرسياً قرب النافذة وصعد عليها وخاطب رفيقه الذين لا يزالان في انتظاره فتلقيا ما سمعاه بسرور لا مزيد عليه ثم نزل عن كرسيه بعجلة وأخذ يتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً من النافذة إلى الباب وبالعكس .

وكانت اشعة الشمس تتخلل النافذة وتقع على درج كان على مقربة منه فنظر اليه من غير مبالاة ولكنه رأى فيه شيئاً يلمع كالفضة فاستجلب هذا الشيء اهتمامه رغماً عنه فمد يده وتناول العلبة ووضعها في جيبه ورأى العجوز قادمة نحوه فاخذ يسعل بشدة ليكتم اضطرابه .

وكان هذا السعال اشارة متفق عليها ففي ذات الحين قرع الباب بشدة فقفزت العجوز قادمة من مكانها وقد بدت عليها امارات القلق والوجل ونظرت إلى كارکان بذعر لا يوصف

فوقف أمامها منتصباً وقد فتل شاربيه كأنه يريد تسكين هواجسها لوجوده معها مرتاحة .

وتضاعف القرع بشدة وفي ذات الحين سمعا صوتاً يقول :

– كاركان .. كاركان أين أنت ؟ هل مت أو ذهبت إلى الابدية ؟ كفانا انتظاراً لك فان طعامنا قد برد .

وصرخ كاركان بفرح لا يوصف .

– افتحي الباب يا عزيزتي بريجيت فان من يناديني من الاصدقاء ثم التفت فرآها جامدة في مكانها فقام وفتح الباب بذاته وادخل صديقه وهو يتظاهر بعدم المبالات لما رآه من قلق العجوز واضطرابها .

ودخل كرنكايل واسكركاس منزل العجوز رغماً عنها وكان رفيقها كاركان يتظاهر برفعة المنزلة وعلو المقام فقدمهما لصاحبة البيت وعرفها بهما فجمد الدم في عروقها لما ابصرتهما واقتبلتهما ببرودة لا مزيد عليها غير انهما لم يباليا بما رأيا من فتورها بل ضاعفا ابتساماتهما وقال لها اسكركاس :

– عفواً يا سيدتي لازعاجنا اياك حين انفرادك مع صديقنا كاركان الذي اراه نسي دعوتنا اياه لمناولة الطعام معنا .

– وهل حسبتم منزلي حانة وأني استطيع أن اضيف فيه مجاناً كل اشقياء باريس ؟

فاجابها كاركان ساخطاً .

سحقاً لك ايتها الشقية ايثل هذه الوقاحة تقابلين الشرف

الذي حصلت عليه بسببي ؟ فلنذهب ايها الصديقان ولنغادر هذا المكان فاني اخطأت باعتقادي في هذه الامرأة لأني كنت اتوهمها سيدة نبيلة وكريمة وإذا هي ابخل من البخيل فلنذهب ولندعها وشأنها .

– لقد أخطأتم أيها السادة فهم مقصودي لأني اردت أن أقول لكم أنكم لا تجدون في منزلي الطعام اللائق بكم ولا استطيع أن اقدم لكم ما اعتدتم على تناوله من اصناف الاكل الشهي .

فسكن بال العجوز لهذا القول واطمأن خاطرها ثم ذهبت واعدت ما جهز عندها من الطعام وهو ما لا يكاد يكفي أحد المدعوين ولكنها توهمت أنها قدمت لهم دعوة ملوكية فتناظروا مدهوشين غير أن كركان عرف الوسيلة العظمى التي يستطيع بها التغلب على العجوز وهي التظاهر أمامها بالقدر والاستياء فاستعمل طريقته ولم يلبث أن ادرك مأربه لأنها اعطته مفاتيح القبو فنزل اليه واحضر منه ست زجاجات من الخمر المعتقة ونصف فخذ من اللحم المقدد وعلبة من الحلوى .

ولما انتهوا من مناولة الطعام قاموا إلى غرفة الاستقبال وقد أخذوا معهم ما بقي من الخمرة ليشربوها وقد توهموا أن منزل العجوز خير من سواه فيطرقونه كلما احتاجوا اليه ريثما يتمكن رئيسهم جوهان من مساعدتهم وتخليصهم من تلك الحالة المكربة ثم بادرت العجوز كاركان بالسؤال قائلة :

– قلت لي أنك تخدم اميراً عظيم فما اسم مولاك الأمير ؟

– هو الامير الفلورانتيني بل هو ابن عم جلالة الملكة ماري دي ميديسيس .

– وهل تغيب الامير عن العاصمة .

– لقد عاد إلى وطنه فلورنسا ولا يعود منه بعد الآن .

فصمتت وتمتمت قائلة وما الذي فعله بالفتاة التي كانت مستأجرة في منزلي .

– الا تعلمين بان هذه الفتاة قد باتت في امن تام تحت حمية مليكنا المعظم وقد تبين لنا أنها من اسرة شريفة وهي من اقرب المنتمين لجلالته .

– إذا كان مولاكم قد عاد إلى موطنه فانتم بلا عمل الآن

– اجل ايتها السيدة الكريمة .

ولم يكد كاركان ينطق بهذا الجواب حتى ادرك خطأه لأن العجوز تطلعت إلى الطريق العام ورأت الناس يروحون في الشارع ويجيئون وأن لا خوف عليها من استعمال العنف مع الذين سخروا منها واكلوا طعامها فتناولت المكنسة بيدها وهزتها متهددة وقالت :

– اذن أنتم من الاشقياء الذين لا عمل لهم وليس حكم ما تتناولون به قوتكم الضروري فخطر ببالكم أني بقرة حلوبة تستطيعون الانتفاع منها ما شئتم وشاء إذاكم وشركم واردتم الاقامة في منزلي وقد سلبتوني كل مالي واكلتم طعامي لاهنأكم الله فانصرفوا من حيث اتيتم .

وكانت تصحب كلماتها بضربات شديدة من مكنستها على رؤوس الرفاق الذين لم يعرفوا سر انقلابها الفجائي فانتصبوا واقفين وقد تولاهم الذعر وحاول كاركان تسكين غضب العجوز فقال لها :

– رويدك يا بريجيت العزيزة .

– لست عزيزتك ولا اعرفك ايها الشقي فانا امرأة شريفة اعيش من عملي وقد كنت سبباً لخرابي فاخرج من منزلي في الحال

واسرعت إلى النافذة وفتحتها وأخذت تصيح بملء صوتها .

– إلي .. إلي .. اغيثوني من اللصوص القتلة .

وتحقق الرفاق أن بقاءهم اصبح شديد الخطر عليهم لان سكان الشارع لا يلبثون عن نجدة جارتهم التي كانت تستجير بهم فاسرعوا بالهرب وقد اطلق كل منهم ساقه للريح واعارهم الخوف اجنحة للطيران فنزلوا السلالم بسرعة لا مزيد عليها وظلوا يركضون حتى وصلوا إلى باب سانت هونوريه فاطمأنوا على ذواتهم وتأكدوا بأنهم في مأمن من اللحاق بهم .

وأول ما اهتما به كاركان بعد أن ارتاح باله على ذاته وعلى رفيقيه أن أراد معرفة ذلك الشيء الثمين الذي سرقه من درج العجوز وكان سبباً لأن يخلف عهده ويتحول عن خطة الاستقامة التي وعد بالسير عليها .

ولم يكن ذلك الشيء الذي سلبه إلا علبة صغيرة من الصفيح ليس لها ادنى قيمة ففتحها ورأى فيها خاتماً حديدياً لا اهمية له

ايضاً وورقة مكتوبة بلغة يجهلها فتنفس الصعداء وقال في نجواه .

– سأطلب من كرنكايل أن يعطي هذا الخاتم لشقيقته بيبربت ولعلها تسر من حصولها عليه .

وكانت العلبة التي سرقها من درج العجوز هي ذات العلبة التي اختلستها من صندوقة الانسة برتيل فوضعتها في ذلك الدرج ولكنها نستها ولم تعد تخطر على بالها .

الفصل الثامن والثلاثون

البحث عن الكنز في الدير

مر شهر على خطف الانسة برتيل دي سوجيس وكانوا قد احاطوا كنيسة الشهيد بسور عال وابتدأوا في الحفريات فظهرت لهم درجات السلم وفي ذلك دليل على صدق تلك التعليات التي كانوا في ريب منها حتى ذلك اليوم .

وبعد حصولهم على هذه النتيجة الحسنة قرروا المثابرة على العمل بدقة زائدة ليكتشفوا المذبح الذي كان يصلي عليه القديس رنيس في ايام اضطهادات المسيحيين وذلك ارضاء لماري دي بوفيلير رئيسة الدير التي كانت على يقين من أن هذا الاكتشاف سيصير مكاناً للزيارة فيؤمه السياح من اربعة اقطار فرنسا ويصبح مورداً ثميناً للدير فيعيد له زهوه وغناه الاولين .

تمكن الاب كوتون معرف الملك أن يصير مديراً للحفريات وكان الملك والملكة يعتمدان على اخلاصه التام أما نحن فنعلم علم اليقين أنه كان آلة في يد اكرافيفا يديرها كما يشاء .

وغني عن البيان انه لم يذكر له كلمة واحدة عن الكنوز بل اكد له أن الغاية من هذه الحفريات مقدسة وهي اكتشاف مذبح القديس دنيس فوجب بحكم الضرورة أن يدير الاعمال أحد الرهبان .

وكان الاب كوتون يدير الحفريات وفي ذات الحين يراقب جوار الكنيسة ولم يكن ممنوعاً على الاهالي زيارة ذلك المكان ولكن مدير العمل وضع منطقة عظيمة للجاسوسية فكان من يريد الذهاب إلى الجبل يمر بسهولة وبحرية تامة أما المرور بجانب الكنيسة من غير أن يعرف فكان ضرباً من المستحيل لأن العيون الكثيرة كانت تراقب ذلك المكان بدقة لا توصف .

وأقام الاب كوتون عدداً كبيراً من الرهبان على هذه المراقبة ومما هو جدير بالذكر أن هؤلاء لم يكونوا ينتمون بطغمة يسوع كلهم انتخبوا خصيصاً لهذه الغاية .

وفضلا عن هذه التحوطات التي صادق عليها الملك والملكة فان الدوق دي سولي وكونسيني اللذان كانا يحذران من بعضهما اتخذ كل منهما تحوطاته السرية واصبحت تلك الكنيسة كانها محاصرة بالعدد .

وكان كونسيني على يقين تام من نجاحه فاستبدل جوهان الشجاع وكرنكايل واسكركاس وكاركان باربعة شبان من النبلاء وهم : دانيوس ودي روكتايل ودي لونكفال ودي سان جوليان وكان اكبرهم لا يجاوز السادسة والعشرين من عمره

واصغرهم لم يبلغ الثانية والعشرين .

وكان قد ارتأى بفكرته أن يجعل هؤلاء الاربعة النبلاء واسطة العقد لحرسة الفخم الذي عزم على انشائه من حوله متى اصبح الحاكم المطلق اما في الوقت الحاضر كانت مهمتهم محصورة بمراقبة جوهان الشجاع والقبض عليه حياً وقد وعدهم كونسيني باعطائهم عشرين الف ذهب يوم يسلمون عدوه الالد .

ولم يكونوا يعرفون جوهان الشجاع فتوهموا أن انطلاق اربعتهم للقبض عليه مجلبة للعار وأنه مهما كان قوياً شديد الحيل فان اثنين منهم يكفيان للقيام بهذه المهمة أما كونسيني فقد كان يعرفه حق المعرفه ولم ينس أن اسكركاس ورفيقيه قد خانوه حباً به لذلك لم يتردد بتعيين ثلاثين رجلاً من الاشقياء واقامهم في خدمته كل مدة الحفريات .

وقسم رجاله إلى اربعة اقسام جعلهم تحت امرة الاربعة النبلاء الذين ذكرناهم وكان احد هذه الاقسام مأموراً بالبقاء في جوار الكنيسة لأنه لم ينس بان جوهان الشجاع يحاول الاستيلاء على تلك الكنوز في أحد الايام لذلك اتخذ تحوطاته اللازمة للقبض عليه إذا حاول هذا الامر .

ولم يكن جوهان الشجاع متخفياً ولكنه كان ينتقل من مكان إلى آخر وقد دفعته سليقته للتفتيش في جوار المدينة واراضيها وقد مر عليه شهر وهو على هذه الحال ولم يتوفق اكثر من اليوم الاول حتى كاد يتولاه اليأس وحسب أن يتخلص من

الحياة بالانتحار .

وفي اليوم الثالث عشر من شهر حزيران كان يتمشى وقت الصبيحة على الشاطىء الايسر من النهر وبينما هو عائد من الجسر الجديد دخل شارع الشجرة اليابسة ووقف تحت النوافذ التي كان يفتش عليها عبثاً فرآها مقفلة وتنهد عميقاً وعاد أدراجه .

كان يتمشى وهو يشعر بتمزق في فؤاده ويأس عميق في نفسه وأخذ يسير على غير هدى وهو لا يعرف الاماكن التي يجتازها إلى أن وصل إلى شارع سانت هونوري وخرج من بابه وهو لا يشعر بأمره .

وصادف في ذلك اليوم موعد سوق بيع الخيل الذي كان يقام في أسفل هضبة سان ورش الواقعة على يمين الخارج من ذلك الباب وكان الجمع كثير الازدحام فدخل جوهان بينهم وأخذ يتأمل اللاعبين ولكنه لم يرهم في حقيقة الامر لاستغراقه بالافكار العميقة .

وفي تلك الساعة اجتاز كونسيني ذلك السوق وهو مصحوب برجاله الاربعة فرأى جوهان الشجاع عن بعد وعرفه مع أنه كان مديراً اليه ظهره فابرقت عيناه باشعة غريبة وتقلصت شفتاه ووضع يده على قبضة حسامه كأنه يستعد للهجوم عليه .

وخطر له أن ينقض على جوهان ويقبض عليه ويخطفه قبل أن يتمكن من الدفاع عن نفسه ولكنه ألقى نظرة على ما حوله وهز رأسه بغضب لأنه تحقق استحالة ما نوى عليه فصرف

باسنانه وأخذ يرتجف من فرط حنقه لأنه رأى عدوة بام عينه ولم يقدر أن يقبض عليه .

وخطر له أن يطعنه بين كتفيه فيرديه قتيلا وينسل بين الجمع فلا يشعر به أحد ولكن مثل هذا الانتقام البسيط لم يكن يرضيه أو يقنعه فتبسم ابتسامة غريبة وهنأ نفسه لأنه تغلب على عواطفه وذلك أنه رأى جوهان حاضراً كالغائب فخطرت بباله فكرة جديدة عزم على العمل بمقتضاها .

اصدر أوامره السريعة لرجاله والتف بردائه ووقف على الحياد فابتعد احدهم مسرعاً وأخذ الثلاثة يراقبون جوهان ولم يفارقوه ببصرهم ولم يحتاجوا للتنكر والتستر لأن الشاب لم يعرفهم وكان يجهل أنهم مرسلون من قبل كونسيني .

وعاود جوهان السير على غير هدى ولم يكن رجال كونسيني يفارقونه طرفه عين وأخذ كونسيني يتبع رجاله عن بعد .

وبينما هم كذلك سمع جوهان صوتاً جهورياً يقول :

السلام والسرور للبطل جوهان الشجاع .

فاضطرب جوهان لسماعه هذا النداء وقال :

هذا أنت يا رافاليك ؟ لقد تمنيت لي السلام والسرور ويشوقني وايم الحق أن ارى إذا كانت توسلاتك تستجاب فانك لما قابلتني كنت افكر بالتخلص من هذه الحياة بطعنة نجلاء وفي ذلك دليل كاف على السرور السائد على فؤادي اما

حالتي المالية فلم يعد معي غير ثلاثة ريالات .

وأخذ يضحك ضحكاً عالياً كأنه لا يشعر بشيء من دواعي الكدر فتأمله رافاليك برهة بحزن عميق وانقضت ملامحه كأنه احس بعذاب داخلي لعذاب الشاب الذي كان يضحك امامه بعدم اكتراث فهز رأسه وسأله قائلاً :

– اراك كثير الاصفرار وقد هزل جسمك واتقدت عيناك الحمى فهل أنت مصاب بمرض ؟

– كلا ولم اشعر في حياتي بمثل العافية التي اتمتع بها اليوم غير أني مصاب بمرض في هذه الجهة من جسمي .

وضرب صدره بيده ضربة شديدة كأنه يريد تمزيق فؤاده فاصفر رافاليك اصفراراً هائلاً وبدت على وجهه امارات اليأس العظيم وحصل في داخله عراك شديد وفتح فمه ليتكلم غير أنه لم يقو على الكلام وخرجت من صدره أنة شديدة فتأمله جوهان الشجاع بدوره وظهرت عليه ملامح الشفقة وقال له :

– وأنت ايضاً قد تغيرت كثيراً ... الا تزال ترى تلك الرؤى الغريبة التي تحول دون سعادتك ؟ الم يكفيك الفقر ايها الصديق المسكين لتقرن اليك تلك الافكار التي جعلتك بمثابة جلاد لذاتك . أنك لا تزال شاباً وأنت قوي البنية حسن التهذيب وفي امكانك أن تعيش عيشه رضية يحسدك عليها كثير من اقرانك وفي استطاعتك أن تشتغل شغلاً صحيحاً وتصير صاحب النزل وتذوق لذه الاجتماع العائلي . هذا ما

في امكانك الحصول عليه مثل سواك ولكنك جهلت إلى اية درجة يقودك جنونك ولست اجسر على الاباحة لك بهذه الحقيقة فالويل لنا معشر البشر من عقولنا .

قال هذا وتابط ذراع رافاليك وأردف حديثه وهو يبتسم ابتسامة اللطف .

أني لا ازال خدناً لأني قلت لك الحقيقة واطلعتك على مبلغ ثروتي وأني امنحك ثلاثة ريالات فتعال معي وأقبل دعوتي فاقدم لك طعاماً فاخراً وخمراً معتقة تعيد اليك قواك وتجعلك تنظر إلى الحقائق غير نظرك الحاضر .

– أما الذي تعمله يا صاح ؟ ومن توهمتني لتقدم لي هذا الاكرام الذي لا استحقه .

– انك الصلاح المجسم وصاحب الفضل والفضيلة وقد نسيت متاعبك واحزانك لتساعد شقياً مثلي لا يهمك امره ولبتك كنت تعلم .

– أني أعرف اكثر مما تتوهم يا صاح .

وكان رجال كونسيني يراقبون جوهان الشجاع فرأوه دخل المطعم مع رفيقه ولكنهم لم يكونوا يسمعون حديثهما فاكتفوا برؤية الرجل الذي أمروا بمراقبته .

والقى جوهان على المائدة ريالا واستدعى صاحب المطعم وامره بان يقدم لهما طعاماً وشراباً والتفت إلى رافاليك وقال بمزيد التلطف .

Aml www. Kailas. Com

– لقد بقي ريالان فلنقسمها قسمة الحق والمساواة .

– حسن ولكن لا بد لي من أن اليأس بلغ بك الدرجة القصوى حتى فكرت بالانتحار لأن من كان مثلك في مقتبل العمر لا يخطر بباله الانتحار الا متى سدت في وجهه ابواب الرجاء .

وكان جوهان في حاجة لأن يفيض همومه ويبوح باحزانه لعله يجد من يواسيه أو يوسيه أو يتوجع وقد شعر بقوة غير اعتيادية تدفعه لأن يبوح لهذا الرجل الغريب عنه الذي لم يكن يعرفه من قبل فذكر له اعتداء كونسيني وأنه جاء في الوقت الملائم لانقاذ الفتاة ولما خلصها من ايدي خاطفها اختفت فجأة وذهبت كل ابحاثه في التفتيش عليها ادراج الرياح .

لعلها رأت الملك يتجول حول منزلها فاحبت أن تكون في مأمن من كل اعتداء عليها ولقد احسنت وايم الحق بعملها فما هي الا فتاة شريفة شجاعة .

– اخطأت اذ لم يكن لها ما تخشاه من الملك .

– هل أنت على يقين مما تقوله ؟

– اجل فالملك لا دخل له باختطافها فان لها اعداء كثيرون ولعلها سقطت في قبضتهم .

– إذا كان الامر كما تقول فهي معرضة للخطر .. أني اعرف هذا السر منذ شهر وقد كتمته ولم اذكره لاحد فاذ كانت اصيبت بمكروه أو ماتت اكون انا الذي قتلتها .. فيا ويلاه أني

استحق اللعنة . اصغ إلي ما أقوله لك فقد كتمت هذا السر حتى الآن لأني كنت احسب انها هربت للتخلص من ذلك الرجل والآن فاني على يقين من خطائي وسأطلعك على كل ما عرفته واسأل الله أن لا يكون الوقت قد فات .

وقص على جوهان كيفيه مقابلته مع برتيل التي كانت تسير مع امرأة عجوز وأنه تعقبهما حتى دخلتا مونتارتر ولم تعد تخرج منه .

فاكتفى جوهان بما سمعه واندلع كالسهم المارق ولكنه لم يسر طويلا حتى عاد ادراجه فقبض على يدي رافاليك بشدة حتى كاد يسحقها وقال له همساً وهو يحدق به .

– خلصتني من اليأس فاحب ان اخلصك واخلصه وأنت تعلم من اعنيه بكلامي فواحدة بواحدة سواء .

– أنك تريد قتل الملك يا رافاليك لأنك رأيته يتجول حول منزلها فساورتك الغيرة . لا تحاول الانكار لأني على يقين ما اقوله ولست أريد أن اصح لك بارتكاب هذه الجناية العظيمة وأعلم يا رافاليك بان الملك هو ابوها فاقتله إذا جسرت بعد الآن .

قال هذا وتركه فزمر رافاليك زفرة شديدة ووقف جامداً في مكانه وهو ينظر إلى جوهان الذي ابتعد عنه وقد ضاقت به الدنيا على رحبها .

الفصل التاسع والثلاثون

المعركة بين جوهان وكونسيني

اسرع جوهان في سيره وقد اعاره سروره اجنحة كاد يطير وكان وهو يركض يناجي نفسه بقوله :

– أنها في قيد الحياة وقد عرفت مكانها ولا بد لي من انقاذها ولو اضطررت هدم الدير حجراً حجراً .

وكان يسير إلى الامام وهو غير عارف الوجهة التي يجب أن يذهب اليها فصدم بشدة النبلاء الذين اقامهم كونسيني لمراقبته ولم يعتدم اليهم وقد سمح باذنه فالكنه لم يبال بهم بل ظل مواليًا سيره بسرعته المعهودة .

واراد الذين صدمهم أن يندفعوا في اثره لمجازاته على وقاحته ولكن مولاهم لحق بهم ومنعهم عما كانوا يريدون عمله لأنه عرف من الوجهة التي رآه سائراً بها أنه كان قاصداً دير مونتمارتر فكاد يجن من فرط فرحه لأنه تيقن أن الد اعدائه اصبح في حوزته .

ولما وصل جوهان إلى قرب دير الكبوشيين خفف سيره واخذ يناجي نفسه بقوله .

ليس من موجب يدعوني لهذا التسرع بعد أن عرفت مقرها وسأخلصها من دون شك مهما كلفني ذلك من الصعوبة والعناء لذلك يجب أن اتذرع بالحكمة والتأني لئلا اجلب علي الانظار فيجب قبل كل شيء أن اتفقد جوار الدير وبعد ذلك اقرر ما يجب عمله .

وخفف مشيته واخذ يسير بتمهل كأنه متفرج حتى وصل إلى جسر اركانس فاجتازه عن يمينه حتى وصل إلى المكان الذي كمن فيه كونسيني ورجاله متوقعين وصوله لاجل الفتك به

وكان جوهان يتقدم بخفة لأنه منذ عرف مقر حبيبته برتيل تأكد أنه صار يستطيع انقاذها فكاد يطير من فرحه وقد افعم فؤاده املاً ورجاء .

وتجاوز في سيره قصر البورشرون والجزيرة الواقعة قبالته فلم ير ما يوجب حذره غير أنه لم يلبث أن سمع وقع جياد تعدو من خلفه فالتفت إلى ورائه وقد قطب حاجبيه واشهر حسامه بيده واستعد لمقابلة الذين كانوا يطاردونه وقد عرف كونسيني يسير من خلفهم وهو يحمسهم بقوله :

– اقبضوا عليه حياً لأني اريده في قيد الحياة .

– زه . زه . هذا هو السيد كونسيني بالذات الذي اصبح منذ صفعته وضربته لا يجسر على الوقوف امامي بل يطلب حماية الغير .

– قف مكانك ايها اللئيم الذي ترحم الناس بمناكبه ولا يعتذر لهم عن اساءته .

– رويداً ايها النعاج فسار جكم بجد هذا الحسام .

فحاول الفرسان الاحاطة به والقبض عليه كما امرهم كونسيني ولكنهم لم يكادوا يقتربون منه حتى علت اصوات اربعة منهم وسقطوا إلى الارض جرحى وقال لهم جوهان ساخراً :

– من أحب منكم أن يأتي دوره فليتقدم وأني انذركم منذ الآن بالهلاك العاجل !

وأراد الثمانية الفرنسان السليمون الهجوم عليه ولكن سيفه الماضي كان اسبق اليهم من النسيم فلم يلبث أن سقط ثلاثة منهم صرعى وقال جوهان متحمساً :

– لقد بلغ بك الحمق ايها الرجل أنك لا تحسن انتقاء القتلة تختارهم فمن يريد التقدم ليلحق برفاقه ؟

وفي اعجل من الوقت اللازم لكتابة هذه الاسطر كانت ثماني جثث ممددة على الارض بين قتلى وجرحى فتوقف الاربعة الباقون مذعورين وكاد جوهان يهجم عليهم بدوره لأنه استهان بهم ولم يأبه لعددهم ولكنه سمع في تلك اللحظة اصوات النجدة لاعدائه فالتفت إلى خلفه ورأى نحو عشرة فرسان قادمين من الجهة الثانية فاصبح بين عدوين وهمس قائلا .

– لست أريد أن أموت قبل انقاذها .

والقى نظرة على ما حوله فرأى عن يمينه ارضاً واسعة

ولكنه لم تخطر ببالة فكرة الهرب من تلك الجهة وابصر عن يساره حائطاً عالياً فيه باب حديدي متين فحسب ان نجاته ستكون من تلك الجهة وأنه إذا استند عليه يكون اعداءه أمامه ولا يستطيعون مهاجمته واخذه غيلة غير أنه كان يحتاج أن يصل إلى هناك قبل اعدائه قفزة مدهشة أوصلته إلى الباب الحديدي ولكنه كان اصيب بجرح في كتفه بينما كان ينظر إلى الوراء ولم يشعر به .

ولما وصل إلى الباب تنفس الصعداء وكانت توجد درجة من خلفه فصعد عليها ومد يده اليسرى إلى خلف ظهره وجس الباب فوجده مقفلا لسوء الحظ فعاود نزول الدرجة وعد اعدائه فاذا هم خمسة عشر فارساً .

واحتدت العصابتان عليه وأخذ رجالها يهاجمونه وكان كونسيني قد اصبح آمناً من القبض عليه فاعاد سيفه إلى غمده وأخذ يحمس رجاله ويطلب منهم القبض عليه حياً وسمع جوهان نداءه فقال له ساخراً :

– ولما الذي يمنعك من التقدم الي لولا جبنك ايها اللئيم .

وسقط اينوس في تلك اللحظة مضرجاً بدمائه اما ملابس جوهان فكانت قد اصبحت ممزقة وأخذ الدم يسيل بغزارة من صدره وذراعيه ووجهه ولكنه ظل ثابتاً على القتال وقد اشعر بتخدر في اعصابه وورم في يديه لأنه كان مضطراً في موقفه الحرج على الدفاع والهجوم وشعر كونسيني بضعفه فعاود تحميس

رجاله ولكنهم كانوا يتساقطون الواحد بعد الآخر ولم يبق من النبلاء الذين اشتراهم كونسيني لخدمته غير روكتابل الذي حنق لموت رفقائه ونسي الوصية التي سمعها من مولاه فانقض على جوهان بسيفه وصرخ قائلا :

– مت ايها الكلب الكلب .

ولكنه لم يكد ينتهي من هذا الوعيد حتى اخذ يقذف اقبح الشتائم لأن ضربته راحت في الفضاء واختفى جوهان من امامه كأن الارض قد بلعته أو طار في السحاب .

وساد الذعر على رجال العصابة لهـذا الاختفاء الغريب فالتزموا الصمت برهة ثم انقلبوا إلى الشتائم والمسبات وهجموا على ذلك الباب يريدون سحقه وتحطيمه ولكنه كان متينا فاخذوا يدورون حول الحائط لعلهم يهتدون إلى منفذ إلى داخل المنزل وكاد كونسيني يجن من فرط اسفه لخيبة مسعاه فشرع يتأمل جثث رجاله الممدودة على الارض فاسترجع رجاله وعاد معهم وهو يتعثر باذيال الخيبة والفشل .

الفصل الاربعون

بيريت وجوهان

وبينما كان جوهان يقاتل اخصامه قتال الاسود ويدافع عن نفسه دفاع اللبوة عن اشبالها سمع حركة من خلفه تشبه حركة الاقفال فلم يعجب لما سمعه بل ظل ثابتاً في مكانه وكان من حين إلى آخر يمد يده إلى ظهره ويجس الباب وهو يستجمع ما بقي من قوام الخائرة ليتمكن من الثبات إلى الساعة الاخيرة

وبينما هو كذلك شعر بأن الباب قد فتح من خلفه فلم يتحرك ولم يلتفت بل قفز إلى الوراء وفي ذلك الحين أوصد البـاب بالاقفال الغليظه .

وكان الليل قد ارخى سدوله وابصر جوهان امامه فتاة لا تزال في مقتبل العمر وهي مرتدية ملابس العاملات فلم يتسع له الوقت لشكوها أو الكلام معها لأنها اجبرته على التزام الصمت واخذت تتطلع من شق الباب برهة طويلة ثم قالت له :

– لقد ذهبوا فتعال معي .

وكانت هذه الفتاة جميلة الصورة للغاية ربعة القوام نحيفة

البنية بيضاء اللون تدل ملابسها على الرزانة والدعة وتشبه بزيها عاملات باريس فانحنى جوهان أمامها ليشكرها على المعروف الذي اسدته اليه وقال لها :

– سيدتي ...

ولم يلبث أن غير فجأة لهجته وصرخ قائلا :

ايه يا لسعادتي فهذا أنت يا بيريت الحسناء .

وكانت بيريت شقيقة كرنكابسل وحبيبه كاركان هي التي فتحت ذلك الباب لجوهان فتبسمت له ابتسامة تأخذ بمجامع القلوب وقالت له بلطفها الزائد :

– تعال معي واتبعني .

فتبعها على غير هدى لأن تلك المعركة الهائلة ومجابهته الغريبة أثرت عليه تأثيراً عظيما وظلت تتقدمه حتى اوصلته إلى المنزل الواقع في منتصف الحديقة .

وكانت بيريت فيما مضى ترجو أن تصير زوجة لجوهان ولولا هذا الامل لما تمكنت من المحافظة على طهرها وعفافها ولكن الحوادث التي طرأت عليها اضطرتها للعدول عن هذه الفكرة .

وانها كانت من سليقتها أن جوهان من طينة غير طينتها وأنه سيأتي يوم يعرف فيه سر مولده فوطدت عزمها على الاقلاع عن فكرتها الاولى لتأكدها عدم تحقيقها وكتمت سرها بقوة ارادتها فلم يشعر أحد من المقربين اليها بما كانت تشعر به .

واحست لما تأكدت تعلق جوهان بسواها أن فؤادها ينتزع

من صدرها ولكنها بقوة ارادتها تغلبت على عواطفها وظلت تتظاهر بالسكينة وعزمت عزماً باتاً على معاملة جوهان فيما بعد معاملة الاخت لاخيها .

وادخلت بيريت جوهان إلى الغرفة التي كانت تتخذها معملاً لها واستدعت إحدى عاملاتها وهي عجوز تناهز الخمسين من عمرها وبلغتها بعض تعليمات سرية وكان جوهان لا يزال متأثراً من تلك الموقعة فلم يلاحظ تهدج صوتها وهي تحاول التظاهر بالسكينة وسألها قائلا :

– كيف استطعت الوصول في هذه الساعة الملائمة لانقاذي لأني لولاك لكنت من القوم الهالكين .

– عجباً منك فانك لما تنقذ حياة الغير لا تنادي بفضلك وجميلك على رؤوس الاشهاد وانا لم اعمل معك جميلا غير فتحي الباب .

– ما الذي تعملينه في هذا المكان ؟

– هذا هو منزلي يا سيدي .

– وهل تركت باريس للاقامة في الارياف فقد صرت إذن من الاغنياء .

– كلا يا سيدي ولكن اخي نفحني بهبة مالية تمكنت بواسطتها من الاقامة في هذا المكان واشتغالي سائره سيراً حسناً وإذا ظلت على هذا المنوال الا يبعد أن اصير من الثريات .

– اراك لا تزالين على سابق عهدك من الرزانة فما الذي تعملينه الآن .

Aml www Liilas. Com

– أني اهيىء الضمادات اللازمة لك يا سيدي .

– ولكني لست بحاجة اليها .

– من الذي انبأك بان جراحك ليست اكثر خطراً مما تتوهم

– أني شاعر بامري ايتها العزيزة فلا تتكلفي عناء فارغاً

– سوف تتحقق صدق قولي .

– وما الذي تعمله هذه العجوز في هذه الغرفة ؟

– أنها تهيء لك سريراً تستريح عليه .

– وهل حسبت أني أريد تضييع وقتي سدى ؟

– لاظنك نسيت الاسابيع الطويلة التي قضيتها على الاعتناء بي وبوالدتي من غير أن تعرف معنى الاستراحة فاذا قابلتك على جميلك الكثير بما ابديه لك من القليل من الاعتناء بك لا اكون موفية حقك من المعروف ولكن قل لي الم تكن تريد الذهاب إلى دير مونكارتو .

– ما الذي يدعوك لتوجيه هذا السؤال الي ؟

– لأني مستعدة لاعطائك التعليمات اللازمة من غير أن تضطر للذهاب إلى هناك إذ لربما يكون ذهابك خطراً على ما تريد عمله .

– وهل أنت تعرفين هذا الدير ؟

– نعم أن راهباته من خيرة زبائني وقد قمت في هذا المكان اكراماً لهن .

اذاً فأنت تستطيعي دخوله متى احببت ؟.

– أجل فلا يمر علي اسبوع الا وأزوره ولو مرة .

– ومتى تريدين الذهاب اليه ؟

– يوم الاربعاء القادم .

– ما الذي تظنين أني اقصده من زيارة لهذا الدير ؟

– توجد فيه سجينة منذ شهر وإذا كنت تريد انقاذها كما اتوقع فمن الخطر عليك وعليها أن يروك متجولاً في تلك الجهات

– وهل رأيت هذه السجينة ؟

– أجل ولكن مطمئناً فانه لم يحصل لها من اذى الا سجنها رغماً عنها وهي تعامل بكل لطف وايناس وهي التي اطلعتني على سرها .

– وما الذي قالته لك غير ذلك ؟

– أنها كلفتني عنك .

– ليلتك تعلمين يا عزيزتي بيريت اية سعادة سببتها لي بهذا القول إذ اكدت لي انها لا تزال في قيد الحياة وانها حادثتك عني فما الذي استطيع مكافأتك به فقد أنقذت حياتي ... أن من حسن حظي مهاجمة كونسيني لي في هذا المكان ولولا ذلك لما تداخلت بالأمر ولما ذكرت لي هذه الامور الخطيرة التي اعادت لي حياتي .

– أظنك تسمح لي بعد الآن بالاعتناء بك .

– أنك وايم الله يا بيريت ملاك كريم .

الفصل الحادي والاربعون

بيريت وبرتيل

كانت الجهة التي اقيمت فيها الانسة برتيل مؤلفة من غرفة منامه واخرى للاستقبال وهما مفروشتان فرشاً انيقاً غير أن نوافذهما كانت مشبكة بقضبان حديدية متينة .

وفي اليوم الاول والثاني من دخولها الدير لم يسمح لها بمغادرة غرفتها وفي اليوم الثالث انذروهـا بانهـا سجينة بامر الملك ولكن مدة سجنها لا تطول اكثر من ثلاثة أو اربعة اشهر ثم تطلق لها حريتها .

وكانت الراهبات يبذلن كل وسعهن لتخفيف عذاب سجنها فكان بابها يترك مفتوحاً طول النهار وهي حرة في رواحهـا ومجيئها إلى حيث تريد على شرط أن لا تتجاوز حدود رسمتها لها وانذرتها بان كل محاولة هرب من داخل الدير أو خارجه لا تصادف غير الفشل وتجلب عليها قسوة المعاملة .

ومنذ ذلك الحين اطلقت الحرية للتزه في الجهة التي اقيمت فيها وكانت في الحديقة غير انها كل مرة كانت تحاول تجـاوز

الحدود التي رسمتها لها ترى حراساً اشبه بالمردة ينتصبون امامها ويبتسمون لها ابتسامة ذات معان غريبة فلم تلبث أن تأكدت خيبة مساعيها وانها لا تستطيع الاعتماد الا على مساعدة خارجية .

ولم تصدق ما قيل لها عن سجنها بامر الملك ولفرط مـا افتكرت وتأملت تجلت لها الحقيقة بتمامها وقد كانت تعلم أن الاوراق الثمينة التي عهدت إلى عنايتها موجبة لطمع الكثيرين واهمهم الرهبـان فقد كانت ميرنيس والكونت دي فوبرن قد اوصياهـا بان تحترز كل الاحتراز من كل شخص يرتدي الملابس السوداء وتأكدت بانهم اتخـذوا اسم بارولديان ذريعة لادراك مأربهم منها وتيقنت كل التيقن بانهم فتشوا غرفتها بعد القبض عليهـا .

وثبت عندها وقتئذ أن سبب سجنهـا كان تلك الاوراق الثمينة وأنهم عثروا فيها على ايضاحـات خطيرة فسجنوهـا ليتخلصوا منها ربما يعثرون على الملايين .

وتبين لها باجلى بيان أنهم استولوا على أوراقها ولكنهم لم يعثروا على الاوراق الصحيحه فاخذت تناجي نفسها بقولها :

— مابزالوا منهمكين في الحفر فليس لي ما احاذره ولكنهم متى انتهوا منه ولم يصادفوا ما كانوا يؤملونه ويتحققون أن النعلجات التي قرأوها في الأوراق الموجودة عندي لم تكن الا لتزيدهم ضلال عندئذ تنقض علي صواعق غضبهم ومن يـدري ما الذي يأتون من الفظائع توصلوا لمأربهم .

– قف مكانك ايها اللئيم الذي ترحم الناس بمناكبه ولا يعتذر لهم عن اساءته .

– رويداً ايها النعاج فسار جكم بجد هذا الحسام .

فحاول الفرسان الاحاطة به والقبض عليه كما امرهم كونسيني ولكنهم لم يكادوا يقتربون منه حتى علت اصوات اربعة منهم وسقطوا إلى الارض جرحى وقال لهم جوهان ساخراً :

– من أحب منكم أن يأتي دوره فليتقدم وأني انذركم منذ الآن بالهلاك العاجل !

وأراد الثمانية الفرنسان السليمون الهجوم عليه ولكن سيفه الماضي كان اسبق اليهم من النسيم فلم يلبث أن سقط ثلاثة منهم صرعى وقال جوهان متحمساً :

– لقد بلغ بك الحمق ايها الرجل أنك لا تحسن انتقاء القتلة تختارهم فمن يريد التقدم ليلحق برفاقه ؟

وفي اعجل من الوقت اللازم لكتابة هذه الاسطر كانت ثماني جثث ممددة على الارض بين قتلى وجرحى فتوقف الاربعة الباقون مذعورين وكاد جوهان يهجم عليهم بدوره لأنه استهان بهم ولم يأبه لعددهم ولكنه سمع في تلك اللحظة اصوات النجدة لاعدائه فالتفت إلى خلفه ورأى نحو عشرة فرسان قادمين من الجهة الثانية فاصبح بين عدوين وهمس قائلا .

– لست أريد أن أموت قبل انقاذها .

والقى نظرة على ما حوله فرأى عن يمينه ارضاً واسعة

ولكنه لم تخطر ببالة فكرة الهرب من تلك الجهة وابصر عن يساره حائطاً عالياً فيه باب حديدي متين فحسب ان نجاته ستكون من تلك الجهة وأنه إذا استند عليه يكون اعداءه أمامه ولا يستطيعون مهاجمته واخذه غيلة غير أنه كان يحتاج أن يصل إلى هناك قبل اعدائه قفزة مدهشة أوصلته إلى الباب الحديدي ولكنه كان اصيب بجرح في كتفه بينما كان ينظر إلى الوراء ولم يشعر به .

ولما وصل إلى الباب تنفس الصعداء وكانت توجد درجة من خلفه فصعد عليها ومد يده اليسرى إلى خلف ظهره وجس الباب فوجده مقفلا لسوء الحظ فعاود نزول الدرجة وعد اعدائه فاذا هم خمسة عشر فارساً .

واحتدت العصابتان عليه وأخذ رجالها يهاجمونه وكان كونسيني قد اصبح آمناً من القبض عليه فاعاد سيفه إلى غمده وأخذ يحمس رجاله ويطلب منهم القبض عليه حياً وسمع جوهان نداءه فقال له ساخراً :

– ولما الذي يمنعك من التقدم الي لولا جبنك ايها اللئيم .

وسقط اينوس في تلك اللحظة مضرجاً بدمائه اما ملابس جوهان فكانت قد اصبحت ممزقة وأخذ الدم يسيل بغزارة من صدره وذراعيه ووجهه ولكنه ظل ثابتاً على القتال وقد اشعر بتخدر في اعصابه وورم في يديه لأنه كان مضطراً في موقفه الحرج على الدفاع والهجوم وشعر كونسيني بضعفه فعاود تحميس

رجاله ولكنهم كانوا يتساقطون الواحد بعد الآخر ولم يبق من النبلاء الذين اشتراهم كونسيني لخدمته غير روكتابل الذي حنق لموت رفقائه ونسي الوصية التي سمعها من مولاه فانقض على جوهان بسيفه وصرخ قائلا :

– مت ايها الكلب الكلب .

ولكنه لم يكد ينتهي من هذا الوعيد حتى اخذ يقذف اقبح الشتائم لأن ضربته راحت في الفضاء واختفى جوهان من امامه كأن الارض قد بلعته أو طار في السحاب .

وساد الذعر على رجال العصابة لهـذا الاختفاء الغريب فالتزموا الصمت برهة ثم انقلبوا إلى الشتائم والمسبات وهجموا على ذلك الباب يريدون سحقه وتحطيمه ولكنه كان متينا فاخذوا يدورون حول الحائط لعلهم يهتدون إلى منفذ إلى داخل المنزل وكاد كونسيني يجن من فرط اسفه لخيبة مسعاه فشرع يتأمل جثث رجاله الممدودة على الارض فاسترجع رجاله وعاد معهم وهو يتعثر باذيال الخيبة والفشل .

الفصل الاربعون

بيريت وجوهان

وبينما كان جوهان يقاتل اخصامه قتال الاسود ويدافع عن نفسه دفاع اللبوة عن اشبالها سمع حركة من خلفه تشبه حركة الاقفال فلم يعجب لما سمعه بل ظل ثابتاً في مكانه وكان من حين إلى آخر يمد يده إلى ظهره ويجس الباب وهو يستجمع ما بقي من قوام الخائرة ليتمكن من الثبات إلى الساعة الاخيرة

وبينما هو كذلك شعر بأن الباب قد فتح من خلفه فلم يتحرك ولم يلتفت بل قفز إلى الوراء وفي ذلك الحين أوصد البـاب بالاقفال الغليظه .

وكان الليل قد ارخى سدوله وابصر جوهان امامه فتاة لا تزال في مقتبل العمر وهي مرتدية ملابس العاملات فلم يتسع له الوقت لشكوها أو الكلام معها لأنها اجبرته على التزام الصمت واخذت تتطلع من شق الباب برهة طويلة ثم قالت له :

– لقد ذهبوا فتعال معي .

وكانت هذه الفتاة جميلة الصورة للغاية ربعة القوام نحيفة

البنية بيضاء اللون تدل ملابسها على الرزانة والدعة وتشبه بزيها عاملات باريس فانحنى جوهان أمامها ليشكرها على المعروف الذي اسدته اليه وقال لها :

– سيدتي ...

ولم يلبث أن غير فجأة لهجته وصرخ قائلا :

ايه يا لسعادتي فهذا أنت يا بيريت الحسناء .

وكانت بيريت شقيقة كرنكابسل وحبيبه كاركان هي التي فتحت ذلك الباب لجوهان فتبسمت له ابتسامة تأخذ بمجامع القلوب وقالت له بلطفها الزائد :

– تعال معي واتبعني .

فتبعها على غير هدى لأن تلك المعركة الهائلة ومجابهته الغريبة أثرت عليه تأثيراً عظيما وظلت تتقدمه حتى اوصلته إلى المنزل الواقع في منتصف الحديقة .

وكانت بيريت فيما مضى ترجو أن تصير زوجة لجوهان ولولا هذا الامل لما تمكنت من المحافظة على طهرها وعفافها ولكن الحوادث التي طرأت عليها اضطرتها للعدول عن هذه الفكرة .

وانها كانت من سليقتها أن جوهان من طينة غير طينتها وأنه سيأتي يوم يعرف فيه سر مولده فوطدت عزمها على الاقلاع عن فكرتها الاولى لتأكدها عدم تحقيقها وكتمت سرها بقوة ارادتها فلم يشعر أحد من المقربين اليها بما كانت تشعر به .

واحست لما تأكدت تعلق جوهان بسواها أن فؤادها ينتزع

من صدرها ولكنها بقوة ارادتها تغلبت على عواطفها وظلت تتظاهر بالسكينة وعزمت عزماً باتاً على معاملة جوهان فيما بعد معاملة الاخت لاخيها .

وادخلت بيريت جوهان إلى الغرفة التي كانت تتخذها معملاً لها واستدعت إحدى عاملاتها وهي عجوز تناهز الخمسين من عمرها وبلغتها بعض تعليمات سرية وكان جوهان لا يزال متأثراً من تلك الموقعة فلم يلاحظ تهدج صوتها وهي تحاول التظاهر بالسكينة وسألها قائلا :

– كيف استطعت الوصول في هذه الساعة الملائمة لانقاذي لأني لولاك لكنت من القوم الهالكين .

– عجباً منك فانك لما تنقذ حياة الغير لا تنادي بفضلك وجميلك على رؤوس الاشهاد وانا لم اعمل معك جميلا غير فتحي الباب .

– ما الذي تعملينه في هذا المكان ؟

– هذا هو منزلي يا سيدي .

– وهل تركت باريس للاقامة في الارياف فقد صرت إذن من الاغنياء .

– كلا يا سيدي ولكن اخي نفحني بهبة مالية تمكنت بواسطتها من الاقامة في هذا المكان واشتغالي سائره سيراً حسناً وإذا ظلت على هذا المنوال الا يبعد أن اصير من الثريات .

– اراك لا تزالين على سابق عهدك من الرزانة فما الذي تعملينه الآن .

Aml www Liilas. Com

– أني اهيىء الضمادات اللازمة لك يا سيدي .

– ولكني لست بحاجة اليها .

– من الذي انبأك بان جراحك ليست اكثر خطراً مما تتوهم

– أني شاعر بامري ايتها العزيزة فلا تتكلفي عناء فارغاً

– سوف تتحقق صدق قولي .

– وما الذي تعمله هذه العجوز في هذه الغرفة ؟

– أنها تهيء لك سريراً تستريح عليه .

– وهل حسبت أني أريد تضييع وقتي سدى ؟

– لاظنك نسيت الاسابيع الطويلة التي قضيتها على الاعتناء بي وبوالدتي من غير أن تعرف معنى الاستراحة فاذا قابلتك على جميلك الكثير بما ابديه لك من القليل من الاعتناء بك لا اكون موفية حقك من المعروف ولكن قل لي الم تكن تريد الذهاب إلى دير مونكارتو .

– ما الذي يدعوك لتوجيه هذا السؤال الي ؟

– لأني مستعدة لاعطائك التعليمات اللازمة من غير أن تضطر للذهاب إلى هناك إذ لربما يكون ذهابك خطراً على ما تريد عمله .

– وهل أنت تعرفين هذا الدير ؟

– نعم أن راهباته من خيرة زبائني وقد قمت في هذا المكان اكراماً لهن .

اذاً فأنت تستطيعي دخوله متى احببت ؟.

– أجل فلا يمر علي اسبوع الا وأزوره ولو مرة .

– ومتى تريدين الذهاب اليه ؟

– يوم الاربعاء القادم .

– ما الذي تظنين أني اقصده من زيارة لهذا الدير ؟

– توجد فيه سجينة منذ شهر وإذا كنت تريد انقاذها كما اتوقع فمن الخطر عليك وعليها أن يروك متجولاً في تلك الجهات

– وهل رأيت هذه السجينة ؟

– أجل ولكن مطمئناً فانه لم يحصل لها من اذى الا سجنها رغماً عنها وهي تعامل بكل لطف وايناس وهي التي اطلعتني على سرها .

– وما الذي قالته لك غير ذلك ؟

– أنها كلفتني عنك .

– ليلتك تعلمين يا عزيزتي بيريت اية سعادة سببتها لي بهذا القول إذ اكدت لي انها لا تزال في قيد الحياة وانها حادثتك عني فما الذي استطيع مكافأتك به فقد أنقذت حياتي ... أن من حسن حظي مهاجمة كونسيني لي في هذا المكان ولولا ذلك لما تداخلت بالأمر ولما ذكرت لي هذه الامور الخطيرة التي اعادت لي حياتي .

– أظنك تسمح لي بعد الآن بالاعتناء بك .

– أنك وايم الله يا بيريت ملاك كريم .

الفصل الحادي والاربعون

بيريت وبرتيل

كانت الجهة التي اقيمت فيها الانسة برتيل مؤلفة من غرفة منامه واخرى للاستقبال وهما مفروشتان فرشاً انيقاً غير أن نوافذهما كانت مشبكة بقضبان حديدية متينة .

وفي اليوم الاول والثاني من دخولها الدير لم يسمح لها بمغادرة غرفتها وفي اليوم الثالث انذروهـا بانهـا سجينة بامر الملك ولكن مدة سجنها لا تطول اكثر من ثلاثة أو اربعة اشهر ثم تطلق لها حريتها .

وكانت الراهبات يبذلن كل وسعهن لتخفيف عذاب سجنها فكان بابها يترك مفتوحاً طول النهار وهي حرة في رواحهـا ومجيئها إلى حيث تريد على شرط أن لا تتجاوز حدود رسمتها لها وانذرتها بان كل محاولة هرب من داخل الدير أو خارجه لا تصادف غير الفشل وتجلب عليها قسوة المعاملة .

ومنذ ذلك الحين اطلقت الحرية للتزه في الجهة التي اقيمت فيها وكانت في الحديقة غير انها كل مرة كانت تحاول تجـاوز

الحدود التي رسمتها لها ترى حراساً اشبه بالمردة ينتصبون امامها ويبتسمون لها ابتسامة ذات معان غريبة فلم تلبث أن تأكدت خيبة مساعيها وانها لا تستطيع الاعتماد الا على مساعدة خارجية .

ولم تصدق ما قيل لها عن سجنها بامر الملك ولفرط مـا افتكرت وتأملت تجلت لها الحقيقة بتمامها وقد كانت تعلم أن الاوراق الثمينة التي عهدت إلى عنايتها موجبة لطمع الكثيرين واهمهم الرهبـان فقد كانت ميرنيس والكونت دي فوبرن قد اوصياهـا بان تحترز كل الاحتراز من كل شخص يرتدي الملابس السوداء وتأكدت بانهم اتخـذوا اسم بارولديان ذريعة لادراك مأربهم منها وتيقنت كل التيقن بانهم فتشوا غرفتها بعد القبض عليهـا .

وثبت عندها وقتئذ أن سبب سجنهـا كان تلك الاوراق الثمينة وأنهم عثروا فيها على ايضاحـات خطيرة فسجنوهـا ليتخلصوا منها ربما يعثرون على الملايين .

وتبين لها باجلى بيان أنهم استولوا على أوراقها ولكنهم لم يعثروا على الاوراق الصحيحه فاخذت تناجي نفسها بقولها :

— مابزالوا منهمكين في الحفر فليس لي ما احاذره ولكنهم متى انتهوا منه ولم يصادفوا ما كانوا يؤملونه ويتحققون أن النعلجات التي قرأوها في الأوراق الموجودة عندي لم تكن الا لتزيدهم ضلال عندئذ تنقض علي صواعق غضبهم ومن يـدري ما الذي يأتون من الفظائع توصلوا لمأربهم .

وتمكنت بيريت بفضل العطاء الذي حصلت عليه من اخيها ورفيقيه أن تقيم في ذلك المكان وتضع فيه الرياش الانيقة وكانت ماهرة في عملها فلم تلبث أن رأت زبائنها يزيدون يوماً عن يوم .

واضطرت رئيسة الدير تكليفها بغسل ثياب الانسة برتيل وكيها وجميع ما تحتاج من المهمات البيتية .

ولما دخلت بيريت غرفة الآنسة برتيل ادخلت معها عاملة قوية البنية شديدة الحيل لتحمل لها الملابس الوسخة فنظرت الفتاتان لبعضهما بدقة وسرعة وفي الحال بدت ابتسامة على فم كل منهما غير أن الراهبة الخادمة كانت حاضرة هذه الجلسة وهي تراقبهما بدقة فلم تتبادلا الكلام .

وفي خلال اسبوع فكرت بيريت بتلك الفتاة المجهولة التي رأت وجهها يتدفق بشراً وجمالاً وامسارات الحزن بادية على ملامحها .

ولما عادت في المرة الثانية كانت الراهبة الخادمة لا تزال موجودة فاطاعت بيريت عواطف فؤادها وتمكنت بمهارتها من التفاهم مع برتيل التي كانت تشفق على مصابها .

وادركت برتيل معنى هذا الحديث السري ولكنها ظلت محافظة على تحفظها لأنها لم تكن على يقين من اخلاص هذه الفتاة الغريبة وحاذرت بان يكون ما تشاهده فخاً قد نصب لها لأنها كانت في قبضة اعدائها غير أن ما رأته من السكينة البادية على ملامح بيريت دعاها للاطمئنان وحسبت انها تستطيع

أن تكون واسطة للمراسلة بينها وبين حبيبها .

وعادت بيريت مرة ثالثة إلى الدير فلم تجد الراهبة الخادمة في غرفة الآنسة برتيل فقالت لها :

— لم اتشرف بمعرفتك بعد يا سيدتي ولكني اراك كثيرة الحزن فليتني اتمكن من خدمتك بما تصل اليه يدي .

وكانت جالسة في الغرفة والباب مفتوحاً امامها فتستطيع أن ترى الراهبة إذا قـدمت عن بعد وكانت وهي تتكلم تنشر على الطاولة الثياب التي احضرتها معها .

فبدلاً من أن تجاوبها برتيل على قولها اخذت يدها وتأملتها بدقة وسألتها بتأثر عظيم

— بربك قولي لي من اين وصل اليك هذا الخاتم ؟

وكان هذا هو الخاتم الحديدي الذي عثر عليـه كاركان في علبة الصفيح التي سرقها من العجوز كولينكال واعطاه بناء على طلب رفيقه إلى شقيقته التي لبسته من غير اهتمام فدهشت بيريت لهذا السؤال اذ لم تكن تتوقع أن الانسة برتيل تضيع هذه الفرصة الثمينة باسئلة تافهة وقالت

— لقد اعطانيه اخي

— عفواً يا عزيزتي فان لهذا السؤال اهمية عظمى عندي فهل تعرفين اين وجده اخوك ؟

— كلا .

— ما اسم اخيك وما هي صناعته ؟

— أنه يدعى كرفكابل يا سيدتي .

– لقد تذكرت الآن أليس أخوك في خدمة شاب ؟

– نعم يا سيدتي وهو جوهان الشجاع .

– هل تعرفينه من قبل ؟

– أننا نعرف بعضنا منذ الصغر وهو يلقبني باخته الصغيرة وانا أحبه كما لو كان اخي وهل أنت تعرفينه ؟

– إذن ستكونين اختي ايضاً لان جوهان سيكون زوجي فارجوك أن تبلغيه امري وتطلبي منه أن يسعى لانقاذي

– صه يا سيدتي فقد جاءت الخادمة الراهبة .

ولم تلاحظ برتيل لفرط اضطرابها هذا الانقلاب الفجائي وقامت بيريت واخذت تصلح الملابس وترتبها على الطاولة وهي تتظاهر بعدم المبالاة لأن عودة الاخت الخادمة اعادت السكينة لفؤادها وقبل أن تخرج من الغرفة تبسمت لها ابتسامة ملؤها الوعود الجميلة .

الفصل الثاني والاربعون

القبو والفرسان الثلاثة

مرت ثمانية ايام على جوهان الشجاع وهو مختبىء في منزل بيريت الحسناء اما رفاقه اسكركاس وكرنكايل وكاركان فقد كان الجوع برح بهم واثر عليهم التعب اشد تأثير حتى لم يعودوا يقدرون على الوقوف الا بجهد جهيد .

ثم قرر رأيهم على أن يسيروا بطلب الرزق في ارض الله الواسعة إلى أن وصلوا اخيراً إلى أمام بناية لم يعرفوا نوعها في بادىء الامر فوقفوا لديها مذعورين مبهوتين ورأوا باباً صغيراً فدخلوه ورأوا بمزيد الدهشة أن ذلك المكان هو مأوى لدجاج الدير وشاهدوا فيه كثيراً من البيض فانقضوا عليه كالجائعين وألتهم كل واحد منهم نحو خمسة عشر بيضة وقال كرنكايل بعد أن تنفس الصعداء

– لقد جاءتنا هذه اللقيا في الوقت الملائم وكنا وايم الحق في اشد الحاجة اليها .

واخذوا يضحكون ضحكاً عالياً لأنهم امنوا على ذواتهم من

الموت جوعاً وعادت اليهم طلاقتهم المعروفة ولم يلبث كرنكايل أن قال :

– لا نستطيع أن نأكل ابداً بيضاً نيئاً ونكتفي به .

– صدقت .

وما الذي يجب علينا عمله ؟

وكان هذا السؤال خيراً في حد ذاته يحتاج جوابه إلى مزيد من التروي والتفكير وبعد أن اجهدوا قريحتهم ملياً قال كرنكايل :

– اهتديت إلى حل موافق .

– وكيف ذلك ؟

– نذهب إلى المنزل الذي كان يقطنه قديماً جوهان الشجاع رئيسنا المحبوب ونأتي منه بكل آنية المطبخ ونجعل هذا المكان مسكناً لنا ؟

– صدقت وأنه في غاية الملائمة بعد أن اقبل فصل الصيف بحره .

وأننا فضلا عن ذلك نوفر الاجرة التي يتطلبها منا اصحاب الاملاك الذين لا شفقة في قلوبهم على المساكين . فمن الذي يذهب ويأتي بالآنية اللازمة لنا ؟

فقال كاركاس ضاحكاً :

– أنا ولكن لسوء الحظ ليس عندنا خبز ولا سمن .

– وهل عميت ايها الوفاق عن هذه الاكداس العظيمة من البيض فاذهب ومتى عدت الى هنا نر أنا اعددنا لوازم الطعام .

فلم يفهم كاركاس مقصد رفيقه ولكنه كان يثق به ثقة تامة ويضعه طاعة عمياء فامتثل لما امره وخرج من القن وبعد خروجه اخذ رفيقاه ثلاثة دجاجات خنقاها بخفة لا مزيد عليها وعدداً كبيراً من البيض وخرجا بدورهما ولما عادا بعد نصف ساعة لم يكن معهما شيء من البيض ولا الدجاجات ولكنهما كانا يحملان وعاءاً مملوءاً بالسمن وقطعة من اللحم المقدد ورجاجة كبيرة من الخمر الممتق ومقداراً كافياً من الخبز .

وشرعا وهما بانتظار رفيقيهما يهيئان المكان ليجعلاه صالحاً للاقامة وفحص كرنكايل الباب فوجده لا يزال متيناً وله قفل ضخم فقال لرفيقه أن من الخطأ الدخول من السطح مع وجود الباب .

وبينما هو يتطلع في الارض رأى حفرة صغيرة فحسب أن فيها بيضاً ومديدة ليتناول منها ذلك البيض الشهي ولكن يده صادفت حلقة حديدية فقال متفلسفاً :

– أن وجود هذه الحلقة يدل على وجود بلاطة قد يكون تحتها سلم أو ما اشبه وليكن وُجد السلم فلا بد من وجود شيء آخر .

– لعله يكون قبو .

– هذا ما يجب علينا تحققه لأننا لا نعلم ما تخبئه لنا الاقدار وأخذا يوسعان تلك الحفرة إلى أن كشفا عن بلاطة مربعة فقبض كرنكايل على الحلقة وشد عليها بمنتهى قوته ولكن البلاطة لم تتحرك من مكانها فاخذ اسكركاس قضيباً حديدياً

وادخله في الحلقة وتعاون الرفيقان على تحريكها ولكنها كانت ثابتة في مكانها فانحنيا عليها وفحصاهـــا بدقة فرأيا اطراف البلاطة وحاولا تحريكها بسيوفهما ولكنهما فشلا فيما اراداه فعدلا عن رفعها وأخذ يضغطان عليها إلى الاسفل غير انها لم تتحرك فقبض كرنكايل على الحلقة وأخـذ يحركها بشدة كانه يريـد فكها من مكانها فاشعر بحركة خفية فيها ولم تلبث البلاطـة أن هبطت تدريجاً وانكشفت عن سلم سريه .

وسمعا في تلك اللحظة وقع اقدام على الطريق فتطلعا من شق الباب ورأيا رفيقهما عائداً اليهما فاشارا اليه بسرعة الدخول واخذا منه ما كان يحمله فقال :

— لم يبق علينا الا أن نهيء الطعام .

— مهلاً فـاننا إذا اضرمنا النار في هـذا المكان يفضحنا الدخان ولا نلبث أن نطرد من هنا .

— وما الذي يجب علينا عمله ؟

— قد نستطيع اجتناب هذا الأمر فلنزر القبو أولاً .

— هيا بنا اليه .

— مهلاً ايها الرفاق فاعل هذه البلاطة تقفل على ذاتها فلئن تسرعنا في النزول قبل تثبتنا من امرها ندفن ونحن في قيـد الحياة فـأنزل قبلكـا فاقبض يا اسكركاس على الحلقـة وإذا اشعرت بحركة مني ارفعها في الحال .

ونزل اسكركاس السلالم بخفة وظلت البلاطة منخفضة ولم تتحرك وأخـذ يعـد الدرجـات حتى وصل إلى السادسة

فارتفعت البلاطة واستقرت في مكانها فهمس قائلاً .

— حقاً أن الأمر بسيط للغاية لقد فهمنا الآن كيفية فتحها .

وكان الظلام الحالك قـد استولى على المكان الذي هو فيه فاشعل ثقاباً وانار شمعة كانت معه وعاود الصعود حتى وصـل إلى البلاطة السادسة التي قفلت البلاطة لمجرد دوسه عليها فرأها مشقوقة الطرفين وبين الشقين لحام غليظ فداس عليه وفي الحال انفتحت البلاطة العليا وتأكد بان تلـك الدرجـة هي المحرك للصعود والنزول فسر بما رآه واسرع لتبشير رفيقيه بنجاحه .

وبعد عشر دقائق نقلوا كل لوازمهم إلى ذلك القبو وقـال كرنكايل لرفيقيه :

— لقد اصبحنا في مأمن من كل طارىء مفاجىء فنستطيع اضرام النار من غير أن نخشى فضيحة الدخان فلنتفقد القبو أولاً ثم نباشر باعداد الطعام .

وكان ذلك القبو يبلغ عشرة أقدام بطوله وسبعة أو ثمانية اقدام بعرضه وأمام السلم رواق متوسط الوسع وهـــو كثير الانحدار فدخـــلا فيه ولم يكادوا يتقدمون نحو عشرين خطوة حتى رأوا قبو ثانياً كثيرُ الاتساع وشاهدوا فيه ما دعاهم لمزيد الانذهال .

رأوا في إحدى زاوياه أكداساً كثيرة من القش وبجانبهـا عدد كبير من المشاعل فاناروا واحد منها ليهتدوا بنـــوره في تفتيشهم وابصروا برميلين كبيرين ففتحوهما وإذا هما مملوآن بالخمرة النفيسة المعتقة .

وشاهدوا اربعة صناديق ضخمة ففتحوا اثنين منها ورأوها ملآنين بالاسلحة المختلفة الاشكال والانواع والذخائر الوفيرة ورأوا في الصندوق الثالث رماداً فنزعوه وشاهدوا في اسفله مقداراً كبيراً من اللحوم والاسماك المقددة التي لم تكن تخطر لهم على بال .

وهجموا على الصندوق الرابع كالذئاب الكاسرة وهم يحسبونه مملوءاً بالذهب ولكن حماسهم تحول إلى انزهال حين رأوه مملوءاً بالبارود فتراجعوا إلى الوراء وأبعدوا المشعل عن البارود لئلا تطير شرارة منه فتنسفهم نسفاً وتقضي عليهم .

ولما أنتبهوا من انجائهم اعادوا كل شيء إلى مكانه واضرموا النار وطبخوا الدجاجتين والبيض وتناولوا طعامهم بسرور لا مزيد عليه وقال كرنكايل ضاحكاً :

– لكم كان جوهان الشجاع مخطئاً لما اكد لنا بان من يلتزم معيشة الشرف يتعرض للموت جوعاً .

وتمددوا في ارض المغارة ولم يلبث أن علا غطيطهم ونامـوا نوماً عميقاً .

الفصل الثالث والاربعون

جوهان المقنع

مرت عليهم خمسة ايام وهم في تلك المغارة يقضون المعيشة التي وصفناها وليس لهم الا تناول الطعام وشرب الخمور وباتوا يضرعون الى الله كي تدم عليهم هذه الحال .

واقترح كاركان على رفيقيه بان يبيعوا الاسلحة والبارود الذي عثروا عليه في الصناديق غير أن كرنكايل اعترض عليه بقوله :

– اظن أننا نستطيع التصرف بكل ما هو موجود في هذه الا البارود والاسلحة فلا يجب أن نخبر بذلك رئيسنا جوهان الشجاع وإذ طاوعتاني انصحكما بان نتفقد هذه الاسلحة ونصلح ما يحتاج إلى الاصلاح وبذلك نجد ساوى لنا في أوقات فراغنا

ولم يكن كرنكايل يستطيع ذكر السبب الذي دعاه لابداء هذه الملاحظة وعما لا ريب فيه أنه اطاع بذلك عواطف فؤاده لأن الضجر كاد يقتله نظراً لعدم مفارقته تلك المغارة ليلا ونهاراً

وبعد أن اتفق الرفاق على هذا الأمر اخذوا بتفقد الاسلحة

وتنظيفها حتى اصبحت صقيلة لامعة كانها جديدة .

وكان ذلك اليوم هو الخامس الذي مـــر عليهم في تلك المغارة واليوم الثاني عشر من اختباء جوهـــان الشجاع في منزل بيريت الحسناء وهو اليوم الذي تذهب فيه عادة إلى الدير

خرجت بيريت كعادتها من منزلهـا وهي مصحوبة باحدى العاملات التي كانت تحمل الملابس المغسولة في سل كبير وكانت هذه العامـــلة مرتدية على رأسها قبعة متدلية الاطراف تحيط بوجهها وتكاد تستر ملامحها وهي مثل القبعات الـــتي اعتاد العجائـز على لبسها في ذلـك العصر واحاطت عنقها برباط من صوف طويل يصل حتى انفها

وسارت الامرأتان في طريق الدير وإذا بهما التقتا فجأة مع رجل كان نازلا منها وهذا الرجل هو ساتيا .

وكانت بيريت تشعر بكره عظيم لهذا الرجل رغماً من تحببه اليها ومحاولته التقرب منها لأن الحب الصحيح يـدل غالباً على صدق العواطف لذلك لم تسر الفتاة من هذه المقابلة كما كدرت العاملة التي كانت معها لأنها عجلت خطاها ولكن لم يكن من مجال للتخلص فحاولت بيريت المرور بعد أن ابتسمت لساتيـا ابتسامة لطيفة غير أنه لسوء الحظ لم يقتنع بهذه الابتسامة بـل استوقف الفتاة في قارعة الطريق وقال لها :

ـ الا تزالين على عنفوانك ايتها الفتاة إلى درجة لم تعودي تتنازلين بها لتحية اصدقائك القدماء .

كان وهو يتكلم يحدق بالعاملة ولا يفارقها ببصره فاحنت رأسها بخجل وقالت بيريت :

ـ أخطأت يا سيدي فلست متكبرة بـل أنا ذاهبة لتسليم شغلي إلى اصحابه فارجوك أن تسمح لي بالمرور .

ـ مهلا يا عزيزتي واسمحي لي بان اهنئك بما حصلت عليـه من الرقي فقد صار عندك عاملات يخدمنك .

واقترب بمزيد الاهتمام وقال بمكر :

ـ أني وايم الحق اهنئك بهذه العاملة التي تظهر لي أنها مثال للرزانة ولكنها لسوء الحظ كثيرة الشعر لأني أرى شاباً ظاهر تحت نقابها .

فذعرت بيريت لهذه الملاحظة وأنزلت العامـــلة نقابها عن وجهها فعرف ساتيا ربيبه جوهان الشجاع وصرخ قائلا :

ـ اهذا أنت يا ولدي ؟

فقال جوهان لبيريت بلطف زائد

ـ ارجوك يا عزيزتي أن تسيري امامنا قليلا لأني في حاجة لمحادثة ساتيا فاطاعت بيريت هذا الأمر وقال جوهان بغضب وحـدة :

ـ ويحك هل جننت لتوقفني في طريقي وأنا سائر بهـــذه الصفة ؟ العلك جهلت اني لا اتنكر الا لاسباب خطيرة .

ـ لم اعرفك لاول وهلة ورأيت طرف شاربك باديا من خلال النقاب فاحببت معرفة صاحبه .

– تكلم ما الذي تريد معرفته فليس لي من وقت اضيعه سدى .

وادرك ساتيا اهمية هذا الانذار ولكنه كان يريد معرفة السبب الذي دعا ولده بالتربية لهذا التنكر الغريب فتظاهر لعدم فهمه الكلام الذي سمعه وقال همساً :

– مهلاً يا ولدي وقل لي إذا كنت اهتديت إلى ..

– نعم أني اهتديت إلى الكنوز وكدت اصل إلى مأربي .

– لقد كنت احسب انك عدلت عن هذا الفكر .

– أنك لا تعرفني إذن فاني منذ خمسة عشر يوماً كنت اتجول حول هذا المكان فهجم علي نحو عشرين من الفرسان ولست أدري باية معجزة نجوت منهم لأن هذا الدير محروس كما يجب غير أني على يقين من استطاعة دخوله بهذا التنكر فلا يعرفني أحد وأنا بهذا الزي ومتى خرجت منه بعد ساعة اكون عارفاً مكان الملايين وعندئذ عيشاً يضاعفون حرسهم ويزيدون في تحوطاتهم فان هذه الكنوز ستكون لي وحدي وأنا الذي استولي عليها ... فهل ادركت مقصدي يا ساتيا وهل تسمح لي بالمرور ؟

– اذهب يا ولدي إلى حيث اردت وليتولاك الله في حراسته ولكن دعني اصلح لك نقابك على وجهك لئلا يظهر شاربك ولقد كنت احسنت صنعاً لو حلقتهما .

ولم يكد جوهان يتخلص من ساتيا حتى اسرع والحق

برفيقه بيريت .

وهمس في اذن ساتيا تعليمات جديدة وكان ساتيا ينظر اليهما وهما يبتعدان وهو يبتسم ابتسامة غريبة ثم اسرع خطواته قاصداً الجبل وسار في الجهة اليسرى حتى وصل إلى مكان الحفر فوقف عند بابه برهة وإذا باحد الضباط قد خرج اليه وسأله عما يريده فقال له أنه يريد مكاشفة المأمور بامور خطيرة للغاية وأخذه إلى جانب وابتدأ يحادثه بحماس وعجلة .

*

ولم يكد ساتيا يدير ظهره إلى تلك الجهة حتى انتصب رجل من حفرة كان مختبئاً فيها ولم يكن هذا الرجل غير الراهب كولار الكامل فنظر برهة إلى الجهة التي سار فيها ساتيا ثم تطلع إلى حيث ذهب جوهان الشجاع وبيريت وأخذ يمشي إلى الامام وهو يغني غناء عالياً .

وكان في الجهة الثانية من المكان الذي تقابل فيه ساتيا مع جوهان وعلى بعد خطوتين من المكان الذي كان مختبئاً فيه السكير سنديانة كبيرة وعلى مقربة منها صخرة هائلة وكان هنالك رجل ممدداً على الارض فمر ساتيا بجانبه ولم يره وكان هذا الرجل هو الفارس باردليان .

وقام باردليان من مكانه بتمهل كما فعل كولار الكامل وكانت علائم التأثر العظيم بادية على محياه فنظر الى الراهب

بسكينة وأخذ يناجي نفسه بقوله :

– لما رأيت هذا الراهب ماراً بجانبي كانت علائم السكر الشديد بادية عليه فلم اتعجب منه ولما اختبأت في هذه الحفرة وعاد فخرج منها كانت وقفته وحركاته تدل على الوعي التام والان أرى سكره أشد من الاول فما معنى هذا الامر ؟

والتفت إلى جهة مونـ تارتر ورأى ساتيا آتياً نحو الكنيسة فهمس قائلاً :

– هذا هو ساتيا أو بالحري كيدولوبيني ولقد كان يجب أن اعمل بفكرتي الاولى وأن أذهب اليه واقابله واجبره على الاقرار لي بما يعرفه .

– هل يبلغ بي سوء الحظ إلى هذا الحد فاقابل ولدي ولكني حين أراه واجتمع معه للمرة الاولى اتأكد بانه لص سافل ... رباه أني سمعت هذا الامر باذني منذ هنيهة وأشعرت بتمزق في فؤادي لم اذق مثله في حياتي ولكن لا يجب علي أن أتسرع بحكمي فالشاب كثير الفطنة وقد حادثته قليلاً وأثرت في فؤاده بعوامل الحذر من الرجل الذي كان يحسبه اباه فلانتظر النتيجة لارى كيف تكون النهاية .

وتطلع إلى ساتيا الذي كان يدور في تلك اللحظة حول الكنيسة وهمس قائلاً :

– لست لارتاب بقصد هذا الخبيث فلا عنه وشأنه لأني على يقين من وجود ساعة احتاج اليه ولا راقب الراهب المحتال

لاعرف مقصده من تلونه بحركاته .

وأخذ يراقب كولار الكامل بمنتهى الدقة فرآه يسير بتثاقل وكان قد سمع الحديث الذي دار بين ساتيا وجوهان الشجاع ولم يفته منه حرف واحد فاخذ يتمتم قائلا :

– لا ريب بان ساتيا قد ذهب ليشكو الشاب إلى رجال الدوق دي سولي فهذا الاحمق المجنون يفكر بالانتقام المركب أما أطلفارى أن ولد الاميرة فوستا اصبح ثقيلا علينا لذلك يجب أن نزيله من هذا العالم وليس لنا أحسن من هذه الفرصة فمتى أراد الخروج من هذا الدير يقبض عليه في الحال لذلك سأذهب وأخبر كوفسيني بما وقفت عليه ولا ريب بان النجاح سيكون حليفه إذا اتبع تعليماتي وسار على مقتضاها .

بمثل هذه الافكار كان كولار الكامل يناجي نفسه وهو سائر في طريقه يغني بصوت عال وسار قاصداً المدينة من باب سانت هونوري ولكنه لم يكد يسير اكثر من خمسين خطوة حتى ظهر على الطريق فجأة أحد الرهبان كأن الأرض لفظته ورآه باردليان فتبسم ضاحكاً وقال :

– لقد كنت على يقين من هذا الامر .

ورأى كولار الكامل هذا الراهب فتقدم اليه وهو يتعثر في مشيته ويترنح كالسكاري حتى قاربه فتعلق به وبهذه الحركة فقد توازنه وأراد أن يعانقه فجر بينهما عراك مضحك بغرابته اسفر عن سقوط كولار على ظهره فتركه الراهب وأخذ يعدو

Amr www.liilas.com

مسرعاً كان الشيطان راكض في اثره وهو يشتم ويلعن ذلك الاخ السكير الذي اهان رجال الكنيسة بعمله .

ونهض كولار الكامل بتثاقل من سقطته وسار نحو المدينة وكان باردليان يراقبه بدقة فهمس قائلاً :

– يا له من ممثل بارع .

أما الراهب فقد اجتمع بعد خمس دقائق مع روكتابل احد نواب كونسيني وعلى أثر حديثهما ركب أحد الفرسان جواده وسار نحو المدينة لا يلوي على شيء .

* *

الفصل الرابع والاربعون

هرب برتيل من الدير

وكان جوهان وبيريت قد وصلا الى الدير فاستقبلتهما الراهبة البوابة التي رأت في الاسبوع الماضي بيريت مع احدى العاملات فلم تتعجب هذه المرة لرؤيتها مصحوبة مع واحدة من نسائها .

وتنهد جوهان ورفيقته تنهد الارتياح لما وصلا داخل الدير وكان يعلمان علم اليقين انهما لم يتجاوزا الا الخطوة من الخطر الذي كان يتهددهما وكان على بيريت أن تسلم قبل ذهابها إلى غرفة الآنسة برتيل الثياب النظيفة وتاخذ بدلاً عنها الثياب الوسخة فانقضت عليها نصف ساعة حتى وصلا إلى الجهة التي تقيم فيها الآنسة برتيل وهنالك صادفا الراهبة الخادمة التي دخلت الغرفة معهما .

وكان جوهان وبيريت قد وضعا خطة للعمل وذلك بان ترتدي الانسة برتيل ثياباً تشبه ملابسة كل الشبه وقد كانت

بيريت فدانت بها في الاسبوع السابق فتخرج الفتاتان بكل سهولة من الدير ويبقى جوهان فيه حتى حلول الليل فيتسلق الجدار ويفر هارباً .

وصادفا في طريقهما ساتيا فافسدت عليهما هذه المقابلة الخطة التي رسماها لان جوهان كان يعتقد الاعتقاد الوطيد بأن أول عمل يأتيه ساتيا هو أن يذهب لشكواه فيأتي رجال الشرطة للقبض عليه ويرون برتيل مع بيريت فيتوهمونها العدو الذي يريدون الفتك به ويقبضون عليها لذلك وجب وضع خطة جديدة .

وبقي جوهان واقف قرب الباب فلما رأى الفتاتين منهمكتين بتحقيق الملابس اقترب من الراهبة ووضع يده على كتفها وقال لها بسكينة ورباطة جأش .

— عديني يا سيدتي بان تلتزمي الكتمان فلا اسيء اليك أما إذا حاولت مقاومتي أو استنجدت فاني اخنقك من غير شفة ولا رحمة .

قال هذا ووضع اصابعه الحديدية على عنقها ولم يكن قصده خنقها كما توعدها بل أراد اخافتها فاخذت الراهبة ترتجف من رأسها إلى اخمص قدميها واصطكت اسنانها واقسمت له الايمان المغلظة بان تلتزم الكتمان ولا تتفوه .

وكانت الانسة برتيل قد ارتدت قسما من ثياب العاملات فاقت كامل لبسها في الحال واصلحت لها بيريت وشاحها حول عنقها لتشبه به وشاح جوهان ووضعتا في السلة

الملابس الوسخة التي نزعتها عنها وحملت السلة على ذراعيها واستعدت الفتاتان للخروج .

واعطى جوهان بيريت خنجراً صغيراً وخاطب الراهبة التي كانت تصغي اليه بوجل لا مزيد عليه اياكي أن تأتي باي حركة .

— سنخرج من الدير عن قريب فقفي بين هاتين الفتاتين وسيري معهما بطاعة وحذار من مخالفة أي أمر يصدر عنك وتقولي لمن يسألك عن سبب خروجك أنك تنفذين امراً مستعجلا اصدرته لك رئيسة الدير ولدى ادنى اشارة تدل على رغبتك بمخالفة أوامري تطعنك بيريت بخنجرها وتقضي عليك واكون أنا مراقباً حركاتك فحذار إذا كنت تريدي الحياة .

ولم تستطيع الراهبة الجواب من فرط رعبها ولكنها ابدت اشارة من رأسها ويدها وبانها مستعدة للامتثال إلى الأوامر التي تبلغتها وتحقق جوهان بانها ستقوم بما تعهدت به فاخذ السلم ووضعها على كتفه وعاد إلى الدسوة الثلاث .

وكانت بيريت وبرتيل تمسكان الراهبة بذراعيها لتساعدها على المشي لئلا تقع على الارض من فرط خوفها وكان جوهان يسير امامهن فمشى توأ إلى السور الاوسط الذي كان اقرب له من سواه فاسند جوهان سلمه عليه واخذ الراهبة بين ذراعيه وقال لحبيبته برتيل .

— ارجوك أن تنزعي عنك ملابسك وضعي هذا الرداء

عليك لأن الواجب يقضي بان كل من يراك يتحقق بانك امرأة ولو أن هيئتك وأنت بهذه الحال لا تشبهني كثيراً .

فاطاعت برتيل ما طلب منها وهي تبتسم ولما رآها صارت على تمام الاستعداد قال لها :

– اصعدي ومتى ملكت حريتك انطلقي ولا تلتفتي إلى ورائك وحذار أن تهتمي بامري ويجب عليك أن تطاوعيني لان هذه هي الوسيلة الوحيدة لخلاصك . ثم خاطب بيريت قائلا :

– أني اسلمها لك يا اختاه فخذيها إلى منزلك لأنها لا تكون في مأمن في مكان سواه ولا تفارقيها قط :

– كن في راحة بال يا سيدي فاني ساسهر عليها واتولى حراستها بذاتي .

وصعدت بيريت بدورها فقال جوهان للراهبة .

– اني صاعد بدوري واندرك منذ الآن باني احمل معي مسدساً ولاول حركة أو صوت يصدر منك اطلق الرصاص عليك واقتلك .

وبأسرع من لمح البصر ركب فوق السور وسحب السلم إلى الجهة الثانية فنزلت الامرأتان وأخذ اثناء ذلك ينزع ملابسه النسائية ويلقيها داخل الحديقة .

وكان سور الدير من تلك الجهة يطل على ساحة صغيرة تنتهي طريقها إلى باب الدير فدلها جوهان على الطريق التي يجب أن تسلكاها متى خرجتا من الساحة .

وقفز عن السور ولكنه سمع في الحال صراخ الراهبة التي اخذت تنادي باعلى صوتها طالبة النجدة والمعونة فلم يبال بها .

وكانت بيريت قد التقطت السلة ووضعت يدها تحت ذراع الانسة برتيل ورآهما جوهان تجتازان تلك الساحة بسرعة .

وبينما هو على هذه الحال رأى رجلا يتقدم نحوه بتمهل فعرفه في الحال وصرخ قائلا :

سيدي باردليان أن حسن الحظ ارسلك إلي في هذه الساعة وصرت على يقين من خلاصها .

وعرفت برتيل باردليان فاسرت اليه إيضاً وقصت عليه بوجيز العبارة حكايتها واطلعته على حراجة مركزها فطمأنها على حالها وعرض عليها مساعدته .

وفي تلك اللحظة ظهر عدد من الجند يسيرون في جهة الجبل من الطريق التي كان مزمعاً أن يسير فيها فرآهما باردليان ونظر إلى جوهان الذي جاوبه على نظرته باشارة دله بها على الفتاتين وأنه يتولج حراسة الطريق ولا يطلب منه الا حماية الفتاتين .

ووقف بين حبيبته ورفيقتها وأخذوا يسيرون بثبات ورباطة جأش ولما قاربوا منتصف الطريق وصلوا إلى الجند وكانت الطريق قد أخذت تضيق تدريجياً فخففوا مشيتهم وتجاوزهم الجند وهم لا يبالون لهذا الشاب ورفيقته . وسار

باردليان مع الفتاتين وتمنطق جوهان بسيفه وسار إلى الامام لا يلوي على شيء .

*

قبل أن تقف الفتاتان قرب الباب الذي اوشك جوهان أن يقتل امامه جاء رجل مقنع الوجه وأخذ يتجول حول ذلك الباب حتى وجد مكاناً ضيقاً اختبأ فيه وتمكن من مشاهدة باردليان ورفيقتيه يطرقون الباب الذي فتح لهم في الحال وسمع بيريت تقول لرفيقتها :

– أنك هنا في منزلك يا سيدتي برتيل :

*

الفصل الخامس والاربعون

ابن باردليان الحقيقي

ولما رأى جوهان الشجاع ابتعاد الفتاتين تنهد تنهد الارتياح وقد كان على يقين من وسولها إلى مقرهما بحماية باردليان .

وبعد أن ارتاح باله من هذا القبيل اخذ يفتكر بذاته

وبينما هو كذلك ظهرت الفرسان التي صادفت باردليان والفتاتين وكانوا نحو عشرين فارساً يقودهم رو كتايل فابصروا الشاب الذي كانوا يفتشون عليه فانقضوا إلى الامام ليحولوا بينه وبين الهرب واسرع احدهم إلى زاوية الطريق وأخذ يسدي اشارات متفق عليها وينادي نداء عالياً .

سمع جوهان عن يمينه وامامه وخلفه عدو الجياد تدنوا منه بسرعة وسمع القادمين عن يساره يكادون يصلون اليه وفي مقدمتهم رو كتايل ورجاله .

واشهر سيفه من غمده وألقى على ما حوله نظراً ملؤه اليأس

فلم ير مكاناً يستطيع الالتجاء اليه بعد أن كان قارب النجاة فتولاه الحنق الزائد وزمجر قائلا :

– رباه اتكون هذه موتتي بعد أن رأيت ابواب السعادة قد فتحت امامي .

وكان روكتايل قد اقترب منه حتى وصل إلى محاذاته وصرخ به قائلا :

– سلم ذاتك في الحال فلم يبق لك أمل بالخلاص .

– لقد عرفتك قائلا فيما مضى وثبت عندي الآن أن هذه الصنعة لا تليق بك لأنك صرت قاطعاً للطرق ؟

– الويل لأمك وأبيك فلا بد من قتلك .

– لست أنت التي تقبض علي لأنك لا تجسر على الاقتراب مني

وكان كونسيني والضباط ورجالها قد وصلوا إلى ذلك المكان واصبحوا يزيدون عن الستين عداً ما عدا الرؤساء .

وفي الحال ابصر جوهان سلماً فاسرع نحوه ولما صار في اعلاه فتبسم ابتسامة السرور لان السلم كان ضيقاً في وضعه ولا يمكن أن يصعد اليه اكثر من واحد فوقف في اعلاه وهو مرتفع الرأس وسيفه في يده وقد استعد على الفتك بكل من يقترب اليه واخذ مهاجموه يضيقون عليه حلقة الحصار وفي مقدمتهم كونسيني وركتايل وقائد الجند الذي خاطبه قائلا :

– اسألك باسم جلالة الملك أن تسلم ذاتك أيها الشجاع .

– تعال واقبض علي إذا استطعت .

– اظنك على يقين من أن كل مقاومة لا تجديك نفعاً فسلم سيفك لتسلم .

– سأجعل غمده في بطونكم ايها الاشقياء .

– شأنك وما تريد أيها الجاهل .

وأمر رجاله بالقبض عليه فهجم الجند والفرسان وأنتصب جوهان واقفاً وسيفه في يده وقد اشبه اله الحرب الذي لا يبالي باعدائه كثروا أم قلوا وبأسرع من لمح البصر سقط اربعة من مهاجميه صرعى وأصيب غيرهم بجراح خفيفة .

هاجموه مرة ثانية ولكن عزمه كان قد أشتد فتركهم يقتربون منه حتى إذا صاروا على منال من سيفه اداره بشدة إلى الجهات الاربع فعلت أصوات الالم وصراخ اليأس وقد صار عدد المقتولين تسعة فهمس القائد قائلا :

– حقاً أن هذا الشاب مجنون ليدفع بذاته إلى مثل هذا الخطر العظيم وهو لا يبالي به وقد قتل تسعة من رجالنا ولم يصب بادنى اذى .

وكان بقيه الفرسان رهم يبلغون الخمسين عداً وقد وصلو إلى تلك الساعة بقيادة أحد الضباط ولم يكن جوهان يفارقهم ببصره

واخذ القائد الجديد باعطائهم التعليمات اللازمة ورآهم جوهان يتقدمون اليه بتجره فصبر حتى دنوا منه فانحنى إلى الارض ورفع بين ذراعيه جسما ثقيلا للغاية وقذفه على الذين كانوا يرتقون السلم وكرر هذا العمل اربع مرات وكان كل

Aml www.liilas.com

حجر يقذفه يحطم رؤوس مهاجمية ويسحق اضلاعهم وكانت أصوات الالم تعلوا من كل جهة .

وساد الجزع والاضطراب على المهاجمين فلم يعودوا يعرفون ماذا يجب عليهم عمله وبينما هم كذلك فتح فجأة الباب السري الذى كان خلف جوهان وظهر منة ثلاثة رجال أو بالحري ثلاثة أشباح اشبه بالشياطين وهم ممزقوا الملابس بل هي اطمار بالية وسيوفهم مشهرة في ايديهم وبادروا لنجدة جوهان .

وعرف جوهان الشجاع في الحال رفاقه كاركان وكرنكابل واسكركاس فاقترب منهم بسرعة وتساعد معهم على مهاجمة اعدائه .

وتم جزع الجنود بظهور هؤلاء الشياطين الذين كان يعرفهم جوهان وفي اسرع من لمح البصر لم يعد المهاجمون وقد تركوا اكثر من ثلاثين جثة ممددة على الارض .

وكان القائد يشبة الأموات بلونه من فرط غضبه وكونسيني يزبد ويرغي وروكتايل ينتف بيديه شعر رأسه والجند والضباط يشتمون ويصخبون بعكس الاربعة الشجعان الذين كانوا يضحكون وهم في اماكنهم بغير مبالاة .

واستملك القائد روعه فاصدر إلى رجاله امراً سريعاً فتالبوا حول بعضهم وأخذوا بنادقهم واطلقوها دفعة واحدة فانتشر الدخان ونظر الجميع إلى الجهة التي كان فيها الرفاق بلهفة وعجل ولم يلبث أن أنقشع الدخان حتى لم يعودوا يرونهم في اماكنهم ورأوا الباب الذي كان مفتوحاً خلفهم قد قفل .

ثم تأكد بان الفرار من المنزل ضرب من المستحيل واخبره الرفاق بانهم سدوا الثلمة التي دخلوا منها بالاخشاب فأصبحوا يأمنون المباغته من تلك الجهة ثم نزل إلى المغارة فدلوه على الاسلحة والذخائر التي عثروا عليها فرأى نحو خمسة عشر بندقية وعدداً وفيراً من المسدسات فترك السلاح الابيض واستولى بلهفة على السلاح الناري واسرع من لمح البصر نقلوها إلى القبو واتبعوها بالبارود والرصاص .

ووضعوا في كل فتحة أو ثلمة بندقية لأنهم فكروا بان الاعداء يوجهون معظم قواهم إلى الباب فخصصوا اهتمامهم بتلك الجهة ولم يفتهم بان عليهم حراسة الجهات الثلاث وحمايتها

وبعد أن أتخذوا هذه التحويطات وقف كل منهم في المكان الذي اختاره وبيده بندقية محشوة وهو مستعد لاطلاقها .

واختلف كونسيني مع قائد الجيش لأنه لم يتردد بطلبه النجدة من رجال الدرق دي سولي غير أن قائدهم كان مزوداً بتعليمات خاصة فابى الامتثال إلى طلبه كما فعل معه سلفه .

ونجم عن هذا الاختلاف أن أعداء جوهان باتوا فريقين كل منهما يعمل حسب التعليمات التي تلقاها ولكل منهما رئيس يأتمر بأمره وهما قائد جيوش دي سولي وكونسيني واتباعه وكان كل فريق ينتظر من الآخر أن يكون الباديء العمل وبسبب هذا الاختلاف في الرأي اضاعوا وقتاً ثميناً انتهزه جوهان لاتمام معدات دفاعه .

واقر القائد رأيه على البداية في العمل فحمل ستة من الجنـد جسراً هائلا وتقدموا به لسحق الباب وظل رفاقهم واقفين في صفوفهم كما يقتضيه النظام العسكري أما رجال كونسيني فقـد أرادوا الاقتداء بهم وتفرقوا في سائر الجهات ثم حملوا جسراً كبيراً وضعوه نحو الباب وبينما هم كذلك سمعت اربع طلقـات نارية خرجت دفعة واحدة فسقط اربعة من الجند وترك الاثنان الاخران الجسر وساد الذعر على الباقين برهة وجيزة سمع خلالها اربع طلقات ثانية وسقط اربعة من رجال كونسيني الذي زمجر قائلا من فرط حنقه .

– عشرة الاف ذهب لمن يأتيني برأس هذا الشقي .

وكان جوهان يراقب حركات اعدائه من الثلمة الصغيرة التي كان مختبئاً وراءها ثم أمر رجاله فنزلوا إلى المغارة وأخذوا منها صندوقاً نزعوا غطاءه ثم جاءوا بثلاثـة بـراميل من البارود وافرغوهـا في الصندوق وفرشوا الارض بخـط من البـارود في المكان الذي وضعوا فيه الصندوق إلى الباب وسترا البـارود بالواح خشبية وارجعوا الاسلحة النارية إلى المغارة فبقي فيهـا الرفاق الثلاثة وللحال فتح الباب وظهر منه جوهـان الشجاع بهيئته الرهيبة وسيفه في غمده .

واحدث هذا الظهور الفجائي دهشة عظيمة على الحاضرين فتوقف الرئيسان واقتدى بهما رجالهما وقد منعهم الخوف عن استعمال سلاحهم

وساد على الجميع سكوت رهيب ورفع جوهـان الشجاع

قبعته عن رأسه وحيي قائدي الجند باحترام وكياسة فلم يتمالكا من فرط دهشتهما إلا أن يقابلاه بالمثل وسألهما بمنتهى السكينة .

– ما الذي تريدانه يا سيدي .

– باسم جلالة الملك اقبض عليك فسلمني سيفك .

– وهل جئتم إلى هنا للقبض عليّ ؟

– يسوءني وايم الحق تنفيذ هذا الامر لأنك شجاع لم يقـع بصري على مثلك .

– إذا كان كذلك فيجب أن تأتوا إلى هنا لأجل القبض علي وأن تحطموا هذا الباب وأني اعدكم وعداً صادقاً بان لا اطلق رصاصي على رجالكم خلال ذلك ... أما متى حطمتم الباب ودخلتم إلى هنا فأنا منذ الآن اخبركم بامانه واخلاص بانه لا يبقى أحد من الداخلين في قيد الحياة .

وقبل أن يتراجع القائد من دهشته عاد جوهان إلى مقره واقفل الباب عليه فحينئذ أمر القائد رجاله بتحطيم الباب فلبوا الأمر وتقدم القائد فرأى كأن افعى من نار تتسلل أمامه بسرعة مدهشة فادرك عندئذ الخطر المعرض له مع رجاله فقفز قفزة هائلة إلى الوراء وصرخ قائلا بذعر لا يوصف .

– البارود ؟

وفي ذات الحين انفجر الصندوق واحدث انفجاره دوياً هائلا وظهر سحاب من نار حتى السقف الذي تداعت اركانه وتزلزلت اربعة اركان المنزل .

واخذت تتطاير الاعضاء البشرية متناثرة في كل مكان كما تطايرت الاخشاب والاحجار واخذت السماء تقطر دماً واعضاء بشرية متناثرة شذر مذر واستولى الذعر العظيم على الذين تمكنوا من الخلاص ففروا هاربين ولم تستغرق هذه الحادثة اكثر من ثلاثين ثانية ولم يبق من القائد ومن الخمسة والستة الجنود الذين تبعوه رغماً عن أرادته ومن رجال كونسيني إلا اربعة مساكين نجوا باعجوبة الهيه وانتشرت تلك الاجزاء البشرية من الدير حتى سفح الجبل فلم يكونوا يلتقطون سواها

واستعرت النار فاتت ذلك الخراب الفظيع وبعد قليل ظهرت تلك الجدران سوداء مجردة من اخشابها ولم تبق قائمة في مكانها الا بمعجزة من الموازنة الغريبة .

وكان ساتيا لا يزال يتجول في سفح الجبل لانه أراد أن يشاهد بام عينه ما يتم من الحوادث لان الشواغل والمخاوف كانت قد اقلقته بعد أن تحقق فشله في كل المكائد التي نصبها لابن باردليان فحسب أن القوات غير المنظورة هي التي تساعده ولولا ذلك لما تخلصت فريسته من يده .

وكان مختبئاً وراء احدى الهضبات وشهد تلك المعركة الغريبة وذلك الدفاع العجيب الذي قام به جوهان عن نفسه ولم يترك المكان الذي كان مختبئاً فيه بعد أن رآها التجأ الى ذلك المنزل السري .

ورأى ذلك الانفجار الهائل وشاهد بام عينه خراب المنزل

الذي لجأ اليه ربيبه فهطلت من عينه دمعتان احرقتا خديه الهزيلتين وأخذ يبكي ويتنحب نادباً فشله .

وكان القرويون الذين شهدوا المعركة التزموا الحياد فلم يخرج أحد منهم من منزله حتى إذا حصل الانفجار اسرعوا لاسعاف الجرحى والمصابين فاختلط ساتيا معهم واقترب من المكان جهد استطاعته فلم ير أثراً لجوهان ورفقائه وتأكد أنهم ذهبوا فريسة الاقدار .

وكان الليل قد ابتدأ يرخي سدوله لما صمم جوهان عزيمته على العودة إلى المدينة فاخذ يمشي بتسرع حتى إذا وصل إلى منزل بيريت الحسناء فتح بابها فجأة وظهر على الطريق الفارس باردليان الذي وقف ينتظر ريثما يقفل الباب من خلفه وإذا به يرى ساتيا يبتعد مسرعاً فهمس قائلاً :

— لقد كان بودي اجبار هذا الرجل على الاقرار لي بما يعرفه وهيهات أن تساعدني الاقدار بمثل هذه الظروف .

واسرع في مشيه خلف ساتيا حتى لحق به وقال له باستهزاء أيه يا سيد كيدولوبيني لأ تسرع في السير بمثل هذه العجلة ! ؟

— هل تقصدني بندائك أيها الرجل ؟

— اجل إذ لا يوجد سواك على الطريق فانا ديه .

— وبأي اسم دعوتني لا أم لك .

— الست تدعى كيدولوبيني ؟ وبالحرى اليس هذا هو الاسم الذي تنتحله في بعض الظروف التي لا تستطيع المباهاة بها .

– لست أعرفك أيها الرجل ولم أراك قبل الآن ولكنك تعرف من اسراري ما لا تجوز معرفته لأحد من الناس فاشهر حسامك في الحال واستعد لمبارزتي لأني أريد قتلك وهيهات أن تنجو من يدي .

الويل لي ما اشقاني فاني لم أكن قط أتوقع أن القى الموت من يد كيدولوبيني .

وامتشق حسامه واستعد لمقاتلة ساتيا الذي انقض عليه بحنق لا يوصف وأخذ يطعنه دراكا ولكن باردليان ابطل بمهارته الزائدة كل ضرباته الصائبة فسر لمبارزته رجل بمثل هذه القوة وقال له :

– لا يسعني الا تهنئتك بمهارتك فقد ابطلت لي طعنة كنت على يقين من اصابتها .

– أني تمرنت كثيراً على الدفاع .

– لا أراك تهاجمني فما الذي يمنعك عن ذلك .

– لأني في الدفاع أقوى مني في الهجوم خصوصاً إذا كنت أبارز خصماً بمثل قوتك .

لم يكن ساتيا يتوقع أن يرى من يستطيع مقاومته غير الفارس باردليان فارتاب بامر خصمه فحسبه ذلك الفارس الرهيب لأنه كان يقاربه بالعمر غير أنه كان على يقين من أن باردليان لا يقف عند حد الدفاع بل يعمد إلى المهاجمة لذلك وطد عزمه على التخلص منه سريعاً ونوى بأن يوجه اليه الطعنة

التي اخترعها وسماها الصاعقة فصرخ به قائلاً باللغة الايطالية :

– خذ هذه الصاعقة لا أم لك واذهب بها إلى سقر .

– اخطأت فاني مبطلها ايضاً . ثم انقض عليه شبه الصاعقة وأخذ يواليه طعناً دراكا وضربات سريعة كادت تعمي بصره وتضل رشده ولم يشعر بعد قليل إلا وقد طار سيفه من يده فتراجع إلى الوراء مذعوراً وصرخ قائلا :

– لا ريب بانك الفارس باردليان .

– صدقت :

– أقتلني وخلصني من هذه الحياة !

– لو أردت قتلك لما انتظرت إلى هذه الساعة فاني أريد محادثتك بامور خطيرة .

– صدقت فقد نبئت أنك تريد سؤالي عن أبنك وسابلغك إذا أحببت اخر أخباره فانا الذي خطفته منذ ثماني عشرة سنة وجعلته شقياً سفاحاً وهو يدعى اليوم جوهان الشجاع ولقد كان مقصدي أن أراه معلقاً على المشنقة بيد الجلاد كما فعلت الأميرة فوستا مع ابني باولينا أما اليوم فاذا أحببت أن تراه فاذهب إلى جوار دير مونتارو وفتش بين العظام والاعضاء المبعثرة لعلك تجد بقية من كان .

ولم يستطع أتمام عبارته لأن يد باردليان الحديدية قبضت على عنقه وقال له باردليان بمنتهى الوعيد .

– أعد أيها الشقي قولك وأنك أنت الذي جعلت ولدي

بهذه الحال .

– هيهات أن تستطيع الآن تمييزه فقد اصبحت جثته شذر مذر وهي ملقاة في ضواحي دير مونتارتر

فتناوله باردليان بين ذراعيه ولوحه في الفضاء كما لو كان طفلا صغيراً وأراد أن يلقيه في الهاوية التي كانت على مقربة منه ولكنه عاد فعدل عن فكره ووضعه على الارض بشدة وقال بمنتهى الحدة .

– اذهب فانك لا تستحق أن اقتلك بيـــدي أو اسحقك تحت قدمي

فاطلق ساقيه للريح وفر هاربا فلم يتنازل باردليان للنظر اليه بل سار في طريق الدير وهو يناجي نفسه بقوله :

– لعله يكون كاذباً في زعمه .

الفصل السادس و الاربعون

خدعة كونسيني

وكان كونسيني قد استصحب معه إلى دير مونتارتر اربعين رجلا فلم يبق عنده منهم أحد لأن خمسة عشر قتلوا ونجا خمسة او ستة من الانفجار باعجوبة الهية وفروا هاربين والذين بقوا كانوا كلهم مصابين بجراح مختلفة

ولم يفارق كونسيني ذلك المكان الا في أخر النهار فسار في الجهة اليمنى وفي تلك اللحظة كان باردليان يسير الى الجهة اليسرى فلما وصل الايطالي الى قرب الصليب صادف رجـــلا ساوراً رأسه بعصابة وهو ذات الرجل الذي رأيناه مختفياً خلف الهضبة لما دخل باردليان وبرتيل منزل بـــيريت الحسناء ولم يكن هذا الرجل غير سان جوليان فابتدر كونسيني بسؤاله .

– ألم يقبض على الشقي ؟

– لقد مات قتيلا تحت الانقاض .

– ويلاه لقد كنتم اربعين عدا الجنود الذين ساعدوكم فكيف لم تتمكنوا من القاء القبض عليه ؟

Amr www. Dulas. com

– لا ريب بانك صرت مجنوناً افلست ترى الى أي عدد صرنا بعد كثرتنا والعجب كل العجب من بقاءنا حتى الآن في قيد الحياة .

– الويل أنا الشقي فقد كنت اتقى القبض عليه لامزع فؤاده من صدره باسناني لأني كنت جميل الصورة وهو الذي شوه خلقتي وصيرني الى هذه الحال ولما كنت لا استطيع الاشتراك معكم في القتال فقد خطرت ببالي فكرة غريبة تؤكد لك الانتقام الهائل يا مولاي .

وكان كونسيني وحرسه قد وصلوا الى منزل بيريت فاستوقفهم سان جوليان بسؤاله .

– أتعرف هذا المنزل يا سيدي .

– أجل فمنه قد هرب الشقي الذي كنا نطارده

– صدقت وقد كنت مختبئاً خلف هذه الهضبة وبقيت في مكمني من الصباح حتى هذه الساعة .

– افصح في كلامك .

– يتذكر سيدي أنه أمرنا فيما مضى بالبحث عن الفتاة فهل كانت تدعى الآنسة برتيل ؟

– اجل فهل عثرت على مقرها .

– مهلا يا مولاي فهل هي بيضاء اللون سوداء العينين طويلة القامة تناهز السنة العشرين من عمرها ؟

– اجل .. أجل .. فهل رأيتها ؟ وأين شاهدتها ؟ تكلم وقل سريعاً ما تعرفه .

– مولاي أن تلك الفتاة موجودة في هذا المنزل .

فتقدم كونسيني إلى جهة الباب ليدخل المنزل عنوة غير أن سان جوليان استوقفه بقوله :

– رويدك يا مولاي فان هذه الفتاة محروسة كما يجب فماذا تعرضت لها قد تفقدها بتاتا ولا تعود تهتدي اليها .

صدقت فما الذي يجب عمله ؟

– انتظر بضعة أيام وأطلقني لي يدي في العمل وأنا أقسم لك بن اسلم لك المصفور في قفصه ولست اطلب منك إلا مهلة يومين أو ثلاثة إذا تعهدت لي أن لا تأتي لتتجول حول هذا المنزل لأني اكثر منك اهتماماً بنجاح مسعانا .

وتبين كونسيني الصدق في لهجة سان جوليان فلم يعارضه في قوله وكان ذلك اليوم يوم الخدمة في قصر اللوفر وكانت عندئذ الساعة الثامنة مساء فتقدم بخطى متثاقلة نحو قصر الملك

ولما تأكد سان جوليان من دخول مولاه قصر اللوفر عاد ادراجه حتى وصل إلى منزل كونسيني وبعد قليل كان في غرفة اليونور التي سألته بضجر عما عمله فقال لها :

– لم يفارقني مولاي رجاله ولا لحظة واحدة وقد ذهب توا إلى قصر اللوفر اما الشقي جوهان الشجاع .

– أني عرفت ما جرى فقد نسف ذاته مع اعدائه ومات قتيلا فهل هذا كل ما كنت تريد قوله لي ؟

كلا يا سيدتي فقد عثرت صدفة على مقر الآنسة برتيل التي كان يفتش عليها مولاي منذ شهر ولا يهتدي اليها . وأني رأيت

رجلا طويل القامة قد دخل منزلا هناك مع فتاتين جميلتين وأن أحداهما قد نادت الثانية باسم برتيل .

– ومن هو الرجل الذي كان يصحبهما ؟

– أني عرفت أسمه فهو يدعى باردليان ورأيته يتبارز مع ساتيا الذي كان ماراً من تلك الجهة فأطار له سيفه من يـده بسهولة لا مزيد عليها وشاهدت من قوته البدنية مـا ادهشتني وأوقعني في أشد الحيرة فقد حمله بين ذراعيه كما يحمل الطفل الصغير وأراد أن يلقيه في هـوة كانت هناك ولكنه عفا عنة وتركه فهرب ساتيا كأن الشيطان يعدو في أثره .

– وكيف عرفت أنه يدعى باردليان .

– لأني سمعت ساتيا يناديه بهذا الاسم باعلى صوته .

– وهل اخبرت مولاك كونسيني أنك عثرت على الفتاة التي كان يفتش عليها

– نعم يا سيدتي ودللته على المنزل الذي هي فيه .

وأخذت تسرد عليه أوامرها مدة طويلة حتى إذا فرغت حياها وأنصرف .

الفصل السابع والاربعون

مفتاح الكنز

وسار باردليان بخطى متسعة نحو المكان الذي نسفه الشجاع فرأى الجند والقرويين لا يزالون هناك .

وقد اهتم بعضهم بنقل البقايا البشرية والبعض الاخر بفحص ذلـك المكان وهناك عرف باردليان أن ولده قـد انتحر أيضاً ومات تحت الانقاض فانقدت عيناه كالجمر .

وتقدم من أحد الضباط وحياه باحترام وهو ذات الضابط الذي سمع مكاشفة ساتيا وسأله تفصيل ما جرى فاطلعه على ما عرفه ثم سأله قائلا :

– كيف تمكن هولاء المحصورين من العثور على اسلحة نارية وعلى مثل هذا المقدار من البارود لنسف هذا المكان .

– طالما اجهدنا الفكرة لحل هذا اللغز فلم نهتد إلى ما اردناه ولما اعيانا الافتكار جز منا بان العصاة قد احضروا معـهم البارود وأنهم كانوا مستعدين على المقاومة من قبل .

بعد أن أنذر جوهان الشجاع قائد الجند واخطره بان الذين يدخلون المنزل الذي التجأوا اليه لا يخرجون احياء ذهب فوقف على السلم وهو يمسك غطاء الصندوق وأخذ ينتظر بمنتهى السكينة فلما خلع المهاجمون الباب اشعل فتيلة البارود وقفز بمنتهى الخفة إلى الدرجة التي كانت تفتح تحتها البلاطة السرية فقفلت عليه في الحال .

ولما حصل الانفجار كان قد وصل إلى المغارة حيث كان رفاقه ينتظرونه بمنتهى التأثر لأنهم كانوا يحاذرون على رئيسهم من الخطر العظيم الذي كان متعرضاً له فتمددوا على الارض وظلوا بضع دقائق لا يأتون ادنى حركة فشعروا بان الارض تميد بهم قليلا وقال لهم جوهان :

– لقد أنذرتهم بالخطر الذي يتعرضون له إذا خالفوا نصيحتي فلم يصغوا لها فنالهم ما يستحقونه لأني كنت بعملي مدافعاً عن نفسي .

وبينما كان جوهان الشجاع يسامر رفاقه الثلاثة إذا به عثر على شيء يلمع فالتقطه ليراه وهو العلبة التي سرقتها العجوز كولنيكل من صندوق الآنسة برتيل والتي سرقها منها بدوره كاركان ففتحها جوهان الشجاع وقرأ الورقة التي فيها وهي مكتوبة باللغة الايطالية التي كان يحسنها جيداً .

وهذه الورقة هي نسخة رابعة عن الورقة التي أخذها الاخ كولار الكامل من العجوز فقرأها جوهان حتى اتى على اخرها فبدت عليه أمارات الغضب والقى الورقة والعلبة بعيداً عنه

وصرخ قائلا :

الا يزال هذا الكنزُ اللعين يتبعني في كل مكان كأن القوات الشيطانية قضت علي بسرقته .

وأخذ العلبة ثانية ولاحظ أنها كانت تحتوي على ورقتين فتناول واحدة منها وإذا هي نسخة خامسة مكتوبة باللغة الفرنسوية وفتح الثانية فلم يجد فيها اثراً للكتابة ولكنها كانت مخرمة بشكل غريب فكاد يطرحها بعيداً عنه كما فعل بالاولى ولكنه لاحظ أنها بحجم واحد فوضع الواحدة فوق الاخرى وفي الحال صرخ قائلا :

– لقد توقفت لحل المعنى .

وكانت الورقة الثانية مفتاحاً سرياً لتلك التعليمات فبوضعها عليها ينقلب المعنى بتاتاً ولزيادة في الايضاح تذكر الورقة التي ترجمها الأب يوسف عن اللاتينية وساتيا عن الايطالية وباردليان عن الاسبانية وجوهان الشجاع عن الايطالية ايضاً وقد كان معه رقتئذ نسخة منها بالفرنسية وهذا نصها .

كنيسة الشهيد القديس

الواقعة في الشرق يحفر أسفل الجدار من جهة باريس فيظهر عقد ينزل اليه بسلم ذي ٢٧ درجة وينتهي إلى قبو فيه مذبح وعلى بلاطة هذا المذبح ١٢ خطاً اشارة إلى الاثنتي عشرة درجة ويحفر تحت الدرجة الثانية عشرة التي يعلوها صليب يوناني فتظهر حلقة حديدية كبيرة فيضرب عليها بشدة فتنفتح عن حفرة يجب أن ينبش فيها حتى تظهر بلاطة إذا نزعت من مكانها

يظهر تابوت مخبأة فيه الكنوز .

ولما وضع الورقة المخرمة على الورقة المكتوبة فيها التعليمات قرأ جوهان ما يأتي :

يوجد تحت الكنيسة سلم ذو أثنتى عشرة درجة فيحفر تحت الدرجة الاخيرة إلى أن تظهر بلاطة تحتها تابوت مخبأة فيه الكنوز ووضع الاوراق الثلاثة في جيبه وعاد إلى المغارة حيث كان رفاقه فكتم عنهم أمر الاوراق التي عثر عليها وجلسوا لتناول الطعام ولكنهم قبل أن يمدوا ايديهم اليه سمعوا صوتاً يقول .

— اتسمحون لي بمشاركتكم في طعامكم الشهي

الفصل الثامن والاربعون

نجاة جوهان ورفاقه

قفز الاربعة من اماكنهم مذعورين لسماعهم هذا الصوت الغريب وإذا بهم يبصرون رجلا قد دخل المغارة من حيث لا يعلمون ولم يلبث جوهان أن رآه حتى عرفه وصرخ قائلا :

— سيدي باردليان .

— أنا هو بالذات . ابتل هـذه البرودة تستقبلني أيها الصديق ؟ وهل تأبى علي مشاركتكم من طعامكم الشهي .

— عفواً يا سيدي على ما ظهر مني من الدهشة لأني لم أكن اتوقع في ظهورك بمثل هذه المباغتة .

— لماذا لا تسألني عن الانسة برتيل افلست قلقاً عليها ؟

— كلا يا سيدي لأني أراك تبتسم وأمارات السكينة بادية على محياك وقد آثرت أن تعدني بحمايتها وأنا على مزيد الثقة من قيامك بوعدك .

— دعنا من هذا الحديث واظنك تريد معرفة كيفية دخولي هذا المكان وكيف عرفت وجودكم فيه .

– صدقت يا سيدي .

– قبل أن اطلعك على ما تريد معرفته قل لي كيف كنت تنوي الخروج من هنا .

الامر بسيط ولا ريب بانك تعرف وجود سلم في هذا المكان فقد كنا ننوي الخروج منه .

– وهل بهلت أن المكان العلوي قد تهدم ولئن تعرضتم للخروج به تقع عليكم إنقاضه فتقتلون .

صدقت ولكني كنت اتخذت التحويطات اللازمة .

– كيف كانت الحال فاني احسنت بمجيئي إلى هنا لاني دلكم على طريق أمين لا يعرفها أحد سواي .

اخذ يقص عليهم حكايته وكيف أنه بعد تركه الفتاتين قد لمر ببالة النجول حول الديرليتا كد إذا كان صديقه الشاب قد تمكن من الهرب أو هولا يزال فيه وهناك سمع قصة الانفجار الذي دبره جوهان ولكنه كتم عنهم أمر ملاقاته مع ساتيا وختم حديثه بقوله :

– كنت على يقين من أنك لا تعدم وسيلة للخروج ولكني ظننت بانك قد تود العودة إلى المكان لأنك لن تجد ملجأ أميناً مثل هذا القبو .

الفصل التاسع والاربعون

صداقة جديدة

وفي صباح اليوم الثاني استيقظ اصدقاونا الخمسة عند بزوغ الفجر فافرغ باردليان منطقته وكانت تحتوي على مائة دينار واعطاها لولده الذي ابى قبولها في بداية الامر فقال له:

خذ ما أعطيتك فلن تكلف وستعيد في هذا المبلغ متى صرت غنياً لأنك لا تستطيع ترك رجالك بهذه الحال .

وأخذ اسكوكاس وكاركان وكرنكايل ينظرون إلى الذهب المكدس أمامهم يجزع لا مزيد عليه لأنهم كانوا على يقين من انفة رئيسهم وكبريائه وأنه سيرفض هذا الطلب ولكنهم دهشوا دهشة لا مزيد عليها لما رأوه أجاب طلب باردليان شاكرا وسمعوا الفارس يأمرهم بالاستعداد للسير .

وتقدم باردليان نحو زوايا من المغارة وعلم ولده كيفية فتح وقفل بابها السري وبعد أن تخطوه وصلوا إلى رواق ضيق ولكنه كثير الطول وفي نهايته صادفوا باباً غير منظور عرفه على كيفية فتحه ايضاً ومنه وصلوا إلى الجهة الغربية من الجبل

Ami www.liilas.com

حيث كانت قائمة مبطحنة اشتهرت في هذا العصر .

واعطى جوهان لرفقائه المال اللازم لهم فعادوا إلى باريس ودخلوها من باب سانت هونوري وتوجهوا توأ إلى مخزن بائع ملابس فاشتروا ثياباً جديدة وانصرفوا وهم يكادون يطيرون من فرط سـ وهم لأن نجم سعادتهم قد اشرق عليهم .

أما باردليان وجوهان فسارا توأ نحو مزرعة كليبانكوري وعادا من خلف الكنيسة إلى منزل بيريت الحسناء لأن الفارس كان قد اقترح على ولده بان يمضي يومـــه في مسامرة خطيبته فلبى هذا الطلب بمزيد الارتياح ولكنهما لم يدخـــلا المنزل الا بعد أن دارا من حوله وتاكدا بانه لا يوجد ما يدعوهما للريب

وانقضى ذلك اليوم على جوهان بسرعـة البرق وتوهم العاشقان في تلك الساعات الجميلة التي قضياها مع بعضهم أنهـا يحلمان جميلا .

ولم ينس جوهان لسعادته غير المنتظره الواجب عليه فانه أخذ بيريت إلى جانب ولقنها بعض تعليمات سرية .

ولما أرخى الليل سدوله تقدم الوالد وابنه نحو باريس من باب مونتارنر حتى وصلا إلى المنزل الذي كان يقيم فيه الفارس فقبل جوهان بسرور دعوة أبيه لمناولة الطعام معه وآلى عليه أن ينام معه وذهب إلى غرفته بشارع الشجرة اليابسة وفي اليوم الثاني استيقظ من نومه وخرج من منزله وقد وطد عزمه على البحث عن سيد نبيل يدخل في خدمته لعل السعادة تبتسم له ولا تعود تعاكسه الاقدار .

ولم يكن يعرف من هـو السيد الذي يتقدم اليه ولم يخطر بباله أن يذهب إلى الملك لأنه لم يكن يطمح إلى مثل هـــذه العلياء ومر من أمام منزل كونسيني وهو لا يشعر بامره .

وبينما هو يتجاوز ساحـة اللوانوار رأى شاباً قـد انتصب واقفاً أمامه وقال له بلهجة الدهشة والاعجاب :

– عجباً هل أرى جوهان الشجاع أم خدعتني عيني !

فارتجفت جوهان وقطع حبل افكاره ونظر إلى مخاطبـه بدقة فاذا هو شاب لا يتجاوز السنة الثامنة عشرة من عمـره وثيابه بمنتهى الظرف والكياسة على الزي الاخير تدل ملامحه على رفعه المقام وقد كان يدعى هنري دي نوكاريت كونت دي كانندال وهو ابن الدوق ديبرنون البكر الذي كان نديماً للملك هنريكوس الثالث وتمكن بحذقه ودهائـه من اكتساب رضاه عليه وظل بعد وفاته متمتعاً بذات الامتيازات الاولى .

وبدت على ملامح الشاب امارات السرور الحقيقي لمقابلته جوهان الشجاع ولم يخطر بباله أنّ يفكر بمباغتة مركزها بـل كان ينظر اليه نظرة إلى شجاع لا مثيل له ولاحظ من جوهان هذا الامر فقال له متهكما :

– وما الذي يمنعني البقاء في قيد الحياة يا سيدي الكونت أو لعلك تتمنى موتي السريع ؟

– اخطأت فانت منقذ حياتي ولست انسى لك هذا الجميل وأني وايم الحق تكدرت كثيراً لما اكدروا لي موتك ؟

– أنك تشرفني كثيراً بهـــذا القول يا سيدي لأني لم أكن اتوقع أن أرى أحداً يهتم بشأني .

رباه ... ماذا تقول .. ؟ هل جهلت الملك ... نعم الملك بذاته ووزراؤه ورجال بطانته وحاشيته قـد قضوا يوم امس وهم يتحدثون بامرك وفي الساعة الحاضرة لا يوجد واحـد في العاصمـــة الا وأنت موضوع حديثه وسمره فانت بطل اليوم وأنك أنت الرجل الوحيد الذي تجهل هذا الأمر .

ولم يتركه الكونت دي كاندال بل تأبط ذراعـــه بلطف وأخذ يسير بجانبه فسأله جوهان وهو يتظاهر بعدم المبالاة .

– هل لك أن تخبرني عن السبب الذي دعا هـؤلاء العظام للاهتمام بامري أنا المسكين الوضيع ؟

– عجباً اتسألني هذا السؤال كانـــك نسيت حادثة دير مونتمارتر التي لم يبق احـد من الناس لم يلفظه بذكرها وليتني كنت وقتئذ قـريباً منك لاشهد غرائب اعمالـك فقد كنت وحيداً واستطعت مقاومة مئة من الجند وفتكت بعدد وفـير وتمكنت من النجاة فهذا هو لعمري منتهى العجب .

– لم أعمل شيئاً يستحق الذكر ولقـــد اسعدتني الظروف والاقدار في نجاح مسعاي .

– حقـاً أن مـا اسمعه يكاد لا يصدق .. وهـل نسيت الانفجار الاخير فقد بلغنا أنك انذرت محصريك بالخطر الذي يتهددهم فـلم يصغوا إلى قولـك فنسف المكان وانتحرت معهم وكنت لوحدك قائماً بهذا العمل المدهش .

– عفواً يا سيدي فقد كان معي رفقائي الامناء .

– لقد سمعت بانهم كانوا ثلاثة ولكنهم لم ياتوا الا في الساعة الاخيرة بعد أن أتممت عملك الرهيب .

– أراك قد وقفت حق الوقوف على كل ما جرى لي ولكني اسألك إذا كان سائر رجال القصر يحكمون علي بمثل هذا الحكم

– إذا جاوبتك بالايجاب اكون قد كذبت عليك فالبعض معجبون بك والبعض الآخر ناقـم عليك واخصهم الدوق دي سولي والحاكم الاعظم فكن على حذر منهما لانهما ساعة يدريان بانك [illegible] على قيد الحياة لا يعودان يتركانك تستريح دقيقة واحـ

– [illegible] من هذا [illegible] هو حكم الملك علي ؟

– انه ينـ[illegible]ر بالمصادقة على [illegible] رجاله غير أن الدوق دوبرنون والدي وقد أكد لي أنه معجب بك كل الاعجاب وقد ابدى أسفه لموت رجل شجاع مثلك .

وكان الشابان قد وصلا وهمـــا يمشيان إلى زاوية في شارع غرينيل .

وكان قصر الدوق دبرنون واقعاً في شارع لابلاتريير على بعد بضع خطوات من المكان الذي وصلا اليه فوقف جوهـان ليستأذن رفيقه بالانصراف غير أن الكونت لم يتركه بل قال له

– لست اتركك وأنت على هذه الحال فتعال معي لاقدمك إلى والدي وأنا اؤكد لك أنه يسر كثيراً من تعرفه بك ويقوم بواجبات شكره لك لأنك خلصت حياتي .

والتفت إلى جهة باب سانت هونوري فرأى عربة قادمة من بعد نحوهما ومن حولها ثلاثة فرنسان يتولون حراستها فتبينهم جوهان فعرف بهم رجال كونسيني ثم تأبط الكونت ذراع جوهان وقاده نحو شارع غرينيل ولما وصلا إلى عطفة لا بلاتريير رأيا العربة التي أوجبت خنق جوهان فتبسم ابتسامة لو رآها رجال كونسيني لارتجفوا فرقاً ولكنهم ظلوا سائرين إلى الامام لا يلوون على شيء وهم سائرون في جهة الدير .

**

الفصل الخمسون

قصر دوبرنون

وكان قصر الدوق دوبرنون واقعاً بين شارعي لايلاتريير والبرونوز وحدائقه الرحبة تمتد حتى شارع كوكهيرون .

وقد كان عنده كثير من النبلاء ينفق عليهم ويقيمون معه في قصره وفضلا عن ذلك فقد كان قائد الفرق المشأة فاصبح قصره موئلا لطلاب الوظائف الذين كانوا يؤمونه من كل جانب .

وتأثر أبن باردليان كثيراً من مجاملة الكونت دي كاندال الذي اخذه إلى غرفته الخاصة من القصر وأمر بان تقدم له زجاجة من الخمر المعتقة وشيئاً من الحلويات ليأكلها ويجدد قواه وذهب لاخبار ابنه بما عمله وبعد خمس دقائق عاد إلى حيث تركه جوهان وقال له :

— أن سيدي الدوق في خلوة مع بعض زائريه وهو يتذاكر معهم في شؤون خطيرة وسيستقبلك بعد انصرافهم فارجو أن تصبر قليلا .

وادرك جوهان أن الدوق يمنحه نعمة ممتازة فقال للكونت

ـ اشكرك يا سيدي شكراً جزيلاً على جميلك .

ـ لم اعمل الا بعض الواجب وأني مضطر الآن لتركك لأن سيدي الوالد كلفني بمهمة مستعجلة فلا يطول غيابي .

ـ أني أحب الوحدة وسأنتظر عودتك بصبر جميل في هذا المكان إذا كان بقائي فيه لا يكدك .

ـ اشرب هنيئاً خمرتك في غيابي ولا تنسى أنك هنا كانك في منذلك وإذا احتجت الى شيء من الاشياء اقرع هذا الجرس

وبعد أنصراف الكونت دي كاندال أخذ جوهان يتمشى في الغرفة ذهاباً وأياباً ولم تكن خطاه مسموعة من سمك الطنافس التي يمشي عليها وبينما هو كذلك سر بجانب ستارة سمكية تحجب باباً وسمع من وراءها حركة كراسي وصوتاً جلياً يقول :

هنا نستطيع يا سيدتي التكلم بكل حرية فلا يسمع حديثنا أحد ففي هذه الجهة يقيم ولدي كاندال الذي ابعدته خصيصاً .

أني على يقين يا سيدي الدوق من عدم حبك للرهبان ولكني جسرت فاتيتك بواحد منهم .

وعرف جوهان صوت المتكلمة وأنها زوجة كونسيني التي كانت مثل زوجها تتمنى هلاكه فكتم لنفسه واقترب من الباب ونظر من شقه فرأى الدوق دوبرنون واليونورا غاليكا وراهباً عجوز طويل القامة تدل ملامحه على اللطف والعظمة وقال الدوق مجاملاً ضيفه .

ـ كل زائر يأتي معك يُنزل قصري اهلا ويحل سهلا .

ـ وليس هذا الراهب كسواه فانه حائز على ثقة الملكة التامة وهو الذي كان في خلوته يدبر كل حركاتنا واعمالنا وقد احب اليوم أن يظهر في خلوته وأني اكتفي بذكر اسمه لك فهو يدعى كلود كوافيفا وستكون مخابرتك معه بعد الآن .

ورأى جوهان بمزيد الأنذهال الدوق يقوم من مكانه بمنتهى الاحترام والتحنى أمام الراهب باكرام لا مزيد عليه وهمس قائلا :

ـ عفواً يا مولاي اذا لم يكن يخطر ببالي .

ـ اجلس في مكانك يا ولدي وادعني بلقب المحترم .

ـ امرك يا سيدي ولكن وجودك في باريس ايها المحترم لا يخلو من الخطر .

ـ لقد اقترب زمن العمل ورافالياك الذي احضرته من انكوليم وكنت تظهر له تمام الثقة نراه مترددا

ـ صدقت يا سيدي وهو منذ مدة يفر من أمامي وأخاف كثيراً من عدوله عن عزمه .

وفهم جوهان عندئذ مقصد الحديث الذي كان يسمعه وهمس قائلا :

ـ حقاً أن هذا الدوق الذي كدت اتخذه سيداً لي لا يفضل كونسيني بكثير وأني لاكثر منك معرفة ايها الدوق الخائن بالاسباب التي دعت رافالياك للاحجام عن تنفيذ أوامرك .

وقالت اليونورا برباطة جاش .

– لسنا نستطيع انتظار هذا المجنون ليقر العمل .

هذا ما ارتأيته يا سيدتي وقد فكرت بان استبدله بشاب متين العزم قوي الارادة سيقدمه لي ولدي كاندال واؤمل أن أكون اسعد حظاً معه وهو يتولج القيام بهذه المهمة الخطيرة .

وقال الراهب العجوز .

– أن ابنك الكونت لا يزال شاباً في مقتبل العمر .

– صدقت يا سيدي المحترم ولكني لم اكاشفه بالغاية التي اريدها ولا ذكرت له مقصدي من هذا الشاب .

– لم يبق لنا نفع من رافاليك واصبح وجوده خطراً علينا فيجب اعادته الى وطنة انكولم .

– ومن هو هذا الشاب القوي الارادة الذي ذكرته لي ؟

– أنه شقي رهيب اصبح موضوعاً لسمر الجميع واحاديثهم وهم يلقبونه بجوهان الشجاع .

– لقد قيل لي أن هذا الشاب مات قتيلا تحت الانقاض بعد أن نسف المكان الذي كان محصوراً فيه .

–كلا يا سيدي فهو لا يزال حياً يرزق ولم يصبه اذى على ما اكده لي ولدي كأن الشيطان بذاته قد تولى حمايته والدفاع عنه فنجا باعجوبة غريبة .

فتبادل اكوافيفا واليونورا نظراً سريعاً وكانت نظرة الامرأة تدل على الاستفهام فادرك اليسوعي مقصدها وغمزها بطرف خفي وقال بسكينة لا مزيد عليها :

– كيف عرف ولدك هذا الشاب ؟

– أن لمعرفتها مع بعضهما حكاية مضحكة فقد كنا بالامس في قصر اللوفر لما اخبروا الملك بما جرى في دير مونتمارتر ولست اكتمك يا سيدي المحترم أن جوهان الشجاع لا مثيل له بقوته ورباطة جنانه وقد شهد به الملك هذه الشهادة الحقة واظنه كان كتمها لو عرف بان طعامي لا يزال في قيد الحياة .

أن ولدي لا يزال شابا كثير الحماس فاثر عليه مديح الملك ورأيت أن امازحه ولم افكر بعواقب قولي فسردت له حكاية ملفقة زعمت بها أن جوهان شريف المولد واكدت له بان الملك وحده مطلع على سر ولادته .

وزادت هذه الحكاية الملفقة حماس ولدي وفي هذا الصباح صادف جوهان في طريقه فاحضره معه إلى قصري متباهياً وقد حسب أني ساعطيه رتبة في الجندية .

– وهل قابلت هذا الشاب !

– كلا ولكني وعدته بالمقابلة بعد انصرافكم .

– الا يزال موجوداً في القصر ؟

– نعم يا سيدي المحترم وقد اكد له ولدي الكونت باني ساحصل على عفو الملك عنه فهو لن يذهب من هنا قبل أن يراني .

– وأين هو الآن ؟

– في احدى غرف القصر .

فقالت اليونورا بحماس لا يجب أن يخرج منه .

فدهش الدوق لهذا القول واستوضح رأي اليسوعي بنظرة سريعة فقال له :

– لقد صدقت السيدة اليونورا بقولها فلا يجب أن يخرج هذا الشاب من قصرك .

– هل نسيت يا سيدي المحترم أني اعتمد عليه ليقوم بالمهمة التي كنا نريد تسليمها إلى رافالياك .

– كلا لم أنس ذلك ولكننا لسنا في حاجة إلى هذا الشاب الذي لن يقبل ما تعرضه عليه ولم تبق لنا حاجة برافالياك واعلم بان جوهان أشد خطراً علينا منه فلا يجب أن يخرج حياً من قصرك امثلاً يعرقل مساعينا .

– امرك يا سيدي المحترم وساصدر أوامري بالقبض عليه

وأراد الدوق الخروج لاصدار أوامره بالقبض على جوهان ولكن اليسوعي استوقفه حتى ينتهي من محادثته بالامور الخطيرة التي جاء لاجلها .

الفصل الحادي والخمسون

الاجتماع السري

فلم تجسر اليونورا على مخالفته أو الحاح عليه باجابتها إلى رغائبها وقد بدت عليه علائم الكدر والقدر والقلق لأنها لم تكن تشاطر اليسوعي بثقته في نفسه ووقف الدوق دابرنون منتظر الاوامر التي يجب أن يتلقاها .

وقال اليسوعي برباطة جأش لا توصف .

– أني أيها الدوق اكليك باسم جلالة ملكة فرنسا والنافار واسألك إذا كانت تستطيع الاعتماد عليك بكل معنى الكلمة أن جلالتها ادرى الناس بثقتي واخلاصي .

– سيعطي ولدك البكر لقب الدوق والثاني يتولى فرقة والثالث يمنح القبعة الحمراء ويعطون الرواتب التي تراها مناسبة لهم هذا ما يختص باولادك الثلاثة أما أنت فتعطى مليوناً ويعهد اليك حكم مقاطعة النرر ماندیا وتكون أول رجال مملكة فرنسا فهل تكتفي بهذا العطاء .

– وما الذي تأمرني به جلالة الملكة ؟

– تشترط عليك قبل كل شيء أن تقنع المجلس النيابي للمصادقة على جعل الملكة خليفة الملك .

– أني اتكفل اقناعهم بهذا الامر متى سرت اليهم مع فرقه من المشاة لأني أعرف اللغة التي اخاطبهم بها ومتى ازفت الساعة الملائمة تستطيع جلالة الملكة الاعتماد على خلاصي .

– لقد أزفت الساعة ايها الدوق .

– والملك يا سيدي المحترم .

– أن الملك عرضة للموت كسائر بني البشر وهو في هذه الساعة خارج بعربته من قصر اللوفر من غير حرس وهو ذاهب إلى سان جرمين دوبري واظنهم لم يسقوا خيول عربته أو أفرطوا في اعطائها من المشروبات الحارة وأني ارجو من السيدة اليونورا أن تقص علينا ما تعرفه .

– الامر بسيط فان خيل المركبة ستسير بسرعتها المعتادة حتى تبلغ منتصف الطريق ثم تبتدىء فيها تأثير المشروبات القوية التي تجرعها ولا يعود الحوذي يقوى على كبح جماحها فتتحطم العربة عند أول عقبة تصادفها إذا لم تذهب الخيول وترمي بالنهر وتقضي على المركبة ومن فيها .

فلم يتمالك جوهان من كظم استيائه وخطر بباله أن يهجم على الغرفة التي كان فيها المتآمرون ويفتك بهم ولكنه لم يلبث أن عدل عن فكرته لأنه تأكد أن فكرته لا تجديه نفعاً ولا

يستطيع تخليص الملك بها وتذكر قول اليونورا وتأكيدها للدوق واليسوعي بان الخيل تبقى سائرة سيرها المعتاد حتى منتصف الطريق وأنه قد يتمكن من الالحاق بالعربة قبل حصول الحادث فخرج من الغرفة كالسهم المارق وكان عارفاً الطريق التي اتى منها وفي اسرع من لمح البصر وصل إلى باحة القصر وقد نسي رجال كونسيني ولم يخطر بباله أن الدوق قد يصدر امره في تلك الساعة للقبض عليه .

وكان روكتايل ولونكفال واينوس رجال كونسيني واقفين على مقربة من عربة مولاتهم وهم يضحكون ويتسامرون فرآهم جوهان على هذه الحال وتأكد بان الذين في القصر لا يلحظون خروجه لكثرة الازدحام ولكنه لم يكن قد رسم الخطة التي يجب أن يعمل بمقتضاها فلما ابصر رجال كونسيني همس قائلا :

– تالله أنها لفكرة حسنة وبما أن كونسيني يريد قتل الملك فلماذا لا استخدم خيول مركبته لانقاذ ملك فرنسا .

وفي الحال غير وجهته وتقدم نحو الثلاثة الشبان الذين كانوا منهمكين في حديثهم غير مبالين بما هو جار حولهم ولكنهم لم يلبثوا أن رأوه قد صار فيما بينهم وعيناه تتقدان كشعلة من النار وكان منظره رهيباً مخيفاً فقال لهما بسكينة تاخذ بمجامع القلوب

أني في حاجة إلى هذا الجواد وأريد أخذه .

وهجم روكتايل ونزع اعنة الجواد من يده فعرفه رجال كونسيني وأرادوا الهجوم عليه ولكنه لم يدع لهم مجالاً لامتشاق الحسام بل قال لهم برباطة جأشه المعهودة .

ـ ليس عندي وقت اضيعه سدى فخذوا مني هذه الدفعة على الحساب .

وفي ذات الحين رفش برجله ولكم بيده ونطح برأسه فسقط الثلاثة على الارض باسرع من لمح البصر وفي الحال قفز جوهان على ظهر الجواد وكان الدوق ورفيقاه قد سمعوا الصراخ فاسرعوا إلى النوافذ وأخذ الدوق يصيح آمر بقفل الابواب والقبض على الشقي فلا يفلت من يده .

فلم يبالي جوهان بهذا الأمر بل نكز جواده بمهازيه فانطلق به يسابق الريح .

وشهد اكوافيفا ما جرى وهو صامت وقد بدت على فمه ابتسامه الاحتقار اما اليونورا فكادت تفترس الدوق بنظراتها الحارة وقالت لليسوعي .

ـ تعال يا سيدي المحترم فلا نضيع وقتنا بالمجادلات الفارغة

ـ اذهبي يا ابنتي ودعيني وحدي .

فلم تلح عليه اليونورا بالسؤال وركبت عربتها وأمرت السائق أن يعود بها إلى قصرها .

ونظر كوافيفا إلى الدوق الذي أنحنى أمامه باحترام وتذلل لا مزيد عليهما فقال له بمنتهى العظمة

ـ هل جننت أيها الدوق ؟ أم تحتاج الى امرأة لتقتدي بها في الثبات ورباطة الجأش ؟ أركب جوادك سريعاً والحق هذا الشاب مهما كلفك الامر واقبض عليه لئلا يقضي علينا كلنا .

ـ صدقت يا سيدي صدقت .

وخرج من غرفته وهو ينادي رجاله قائلاً .

ـ أركبوا خيولكم أيها الشجعان لنلحق بالشقي جوهان الشجاع الذي فر هارباً من هنا ونقبض عليه .

وبعد قليل خرج الدوق دوبرنون من قصره وفي اثره خمسون من فرسانه الاشداء .

ولما خرج آخر فارس من القصر انزل اكوافيفا قناعه على عينيه وادخل يديه في اكمامه الطويلة وخرج من القصر بخطى متعثرة ولم يكد يسير بضع خطوات حتى صادف الاخ كولار الكامل الذي مر بجانبه مسرعاً ولم يتوقف لمحادثته عندئذ جرى الحادث الآتي :

كان اكوافيفا قد وصل إلى شارع كوكهيرون وفي الحال ظهر من الجهات رهبان اشداء احاطوا به كالحرس وأوصلوه إلى دير الكبوشين .

أما الدوق دوبرنون فقد حسب أن جوهان الشجاع سيذهب تواً إلى قصر اللوفر لاخبار الملك بما سمعه فسار تواً في شارع غرينيل حتى وصل إلى زاوية شارع سانت هانوري فلاقى من اخبره بان الذي كان يفتش عليه قد ذهب من جهة صليب الترهوار .

ولما وصل إلى صليب الترهوار لاقى الحاكم الاعظم يسير في مقدمة عشرين من الفرسان وهو عائد من قصر اللوفر فوقف

الدوق مرة ثانية لاخبار دي نوفي بما جرى فكاد الحاكم الاعظم يجن من فرط غضبه وقر رأيه على مرافقة الدوق للقبض على هذا الشقي .

وعادت اليونورا إلى قصرهـــا ورأت زوجها كونسيني بانتظارها فاطلعته على ما جرى وفي الحال جمع ما كان عنده من الرجال وأمرهم بسرعة الاستعداد لمطاردة عدوهم جوهـان وفي اثناء ذلك أخذت اليونورا تقول لزوجها بمنتهى السكينة .

– لقد خرج الملك من اللوفر ولا ريب بان جوهان سائر في اثره وسيحصل واحد من امرين فاما أن يدركـــه في الوقت الملائم لينذره بالخطر الذي يتهدده ويخلصه منه أو يصل بعـد فوات الوقت فلئن حصل الامر الثاني اصبحنا الاسياد ويصير زمام الاحكام في ايدينا فنشكو عدونا جوهـان ونتهمه بقتل الملك فيقبضون عليه ويحاكمونه ويعدمونه فنتخلص منه بكل سهولة إلى الابد .

– صدقت ولكنه لعله يصل في الوقت الملائم .

– نتهمه ايضاً لمحاولته قتل الملك وما عليك الا أن تبلغ الدوق دوبرنون ليشهد مثل شهادتك ولا نعدم من يشهد بانهم شاهدوا جوهان في اسطبل الملك فلا يبقى مجال للتردد بسوء قصده فيحكم عليه ايضاً بالاعدام .

– صدقت فالفوز يتوقف على قليل من الجرأة .

– ونزعم أن الغيرة هي السبب الذي دعـــاه لمحاولته قتل

الملك ولا تنس بانه ارتكب هذه الجريمة قبل المرة فاذهب الان وكن فطناً وليتولاك الله بحراسته .

ولم يكد يخرج من منزله مع رجـاله حـتى صادف الدوق دوبرنون والحاكم الاعظم فانضم اليهما وأخذ الدوق إلى جانبه وكاشفه بما سمعه من تعليمات زوجته فصادق عليه واتفقـــا على العمل بمقتضاها

وعرفوا في طريقهم أن جوهـــان الشجاع اجتاز شارع الشجرة اليابسة بسرعة البرق وقد سار في جهة الجسر الجديـد فادرك الرؤساء الثلاثة مقصده فاسرعوا في اثره .

وكان اعداء جوهان قد بلغوا حـين وصلوهم إلى شارع الشجرة اليابسة نحو المئة من الفرسان وانتشر الخبر بسرعـة البرق أن هؤلاء الفرسان ذهبوا للقبض على الشقي جوهان الشقي الذي كان يريد اغتيال الملك وكان معظم الباريسين أن لم نقل كلهم قد سمعوا بما اجراه في حادثة دير مونتمارتر فقاموا لهذا الخبر وقعدوا وانطلق المنحمسون في أثر المطاردين بغية القبض على ذلك الشقي .

وكان جوهان قد وصل في تلك الساعة إلى باب بوسي ولم ير العربة الملوكية التي كان يسير في أثرها وسمع وقع خطى الجياد في أثره فهمس قائلا :

– لا ريب بان الدوق وكونسيني قد انطلقا في اثري مع رجالهما .

والتفت إلى الوراء ولكنه لم ير احدا غير أنه لما تجاوز باب بوسي عرف من بعض المارة أن عربة كانت تسير بسرعة البرق نحو النهر وأن السائق لم يكن يقوى على كبح جماح خيله فاندفع جوهان في اثرها شبه الصاعقة ولكنه لم يبتعد حتى سمع خطى جواد من خلفه وصوتاً يقول بمزيد التحبب .

– ايه يا صديقي إلى أين أنت سائر بمثل هذه السرعة .

وعرف جوهان مخاطبه فاوقف جواده قائلا :

– سيدي باردليان فيا لسعادتي .

الفصل الثاني والخمسون

تحقيقات باردليان

لا بد لنا من اخبار القراء الكرام كيفية وجود كولار الكامل في شارع القولومبية فنعود بهم إلى بعض ساعات من صباح ذلك اليوم .

خرج باردليان من عزلته وهو يناجي نفسه بقوله :

– يجب أن أقابل الملك اذ يعلم الله أي التقارير قدموا له عن ولدي ولا بد لي من اطلاعه على الحقيقة .

والظاهر أنه ادرك صعوبة الامر الذي كان يريده لذلك اخذ يسير بتمهل وسيماء الاهتمام باديه على محياه حتى وصل إلى شارع سبتي بوربون فلم يبقى عليه الا أن يتجاوز الرصيف عن يمينه ليصل الى اللوفر ولكنه لم يفعل بل ظل متردداً في امره وبعد برهة عاد اعقابه .

ولم يسر طويلا حتى ابصر اليونورا غاليكاي قادمة نحوه ومن خلفها ساتيا يتبعها من غير تكتم وكانت عائدة من قصر اللوفر الى منزلها كعادتها اما باردليان فلم يكن يريد مقابلة ساتيا

لذلك اسدل قبعته على وجهه وسار قاصداً شارع سانت هونوري ولكنه لم يكد .

يصل الى زاويته حتى ابصر راهباً عرفه في الحال أنه كولار الكامل .

ولم يكن من عجب من مروره في تلك الجهة ولو رآه غير باردليان لما علق على مصادفته كبير اهمية ولكن الفارس حكم في فكره أن مروره من هناك كان مقصوداً للاجتماع مع اليونورا .

وأراد أن يريح ضميره من هذا القبيل فاختبأ ريثما مر الراهب من أمامه وسار في اثره حتى قارب اليونورا فرآها قد أوقعت منديلا من يدها وابدت اشارة لتنحني وتلتقطه غير أن كولار الكامل كان اسرع منها فالتقطه لها واعطاها اياه فاخذته منه بابتسامة وعاودت سيرها واتجه كولار الكامل نحو شارع دي بوربون .

ولم يكن هذا الحادث البسيط مهما في حد ذاته غير أن باردليان لم تكن تفوته حركة يراها مهما كانت سرية فهمس في نجواه قائلا :

أني على يقين من محادثتها له بينما كان منحنياً أمامها فما الذي قالته له يا ترى ؟

واندفع في أثر الراهب وقد وطد عزمه على مراقبته فمر بالقرب من قصر اللوفر وعاد من شارع سانت هونري وهو يسير بتمهل ولم تكن أمارات السكر الشديد بادية عليه ولم يفارقه

الفارس ببصره حتى وصل إلى فندق مكتوب فوق بابه « فندق الحمامات الثلاث » فوقف تحت احد نوافذه ورفع عقيرته وصرخ قائلا :

— أيه جان فرنسوا ... جان فرنسوا هل أنت هنا ؟

فظهر وجه رافالياك المصفر وعرف مخاطبه فقال له :

— عم صباحاً يا كولار الكامل فماذا تريده مني ؟

تعال معي فقد حصلت على مال وافر وأني ذاهب إلى دير الكبوشيين لانفح رهبانه بشيء مما حصلت عليه فالبس ثيابك وكن مستعداً على الذهاب معي متى عدت اليك .

وكان باردليان قد تقدمه لأنه رأى من العبث تضييع وقته في سماع حديث لا اهميه له وأن الراهب ينوي بزيارة دير الكبوشيين غير ما زعمه لرافالياك واختبأ بالقرب من بابه .

أما كولار الكامل فانه لما وصل إلى باب الدير ثبت قدميه بالارض لئلا يقع وأخذ يغني بصوت عال اغنية السكر حتى إذا انتهى منها اغرب في ضحكة كمن ينتهي من مزاح جميل واقترب من الباب وقال مجاباً لدعوة موهومة .

— لا لست ادخل دير لم ففيه يموت المرء من ظمأه وأنا اليوم كثير المال فاذهب واخبر رئيسك بالأمر .

وعاد على اعقابه ليذهب مع رافالياك فخرج باردليان من مكمنه وقد ابدت عليه امارات الخيبة وهمس في سره قائلا :

— لا ريب بان الاغنية اشارة متفق عليها والكلمات التي

قالها لها معنى غير معناها الظاهر فيما هو يا ترى ؟ يجب علي معرفة ذلك .

ووصل إلى نافذة رافالياك فناداه وذهب به إلى الحانة التي أخذ اليها جوهان الشجاع قبل خمسة عشرة يوماً وكان باردليان يتبعهما على الاثر فاعطى الخادم ريالا وادخله غرفة قريبة من التي اجتمعا فيها ليتمكن من استماع حديثهما وابتدأ كولار الكامل حديثه بقوله :

— أنك فقير ولا تستطيع السفر إلى انكوليم مشياً على الاقدام فخذ هذه العشر الريالات واستعن بها على سفرك . عد إلى وطنك يا جان فرانسوا فتلقى هناك السعادة وراحة الضمير فتتزوج وترزق الاولاد وتصير لك عائلة وتصبح رجلا شريفاً .

ولما ادرك الراهب مقصده أوصل رافالياك إلى فندق الحمامات وتركه بعد أن قبله بعطف واهتمام .

وعاد كولار الكامل إلى باب المدينة وهو يسير بتمهل كأنه في انتظار رفيق له ولم يعد يغني بل أخذ يبذل جهده كي لا يراه أحد .

ولما قارب الباب رأى عربة خارجة منه فوقف في مكانه وتبعها ببصره فذهبت، ووقفت قرب الطاحونتين وعاد كولار إلى فندق الحمامات الثلاث .

ثم دخل كنيسة قريبة من الفندق وجعل يفتش ما فيها باهتمام لا مزيد عليه ولما تأكد خلو المكان ذهب ووقف في

أعلى السلم حيث يرى ولا يرى ولكنه لم يدر أن عدوه باردليان واقف له بالمرصاد .

وفي ذات الحين فتح باب دير الكبوشيين وخرج منه اكوافيفا ومن خلفه حرسه يسيرون زوجاً زوجاً ورآه كولار الكامل من مكانه فلو كه يقترب من شارع كايلون وعاد إلى الكنيسة بغير مبالاة وبعد دقائق قليلة لحق به اكوافيفا فقال له الراهب جوابا على سؤال سري :

أننا وحدنا في هذه الكنيسة .

— لا بد لي من تحقيق هذا الأمر بذاتي .

واعاد تفتيش الكنيسة بمزيد الاهتمام فتأكد خلوها من الاغراب وسأل الراهب بصوت منخفض ؟

— هل شربت الخيل ؟

— نعم .

— وهل أنت على يقين من هذا الامر ؟

— نعم .

— والى أين يريد الذهاب ؟

— الى سان جرمني ديبري .

— وذلك الرجل ؟

— يسافر غداً .

— حسناً . وهي ...

— أن عربتها بانتظارك .

فخرج اكوافيفا من الكنيسة وذهب ليركب العربة التي

كانت تنتظره فيها اليونورا غاليكاي وبعد قليل خرج كولار الكامل الذي قلنا أنه كان يحرس رئيسه من بعد وأخذ باردليان يقتفي اثره .

وفيما هو سائر صادف العربة التي كانت فيها زوجة كونسيني ومعها الراهب العجوز فتحقق أنها ضربت له موعداً لمقابلته وكان الرسول بينهما كولار الكامل وفي الحال وضع في مخيلته الخطة التي يجب أن يسير عليها وذهب تواً الى قصر اللوفر وسأل عن الملك فقيل له أنه سافر الى سان جرمين ديبري فزمجر في نجواه قائلا :

– لقد بدأت تتضح لي الحقيقة ولست اسأل الا الوصول في الوقت الملائم .

وسأل عن الضابط المكلف بالخدمة في ذلك اليوم فقيل له أنه الموسيو دي فيتري وكان يعرفه حق المعرفة فطلب الذهاب اليه وابتدره بقوله :

يجب أن الحق بجلالة الملك الذي قيل لي أنه سافر من غير حرس وأنا في حاجة الى جواد قوي سريع الجري .

وكان الضابط يعرف اخلاق باردليان فلم يتردد باجابته الى طلبه ولا سأله عن مقصده بل اعطاه الجواد المطلوب وهكذا رأينا باردليان مجداً في عدوه خلف الملك هنريكوس الرابع .

الفصل الثالث والخمسون

نجاة الملك من موت محقق

وكان جواد باردليان أقوى من الذي ركبه جوهان الشجاع فلم يلبث أن لحق به وسأله قائلا :

– الى أين أنت سائر بمثل هذه السرعة ؟

فمد جوهان يده الى الامام وأشار الى السهل الممتد الى مسافة بعيدة وقال :

– الملك !

ومن فرط اضطرابه على الملك لم يخطر ببالة أن يزيد في بيانه ولم يبدو عليه شيء من امارات الدهشة لادراك باردليان مقصده بمثل هذه السهولة .

وظلا يعدوان وهما صامتان حتى رأيا عن بعد عربة الملك وكانت الخيول الاربعة التي تجرها تعدو بسرعة مدهشة وقد وقف السائق على كرسيه مذهولاً لأنه يئس من استطاعته رد

جماحها وكان يبذل جهده على غير جدوى لتوقيفها وهو كلما اقترب منه يزداد يأساً .

وتجاوزت العربه كنيسة الاباء القديسين ولم يبق عن اليسار غير اربعة أو خمسة منازل وأنبسط السهل واسعاً أمامها ومن ورائه نهر السين واخذت الخيل تعدو إلى جهة النهر بسرعه البرق كانها مدفوعة اليه بقوة غير اعتيادية لأن رائحة الماء اثارت شهوتها وظمأها ولم يبق من سبيل لردها .

ورأى باردليان وولده هذا الخطر المداهم فدفعا جواديهما في حديقة الملكه وهما لا يبالبان بالاضرار الجسيمة التي سيباهما وكان باردليان على يسار ابنه فقال له :

— أننا نسير في الطريق المستقيم وسنصل قبل عربة الملك فنقفز إلى الارض وننتظرها حتى تصل الينا فامسك الجواد الايسر وأنت تقبض على الايمن .

— أمرك يا سيدي .

وكانا قد أخذا يسمعان أصوات الاستنجاد من العربه لأن هنريكوس الرابع لم يكن فيها وحده بل كان الدوق دي بلتراد والدوق دي ليانكور وهما من الد أعداء كونسيني فنادى باردليان بصوت كالرعد القاصف .

— تشجعوا فقد جئنا لمعونتكم .

وجرى كما توقع باردليان فانه وصل مع ولده قبل عربة الملك وقفزا إلى الارض عن جواديهما ووقفا ينتظران بسكينة

مدهشة حتى أقبلت خيول العربة وهي تكاد تطير من فرط حماسها ورأى الحوذي الذي لم يفارق سكينته تلك البغتة التي ارسلتها اليه العناية الالهية فحاول مساعدتها بما تصل اليه يده من كبح جماح الخيول .

ووضع الملك رأسه في نافذة المركبة لأنه أحب أن يرى ما هو جار حوله وكان شديد الاصفرار ولكنه لم يفقد شجاعته بل همس قائلا :

سيموتنا هذان المسكينان من غير جدوى .

وفي ذات الحين هجم الشجعان على الخيول وقبضا على عنقها بيد وبالاخرى مسكا مناخير الخيول باصابع حديدية ولم يحاولا توقيفها بل اخذا يركضان معها لجم رائتها في سيرها لأن توقيفها الفجائي مرة واحدة كان يعتبر في هذه الحال ضرباً من المستحيل فظلا يركضان معها نحو اربعين خطوة وهما معلقان بتناخير الخيول الدامية التي أخذت تعمل من فرط الما وتخفف عدوها تدريجياً فقال الدوق دي بلفراد .

— لقد صرنا نستطيع القفز من العربة من غير خطر على جلالة الملك .

واصغى هنريكوس الرابع لهذه النصيحة ونزل مع رفيقه من العربة وقد تنهد تنهد الارتياح لخلاصه من الخطر العظيم الذي كان متعرضاً له ولم تلبث تلك الجياد أن سقطت خائرة القوى وهي تلهث تعباً فقال باردليان للسائق .

— أسقها ماء فيذهب ما اصابها .

ولم يكن الملك قد رأى حتى تلك الساعة من جوهان الشجاع غير ظهره فلم يعرفه ولكنه في تلك اللحظة أبصر باردليان فعرفه وقال له ضاحكاً :

– هل قضت الاقدار بأن لا نتقابل مرة الا ويكون علي فضل تخليص حياتي فكيف أقوم بشكرك .

– لم أعمل يا مولاي ما يستحق الذكر

– الا يكفيك تعريضك حياتك للموت لاجلي !

وكان لا يزال مديراً ظهره إلى جوهان ولم يتطلع إلى جهته فلم يبال الشاب بذلك وحسب أن ما جرى كان ناجماً عن الصدف غير أن باردليان كان يعرف الملك حق المعرفة فاخذ ابنه من يديه وأوقفه أمام هنريكوس الرابع وقال له :

– بما أن جلالة الملك يريد المجاهرة بشكره لمنقذ حياته فليقل ذلك لهذا الشاب لأنه منقذه الحقيقي .

فنظر الملك إلى جوهان نظرة لم يكن فيها ما يدعو للاطمئنان وظل صامتاً فادرك باردليان ما كان يجول بخاطره وقال له :

– لولا هذا الشاب لما كنت هنا ولما تمكنت من مساعدته لانقاذ جلالته من موت محتم وقد عرض كل منا حياته لاشد الاخطار غير أن ما كان مثلي وقد وصل إلى عمري لا يبالي بمثل هذه التضحية لأنه يكون قد شبع من الايام ولكن هذا الشاب لا يزال في مقتبل العمر وهو عاشق ومتشوق وقد يكون عمره طويلا وسعيداً ولكنه لم يتردد بتعريض ذاته لخطر الموت كي

ينقذ جلالتك لذلك اكرر قولي بان شكرك إذا أردت اظهاره فليكن لهذا الشاب .

– كنت أوصيته بان يلتزم الخفاء والتكتم ومع ذلك فقد ذكروا لي اموراً كثيرة عنه في الايام الاخيرة وكانوا يحسبونه ميتاً وذلك غاية ما يستطيع انتظاره لأن المشنقة ستكون معدة له غير لك اكدت لي بانه مديون له بالحياة فانا اعفو عنه ولم يبق له جميل علي .

والتفت إلى جوهان الذي كان يصغي الى هذا الحديث بمزيد السكينة والانتباه وقال له :

– أني امنحك ثماني واربعين ساعة لتغادر هذه المدينة فلا يزعجك أحد خلال هذه المدة حتى اذا أنقضت لا أعود مسؤولاً عنك وهذا كل ما استطيع عمله لك أيها الشاب .

– لقد اكدت لجلالة مولاي الملك بأنه يستحيل علي مغادرة العاصمة ثم غير الحديث قائلا :

– وهل يحسب جلالة الملك أن خيوله قد جمحت صدفة ؟

– وما الذي تعنيه بقولك أيها الشاب .

– سل يا مولاي هذا الرجل (واشار الى الحوذي) فهو يعلمك على الخبر اليقين .

وكان السائق قد اقترب من خيوله وفتح فم احدهم واستنشق رائحته بلهفة فسأله عما تحققه وقال له :

– أن أحد الجناة الاثيمين قد سقى هذه الخيول شراباً

Aml www lilas. com

مسكراً فلم يحصل ما حدث بمجرد الاتفاق بل هو مدبر بكيدة جهنمية .

– الويل للاشقياء فهم سيقتلوني لا محالة وأني لن أخرج حياً من هذه المدينة ثم التفت الى جوهان وسائله قائلا :

هل كنت عارفاً هذا السر ؟

فابدى باردليان وجوهان برأسيهما أشارة ايجابية فقبض الملك على يديه من فرط حنقه وقال جوهان بمزيد السكينة :

– لقد كنا عارفين هذا السر وأني احمد الله لوصولنا في الوقت الملائم ولم تخطىء يا جلالة الملك بقولك فأن الاعتداء الفظيع الذي جرى ولم ينجح اليوم سيتكرر مرة ثانية فان الموت يحوم فوق رأس جلالتك ويدور على جانبيك ويحيط من كل مكان ولعل الحظ يسعدني مرة ثانية لانقاذ هذه الحياة الثمينة عندئذ لا يعود مولاي يأسف لاصراري على البقاء في عاصمته

– اذن فبقاؤك في عاصمتنا ناجم عن رغبتك الوحيدة في المحافظة على حياتنا .

– لئن اكدت هذا القول لجلالة مولاي أكون مبالغاً به ولكن لدقائق عنه مقسم الاوفر .

حقاً لقد اعجبتني منك حريتك أيها الشاب ولكن قل لي ما الذي دعاك لتغير فكرك الاول لأني اتذكر باني قابلتك مرة وددت فيها أعدامي الحياة .

– لم أكن أعرف وقتئذ ما عرفته اليوم .

– وما الذي عرفته من الاسرار الجديدة ؟

– تأكدت أنك ابنها .

وسمع اصحابنا حركة صادرة من جهة الدير وهي تشبه عدو خيول كثيرة قادمة نحوهم وقبل أن يتمكن الملك من الجواب ظهرت الجنود التي كان يقودها الدوق دوبرنون والحاكم الاعظم وكونسيني فبدت على محيا الملك ابتسامة دلت على رضاه ونسي أن يجاوب جوهان الشجاع .

ووصل دوبرنون وكونسيني والحاكم الاعظم وابصروا الملك وفي الحال نزعوا قبعاتهم ونادوا فليحي الملك فجاريتهم جنودهم على هذا النداء الذي اعادته الجميع التي تسير من خلفهم فشكر لهم الملك حماسهم واخلاصهم والتفت الى الذين كانوا يحيطون به وقال لهم :

اذا كان يوجد من الخونة اللؤماء من يتمنى هلاكنا فأن لنا بحمد الله كثير من الاصدقاء المخلصين الذين يملأون القلب حماساً ونشاطاً .

ولما وصل الفرسان الثلاثة الى امام الملك ترجلوا باحترام وكان الحاكم الاعظم في المقدمة لأن الدوق دوبرنون وكونسيني عهد اليهم باتهام جوهان الشجاع بجريمة لم يرتكبها ولاخطرت له على بال فسأله الملك قائلا :

– ما بالك متأخراً الى هذه الدرجة .

– ويلاه يا سيدي ومولاي أني كنت انتحرت في الحال لو اصابتك أدنى اذية وهذه هي المرة الثانية التي جئت فيها للدفاع عن مولاي الملك ولكني وصلت متأخراً .

لسنا نوبخك على هذا التقصير فأنك أنما مكلف برئاسة الشرطة ولكنك لا تستطيع التكهن بما تخبئه الاقدار وحقاً أني أقل الملك حظاً فأن رجال الاصطبل قد نسوا أن يسقوا خيول مركبتي فلما شمت هذه البهائم المسكينة رائحة الماء كادت تجن من فرط عطشها لذلك سألحق بهم أشد العقاب .

وتبادل دوبرنون وكونسيني نظرات الاطمئنان والارتياح لأن جوهان الشجاع لم يطلع الملك على سرهما وفضلا ترك الأمور على مجراها الطبيعي حتى اذا لم يبق لها المجال لاحتماله يرسلون اليه من يفتك به غيلة ويريحهما منه غير أن هنالك الحاكم الاعظم فيجب عليهما تبليغه في الحال ما يجب عليه عمله ولم يكن الامر خال من الصعوبة فتقدم كونسيني وقال :

— لقد عرفنا هذا الامر صدفة وهرولنا مسرعين لمساعدة جلالة الملك ويسؤنا أن نكون وصلنا متأخرين كما أننا سررنا من وجود جلالة مليكنا سليما معافى وقد نجا بحمد الله من اعظم الأخطار التي كانت تتهدده .

فحسب الملك أن الدوق دوبرنون كان عارفاً الحقيقة ولكنه كتمها خصيصاً عن رفقائه فقال له :

— شكراً لك أيها الدوق العزيز ولكم أيها الرفاق البواسل ولم يدرك الحاكم الاعظم مقصد رفيقيه فقال للملك .

— اؤكد لجلالة مولاي أن ما حصل لا يتعلق بحادثة بسيطة جرت صدفة بل هي مكيدة شائنة دبرها بمهارة لا مزيد عليها احد الخونة الاشقياء .

فقطب الملك حاجبيه وقال :

— ويحك أيها الرجل هل فقدت عقلك ؟

وأخذت الجموع تصيح هاتفة بالدعاء الملك وهم الذين جاؤا في أثر الفرسان للاطمئنان على صحته وابتدأوا يصيحون بصوت واحد قائلين :

— الويل للقاتل ... الموت للشقي ... اطرحوه في الماء .. اقتلوه ... سلمونا أياه لنأكل فؤاده .

وقال الحاكم الاعظم بثبات زائد .

— اسمع يا مولاي حكم الشعب فانه مجمع على طلب مجازاته والانتقام منه لأن هذه الجريمة الفظيعة لا يمكن أن تبقى من غير مجازاة .

— كم من مرة أقول لك أيها الاحمق أن ما جرى نتيجة عرض بسيط وأراك تريد اقناعي بحدوث جريمة فاذا كان الامر كما تزعم أين الجاني ولماذا لم تقبض عليه ؟

— لقد وجدته يا مولاي . !

وابدى اشارة إلى رجاله فتقدموا إلى الامام واحاطوا بجوهان الشجاع حتى منعوا عليه خط الرجعة وتقدم الحاكم الاعظم نحو الشاب الذي كان ينظر اليه برباطة جأش ويده على صدره .

وتبادل دوبرنون وكونسيني نظرة دلت على قلقهما وكان رفيقهما قد وصل إلى بعد خطوتين من الشاب الذي كان جامداً أمامه كالصنم ومد اليه يده ليقبض عليه وقال :

امتثالا لامر جلالة الملك أقبض عليك

فتركه جوهان يفعل ما يريده حتى كاد يلامسه فضربه بيده على صفح راحته بشده وصرخ قائلا :

– ارجع إلى الوراء أيها الشقي ولا تمسني بيدك .

وشهد الجميع هذه الحركة الدالة على العصيان الصريح فعلت أصوات الشعب طالبة اعدامه وأقترب منه الحرس ولكنه بدا لهم بمظهر مخيف لأن شعر رأسه كان واقفاً وعيناه تتقدان كالجمر وحرك يديه يمنة ويسرة فسقط حارسان على الارض وأراد أن يكرر عمله ولكنه رأى حارساً قريباً منه وهو يشبه العمالقة بكبر جثته وعظم هامته فتناوله بين ذراعيه وخطفه من الارض كما لو كان طفلا صغيراً وصرخ قائلا :

– من الذي يريد أن اقتله بهذا السلاح البشري ؟

فتراجع الحراس مذعورين وأخذ الحاكم الاعظم يحمسهم للقبض عليه وبينما هو يروح ويجيء صادف الفارس باردليان الذي كان يبتسم ابتسامة غريبة فانحاز من طريقه إلى جهة اليمنى فرآه أمامه إلى اليسرى فشاهده في وجهه وعاد إلى مكانه الاول فحال بينه وبين المرور فقال له :

أتريد يا سيدي منعي عن المرور ؟

– أراك لا تفهم سريعاً مقصد اصحابك منك .

فوضع الحاكم الاعظم يده على قبضة سيفه واستعد الحرس على الهجوم غير مبالين بتهديد جوهان ولكن الملك أمر بالوقوف في أماكنهم فلم يسعهم أن يخالفوا أمره وعادت إلى

باردليان ابتسامة سخرية ولما رأى جوهان الحرس ابتعدت عنه ترك الحارس الذي كان يريد استعماله آلة للفتك باعدائه فانطلق يعدو إلى الأمام وهو لا يصدق بنجاته من موت محتم .

ولم يكن هذا الحادث من الحوادث التي يمكن اهماله أو تأجيلها فطلب الملك من الحاكم الاعظم أن يبين له الادلة التي يستند عليها لتوجيه هذه التهمة الرهيبة على جوهان الشجاع فادى اشارة من يده وأبتعد الجميع عنه وفي الحال لم يبق قريباً منه غير باردليان وولده والحاكم الاعظم فدنا من عربته واشار اليهم أن يتبعوه وقال للحاكم الاعظم :

– كل منا يعلم أني أوشكت أن أكون ضحية للاشقياء الذين يريدون اغتيالي ولقد كان يجب عليك أن تكتم هذا السر ولا تنادي به على رؤوس الاشهاد بعد أن سمعت مولاك الملك يقول بأن مما اصابه كان من صدف الاقدار فحقاً أنك لا تليق بهذه الوظيفة .

– دفعت إلى ذلك بعامل الغيرة على جلالة مولاي .

– كل أمر يتجاوز حده يتحول إلى ضده .

فأحنى الحاكم الاعظم رأسه بخجل والتزم الصمت غير أن جوهان أدرك من النظرة التي القاها عليه أنه اصبح من مصاف اعدائه ويجب أن يرهب جانبه بعد الآن .

ولما سكنت قليلا حدة الملك سأله قائلا :

– لقد كان في نيتك القبض على هذا الشاب فما هي التهمة التي توجهها اليه ؟

– أني اشكوه بالاعتداء على حياة جلالة الملك المقدسة وذلك باعطائه خيول عربته شيئاً من السموم .

فصرخ به جوهان بصوت كالرعد القاصف .

– كذبت ايها الشقي .

وقال الملك بعظمة لا مثيل لها :

– اعلم أيها الشاب انه لا يجوز لاحد أن يتكلم أمام الملك الا باذن منه وما اقامني الله في هذا المنصب السامي الا لاعطي كل ذي حق حقه .

وخاطب الحاكم الاعظم بقوله :

– أن هذا الشاب قد خاطر بحياته لانقاذنا وهو الذي تمكن من توقيف خيول مركبتنا بمساعدة الفارس باردليان الواقف هنا ولولاها لما بقينا حتى الآن في عالم الاحياء ولولا جهلك هذه الأمور لما اقدمت على شكواك الغريبة .. وأنك تجهل ايضاً أنه خلال ستة اسابيع قد انقذ حياتنا مرتين من الموت .. وتجهل ايضاً أنه يعرف بوجود مؤامرات علينا وأن حادثه اليوم واحدة منها وهي ستتجدد غداً بشكل آخر ولقد بتنا نعتقد أنه يجب علينا تسليمه منصبك لأنك تجهل ما يعرفه مع أن الواجب يقضي عليك بهذه المعرفة .

– كنت عالماً بان الشاب هو الذي اوقف خيول المركبة الملوكية ولكنها حيلة شيطانية دبرها بمكر لما رأى سره مفتضحاً فعمد إلى هذه الطريقة الغريبة أما انا فاعتقد بانه هو القائم بالمؤامرات التي ذكرها جلالة الملك وتأييداً لقولي سأسلم

ذاتي إلى السجين ليصير التحقيق الدقيق بما ادعيه حتى إذا تبين بطلان قولي اجاز لي بذات الجزاء الذي يستحقه المتآمر على جلالة الملك ولقاء ذلك اسأل القبض على هذا الشاب ايضاً والتحقيق في سوابقه وماضيه .

ولم يكن هنريكوس الرابع كثير الشكوك كما كان والده لويس الثالث عشر بل كانت الثقة العمياء من اعظم عيوبه غير أنه كان في تلك الساعة متأثراً بعامل الخوف من الخطر الذي نجا منه .

ورأى باردليان تردده بين تصديق الحاكم الاعظم أو تكذيب ما شاهده بام العين فرأى أن الوقت اصبح ملائماً لمداخلته في الأمر وقال :

– اؤكد للملك بأن هذا الشاب لم يكن قاتلاً كما يحاولون اتهامه وانا على يقين من خطأ الحاكم الاعظم وجلالة الملك يعلم علم اليقين باني لم اكذب قط .

– صدقت ياصاح ولكنك قد تكون مخطئاً .

– أني غير مخطيء في هذه المسئلة .

– هل تستطيع يانوفي اخبارنا عن السبب الذي دعا هذا الشاب لتعمد قتلنا .

– لم ينس مولاي باية ظروف قابلته منذ مدة في شارع الشجرة اليابسة .

– وما معنى ذلك ؟

– أنه مغرم بحب الفتاة التي تقيم في ذلك الشارع وقد فعل

ما فعله مدفوعاً بعامل الغيرة عليها .

– وهل تعتقد هذا الامر ؟

– انا على يقين مما اقوله .

فتبسم الملك وألقى نظرة على جوهان الذي كان واقفاً في مكانه لا يأتي حراكا فقابله باردليان بابتسامة مثلها وقال :

– لا ريب بأن كل الادلة التي يقيمونها لاتهام هذا الشاب تكون بمثل هذه الاهمية والحقيقة التي لا ريب فيها انهم يريدون التخلص منه بأي وجه كان .

– لعلك تكون صادقاً في قولك واظن بانه يحمل بنا أن نتحادث سوية في بعض الشؤون .

وهذا هو اعتقادي يا مولاي .

– اتبعني إلى عربتي .

وكان هذا القول بمثابة أمر لدى نوفي فتراجع إلى الوراء وقال باردليان لجوهان :

– لا تفارق هذا المكان وابق في انتظارنا فإن حديثنا لا يطول .

الفصل الرابع والخمسون

مكاشفة الملك بالحقيقة

وجلس الملك وباردليان ازاء بعضهما في العربة وقال الاول :

– تعلم ايها الصديق أني أثق بك كل الثقة فهل أنت تكفل حسن نيات جوهان الشجاع ؟

– نعم يا مولاي .

– إذا كان الأمر كذلك فلا يزعجه أحد بعد الآن فقل لي هل تعرفه بصورة خاصة ؟

– اجل ولولا ذلك لما كفلته .

– هذا ما اردت معرفته وأنك تستطيع ارشادي إلى ما أريده فمن هو هذا الشاب لأن اسمه لا يفيد معنى كبيراً والتقارير التي تقدمت بحقه ليست موافقة له .

– أنه ابني يا مولاي .

– لقد كنت مرتاباً بهذا الأمر إذن قد اهتديت إلى الغلام

www.lilas.com

الذي كنت تفتش عليه منذ عودتك من اسبانيا أي منذ عشرين سنة فلعلي اعمل للابن ما لم استطعه للاب .

– شكراً لك يا مولاي .

– أراه يجهل أنك ابوه .

– نعم يا سيدي وسيبقى جاهلا هذا الأمر إلى حين من الزمن .

– وما سبب دلك ؟

– هي فكرة خطرت ببالي .

– لست اسألك الوقوف على اسرارك العائلية فهل ابنك يعرف الذين يريدون موتي ويسعون لقتلي ؟

– نعم فهو يعرف بعضهم .

– وإذا سألتك أن تطلعني أنت أو ابنك على هؤلاء الاعداء فماذا تقول :

– لو طلب مني جلالة مولاي حياتي اقدمها بطيبة خاطر وأظن أني اثبت هذا القول اكثر من مرة ولكني لن اكون قط واشيا .

– وأبنك جوهان .

– لا اظنه يفعل ذلك ومولاي يستطيع تجربته .

– لا عجب إذا نشأ على اخلاقك فدعنا من هذا الحديث ولعله يحتاج إلى مقابلتي في مثل هذه الظروف الحرجة فما عليك الا أن تذكر اسمك ففي أية ساعة من النهار أو الليل تفتح امامكما ابواب القصر فقل لي الصدق ما السبب الذي دعا ولدك

الذهاب إلى جهات دير مونتمارتر ؟

– أنه ذهب لتخليص فتاة سجنوها عنوة في ذلك الدير وأخذوها اليه بالحيلة .

– وهل عنيت بها الانسة برتيل دي سوجيس ؟

– نعم يا مولاي .

– ومن الذي جسر على سجنها عنوة في ذلك الدير ولاي الاسباب ؟

– أني اجهل الذي سجنها أما الاسباب التي دعت لمعاملتها بهذا العنف فهي أنها تملك أوراق خطيرة لا يريد البعض اظهارها .

– لماذا لم اتبلغ هذا الامر وهل حسبتم أني لا اهتم بامر هذه الفتاة واترك بلا عقاب الذين يجسرون على تعذيبها ايا كانوا

– لقد قلت يا مولاي منذ هنيهة أن لولدي ذات اخلاقي وطباعي فانه أحب انجاز امره بيده لأنه على يقين من استطاعته الدفاع عمن يحبه .

وما الذي تتضمنه هذه الاوراق ؟

– فليكن مولاي مرتاح البال من هذا القبيل فليس فيها ما يتعلق بالملك .

– وهل اصبحت هذه الفتاة في مأمن على ذاتها بعد الآن ؟

– لا اظن أنها تكون في أمن تام الا بعد بضعة اسابيع أو بضعة اشهر غير أن لها ما يسهر عليها .

– ليس هذا ما اريده فاعلم يا باردليان أن هذه الفتاة تهمني

كثيراً وقد عرضت عليها الرتب والالقاب ولكنها أبت ما عرضته عليها وكن على يقين باني لا احجم عن المداخلة بشأنها لانها من دمي ... أما الآن وقد انجزنا مسألة ابنك فقل له أن يمتنع لمدة من الزمن عن الذهاب إلى دير مونتمارتر وضواحيه لئلا يحدث سوء تفاهم جديد يكون سيء المغبة .

فتبسم باردليان ابتسامة المكر وبدلاً من مجاوبة الملك على طلبه قال له :

– لقد تنازل جلالة الملك واظهر اهتمامه بامري وأمر ولدي ولكنه لم يسألني عن أمه .

– صدقت فمن هي أمه ؟

– هي الاميرة فوستا .

– لقد قيل لي أنها كانت رائعة الجمال فلا يسعني إلا تهنئتك لحصولك عليها .

– صدقت يا مولاي اذ لم يكن لها شبيه بجمالها وكانت ذات ثروة طائلة وقد تمكنت من اخفاء ثمانين مليوناً في ضواحي باريس وخصصتها لولدها ومع ذلك لم ينقص ايرادها العظيم .

– وهل عرفت يا صاح أني كنت على وشك سلبك ؟

– أجل أني كنت عارفاً هذا الامر لأن جلالتك صدقت ورقة مكتوبة باللغة الايطالية وفيها تعليمات بغاية الصراحة فامر الدوق دي سولي باجراء الحفريات في كنيسة الشهيد .

– وكيف عرفت ذلك .

– كنت حاضراً لما أعطيت هذه الورقة للدوق .

– لم يذكر لي هذا الأمر .

– أنه جهل سماعي الحديث الذي جرى بينه وبين الرجل الذي اعطاه تلك الورقة .

– بعد أن عرفت المقصد من هذه الحفريات لم تقل شيئاً وتركت القائمين بها يفعلون ما يريدون فما الذي دعاك لهذا السكوت

– لأن الكنوز غير موجودة في المكان الذي يحفرون فيه والتعليمات التي اعطيت للدوق هي كاذبة فقد كنت امينا من هذا الأمر

– لقد اشار علينا الدوق بنصيحة كاذبة لم نكسب منها الا خسارة اموالنا .

– على افتراض وجود كنوز في ذلك المكان فان مساعي جلالته ستبقى عقيمة ولا تجد شيئاً مما تفتش عليه .

– زدني ايضاحاً لاني لم افهم قولك .

– اعلم يا صاحب الجلالة بان ابني ولد في سجن سانت انج في رومية ولم يخرج منه حياً الا لأن البابا سيكستوس كان عارفاً بوجود هذه الكنوز فسمح للطفل ومربيته بالخروج من السجن وفي ذات الحين اطلق في اثرها كل رهبان فرنسا وايطالية وكان يؤمل الاهداء إلى هذه الكنوز بواسطة الغلام أو مربيته .

– لقد بدأت تنجلي لي الحقيقة .

– مر على هذه الحوادث عشرون عاماً ولم يقطع رجال الكنيسة املهم من الحصول على الملايين التي يطمعون بها

للوصول إلى الكنز قبلك لأنهم اقوى منك في ذلك المكان وهذا من جملة الاسباب التي دعتهم للوشاية بولدي لدى جلالتك .

– فهمت الآن فهؤلاء الرهبان كثيرو الطمع وهم سيكونون سبباً لقتلي .

– لا اظنهم يدركون مأربهم السافل لأن لجلالتك اصدقاء مخلصون يسهرون عليك في الخفاء كما يسعى اعداؤك في الخفاء فهل عرفت الآن السبب الذي يدعو ولدي للذهاب إلى دير مونتمارتر فهو يريد السهر على كنوزه وذلك حق صريح لا يجادله أحد فيه .

– صدقت ولو كنت مكانه لعملت مثله .

– يسرني أن اسمع من جلالتك هذه الشهادة ولا ريب بان الوشاة قد نقلوا إلى الملك حادثة الدير بصورة مكذوبة لأن مقصدهم السرقة أما ولدي فدافع عن ما له ونفسه كما يدافع المرء عن ذاته لو اعترضه نفر من اللصوص .

– أنه احسن وايم الله بعمله وسأصدر أوامري للدوق كي يبطل هذه الحفريات .

– كلا يا مولاي بل دعه يداوم عليها وأني اسأل جلالتك أن تأمر الحاكم الاعظم ورجال البوليس بان لا يعترضوا ولدي جوهان بعد الآن الا إذا اتى عملاً خالف القانون .

– سيكون ما تريده وأني اسألك أنت المطلع على كل هذه الاسرار كيف تمكن ولدك من الحصول على البارود وكيف نجا من ذلك الانفجار الهائل .

– الامر بسيط يا مولاي فهناك قبو لا يعرف وجوده احد من الناس وفيه خبأت الاميرة فوستا كنوزها العظيمة وكانت تحسب أن الاعداء سيحاولون الاستيلاء عليها فقد اتخذت تحوطاتها اللازمة وهذا القبو يؤدي إلى مغارة وضعت فيها الاسلحة والذخائر والبارود والرصاص ولما كنا في اشبيلية اعترفت لي بهذا السر واطلعتني على كيفية الدخول إلى هذا المكان فلما جئت إلى باريس تفقدت القبو فرأيته خالياً من المؤن فاتيت اليه بالمؤنة اللازمة وكانت كلما فسدت ابدلها بسواها .

فضحك الملك وقال :

– وقد تمكن جوهان من الثبات بسلاح امه ومؤونة أبيه حقاً أن هذا لمن عجب العجائب !

وأنتهى حديثهما على حين أحب باردليان لأنه حصل على عفو الملك التام عن ولده فلم يعد يبالي بسواه من الاعداء ونزل من العربة وابدى لجوهان اشارة فاقترب منه وكان الملك لايزال في العربة فطلب من رجاله أن يتقدموا اليه وقال للحاكم الاعظم :

– لقد بلغك خطأ ما قلته لي فان جوهان الشجاع شاب نبيل يستحق كل كرامة واعزاز ولقد عرض حياته لتخليص حياتنا .

فساد على الجميع سكوت رهيب وبلغ الغضب والحدة مبلغهما بكونسيني فلم يعرف ماذا يعمل أو يقول فتقدم خطوتين إلى الامام وقال بصوت اجش :

ـ سيدي أن هـذا الشاب الشجاع للنبيل المستحق كل كرامة واعزاز كان في خدمتي وإذا سمح لى جلالة الملك اطلعته على حقيقة امره .

ـ ليس من موجب لذلك فقد عرفت عنه ما فيه الكفاية .

ولم يكن ابن باردليان من الذين يصبرون على الاهانة فتقدم بدوره إلى الامام وقال برباطة جأش :

ـ اسأل جلالة مولاي الملـك بكل خضوع أن يأمـر كونسيني بالكلام فهو الدعـدو لي وشهادتـه ثمينة للغاية وأني اطلب ايضاً شهادة الدرق دوبرنون الذي هو من جملة اعـدائي أيضاً وإذا لم يكفي ذلك فاني اطلب شهادة احد الرهبان وهو ثالث اعدائي فتكلما وقولا ما تعرفانه لئلا اضطر لاحضار ذلك الراهب .

فادرك الملك مـا يتضمنه هذا القول من الوعيد ونظر إلى كونسيني والدرق دوبرنون الذي قال :

ـ لست انكر يا مولاي شجاعة هذا الشاب واستقامتـه ولكني أنكر عليه قوله أني من أعدائه لأني لم انس بانه هو الذي انقذ حياة ولدي .

ولم يسع كونسيني الا التغلب على عواطفه فكظم غيظـه وقال بصوت متهدج من التأثر :

ـ نعم أننا نكره بعضنا ولكن لا يسعني الا الاعتراف بشهامته وشرفه .

فاكتفى جوهان بهذه الشهادة وقال الملك :

ـ اصرح لكم ايها السادة بان جوهـان الشجاع اصبح من عداد اصدقائي ولستم تجهلون أني ادافع بشده عن الذين احبهم فلا تنسوا هذا الامر .

فانحنت الرؤوس أمامه باحترام وهتف الجميع بالدعاء للملك الذي طلب من باردليان وجوهـان أن يرافقا مركبته إلى قصر اللوفر فلبيا هـذه الدعوة بمزيـد الامتنان ووقف كل منهما في جانب منها وانطلقت خيلها تسابق الرياح .

ولما ابتعدت مركبة الملك افترق كونسيني والدرق دوبرنون والحاكم الاعظم عـن بعضهم وكل منهم يشعر بنيران الغضب تتأجج في فؤاده وظل كونسيني في مكانه حتى انصرف الجميع فاستدعى اليه رجاله وخاطب سان جوليان قائلا :

ـ إلى اية درجة وصلت مسألة الخطف المعلومة ؟

ـ أنني اكون مستعداً على العمل غداً غير أني لا اجسر على تأكيد شيء لمولاي واظن أن الاوفق عدم التسرع بالامر

ـ صدقت فان التسرع مضر وارى تأجيل الأمر إلى اسبوع القادم ولكني احظر عليكم التجول حول البيت الصغير بل يجب مراقبته عن بعد وأني احذركم من التعرض لجوهان الشجاع خلال هذه المدة .

ثم أخذ يطلعهم بصوت منخفض على الخطة التي رسمها في فكرته لاجل الظفر بعدوه فبدت عليهم امارات الارتياح لما سمعوه .

وكان باردليان وجوهان قد وصلا في تلك الساعة إلى قصر

اللوفر فاستأذنا الملك بالعودة واول شخص صادفاه كان الضابط فيتري فتقدم اليه باردليان وقال له بصوت سمعة الجميع :

– لقد ارجعت اليك جوادك يا سيدي وحقاً أنه فرس كريم فقد تمكنت بواسطته من اللحاق بعربة جلالة الملك بكل سهولة وبهذه الوسيلة تمكنت من توقيف خيول عربته الجامحة فجلالته مديون لك بالحياة ايضاً .

وسمع الملك هذا القول فلفت رأسه وقال :

– كن على يقين يا فيتري باني لن أنسى لك هذه المنة .

فتقدم الضابط فيتري إلى باردليان وقال له :

– أنك وايم الحق أكيس رجل وقع عليه بصري فتكرم بقبولي في عداد اصدقائك .

– بل تحق لي المفاخرة بهذه الصداقة ولم أقل ما قلته الا لأني رأيت الواجب يقضي علي باطلاع الملك على الذين اشتركوا بخلاصه .

وقال جوهان ضاحكاً :

– أقد ذكرتني يا سيدي باني استعرت هذا الجواد رغماً عن ارادة صاحبه .

– لا انكر عليك باني دهشت لما رأيتك على ظهره لأني لم أكن احسبك هيناً إلى هذه الدرجة .

وكان الضابط فيتري ينظر إلى جوهان لأنه لم يعرفه وقد رآه يخفر عربة الملك وهي نعمة لا تمنح الا لاقرب المقربين لجلالته ولاحظ باردليان انذهاله فعرفهما ببعضهما ولم يتمالك

الضابط أن قال :

– جوهان الشجاع ... عجباً هل هو بطل الحادثة الغريبة التي جرت في دير مونتمارتر ؟

– هو بذاته ولست اكتمك بان اعداءه قد وشوا به لجلالة الملك ولكنه تمكن بشجاعته واخلاصه من أثبات كذبهم فقدم لجلالته اعظم الخدم وبات بعد اليوم يعتبر من أوفى أصدقائه .

– لقد لاحظت هذا الامر ورأيت جلالته يخصه بعناية وعطف ممتازين ربما أنك استحسنت جوادي يا سيدي باردليان اسمح لي بأن أقدمه لك هدية محبة واخلاص .

فكاد باردليان يأبى هذه الهدية ولكنه عاد فعدل عن فكرته بعد أن نظر إلى مولده وقال للضابط :

– لا يسعني الا قبول هديتك شاكراً ولكني لست غنياً إلى درجة أتمكن بها من القيام بمثل هذه النفقات الطائلة فاسمح لي أن أقدمه باسمك إلى صديقي جوهان الشجاع .

– أن الجواد اصبح ملكاً لك وأنت حر التصرف به

– لي نصيحة أهديها اليك بطيبة خاطر وهي أن تفهم الملك باية طريقة كانت أنك أهديت جوادك إلى جوهان الشجاع فترى منه ما يسرك .

– شكراً لك يا سيدي فان نصائحك لا تقل قدراً عن شجاعتك التي لا مثيل لها .

Aml www.lilas.com

الفصل الخامس والخمسون

نصيحة باردليان لولده

وسار باردليان مع ولده في طريق المنزل الذي كان يقيم فيه واقترح الفارس على جوهان مناولة الطعام فلبى طلبه بمزيد الارتياح لأن الجوع كان قد اثر عليهما اشد تأثير لما استوى بهما الجلوس امام المائدة التي أمر باعدادها قال جوهان

– يخيل لي يا سيدي بان نجم سعادتي قد بدا بالاشراق فمنذ أسعفني الحظ بمقابلتك لم ار الا ما فيه الخير .

– هل هذا أعتقداك ؟

– أجل لأنك كنت سبباً لحصولي على هذا الجواد الأصيل .

– لست افاتحك بامر الجواد بل اسألك إذا كنت تعتقد حقيقة أن نجم سعادتك قد بدا بالاشراق .

– الم احصل على عفو جلالة الملك بواسطتك ؟

– لقد قدمت له من الخدم الجليلة ما لا يسعه السكوت عنه فكم تقدر قيمة هذا الجواد

– أن أول صيرفي يهودي يدفع بثمنه وثمن عدته لا أقل من مائتي ذهباً .

– أنك عرضت حياتك لتخليص حياة الملك فلم ينلك من المكافأة الا هذا الجزاء وأظن بل انا على يقين من أنك لن تكرر مخاطرتك بحياتك مرة ثانية لقاء هذه المكافأة الزهيدة .

– اخطأت يا سيدي فاني أكره كونسيني كرهاً لا مثيل له ولو رأيته مهدداً بمثل هذا الخطر لما تأخرت عن المبادرة لنجدته أما فيما يتعلق بالملك فاني لي اسباباً خاصة تدعوني لاكون كثير الاخلاص لجلالته .

– هل لك أن تطلعني على ذلك ؟

– لقد كاشفته بالامر وقلت له أني مخلص لجلالته لأنه ابوها

– صدقت فاني نسيت ذلك والآن اذكر لي كيف عرفت بالخطر الذي كان يتهدد الملك .

فاخذ جوهان يخبر اباه بكل ما رآه وسمعه في منزل الدوق دوبرنون ولم يكتم عنه شيئاً من تفصيل تلك المقابلة الغريبة وكان باردليان يصغي اليه بمزيد الاهتمام والانتباه حتى إذا انتهى من حديثه سأله قائلاً :

– وهل أنت على ثقة من أن هذا الراهب يدعى كلود اكوافيفا .

– نعم يا سيدي ولكني لم افهم كيف يتمنى هذا الرجل موتي وأنا لا أعرفه ولا رأيته قبل هذه المرة .

— هل عرفت من هو هذا الراهب ؟

— كلا يا سيدي .

— هو الرئيس الاعظم لطغمة اليسوعيين .

— أهذه هي الطغمة المتهمة بتحريض جان شاستل ودي كينار ودي فاراد وسواهم على قتل الملك ؟

— أجل وهي التي اعطت اليوم سلاحاً لرافاليك ليقتل هنريكوس الرابع .

— لم أفهم لماذا يريد رئيس اليسوعيين قتلي .

فتأمله باردليان برهة وهو صامت ولم يرض أن يذكر له السبب الحقيقي وهو لكونه مالك لذلك الكنز العظيم غير أنه رأى وجوب تحذيره من غير تنبيه ظنونه فقال له :

— أنه يريد قتلك لأنك مطلع على نياته .

وكان يحسب أن ولده يكتفي بهذا الجواب ولم يخطر بباله أنه يعترض عليه وما كان أشد انذهاله حين سمعه يقول له :

— لما سمعت هذا الراهب يطلب موتي بالحاح لم يزد عليه لم أكن عارفاً شيئاً من مقصده وكان يجهل أني سامع حديثه ولولا ذلك لما تفوه أمامي بتلك الكلمات الغريبة .

— يا لك من غلام الم تكن مطلعاً على مقاصد كونسيني قبل أن تسمع هذا الحديث .

— نعم ولكن أية علاقة لهذا الأمر بتعمد الراهب قتلي .

— أعلم بان كونسيني وزوجته ليسا الا آلة بيد هذا الراهب

ولا ريب بانهما اطلعاه على ما تفوهت به من التهديد فسمح لهما بان يناصباك العداء ولم يتداخل بالامر الا في الساعة الملائمة .

— لعلك تكون صادقاً في ظنك .

— أني على يقين مما اقوله وقد تبدل الآن وجه المسئلة فان كلود اكراتيفا الذي كان يعمل في طي الخفاء بينما كان رجاله يأتمرون بأمره قد برز لعالم الوجود وأني أراهن بانه لم يعد في الساعة الحاضرة موجوداً في دير الكبوشيين حيث كان مختفياً ولم يعد الأمر يتعلق بكونسيني بل بهذا الرجل الذي يقضي عليه واجبه بالمحافظة على صالح طفلته فاحذر منه بعد الآن لأنه لا يترك وسيلة لاعدامك والتخلص منك .

— اظنك مازحاً يا سيدي لأني لا اظن هذا الخبيث قوياً إلى الدرجة التي توهمها لي .

— لست مازحاً يا ولدي بل إنا اكلمك بمنتهى الجد وأنت تعرف أني لست من الرجال الذين يتوهمون من أقل الاشياء مخاوفها فاسمع ما اقوله لك وصدق كلامي فهذا الراهب يحكم على الملايين والالوف من اتباعه وهم منتشرون في اربعة اقطار المعمور ويخافه الجميع حتى البابا على كرسيه والملك فوق عرشه ولست بالنسبة اليه الا كالدمية التي لا تذكر ازاء الجسم العظيم وإذا لم تحذر منه يسحقك سحقاً كما احطم هذا الكاس .

ورمى من يده الكاس فتناثرت اجزاؤها وقال جوهان ضاحكاً :

– أرى يا سيدي أن حديثك سيدخل الخوف إلى فؤادي وأنا لم أعرف الخوف من قبل .

– لست احاول تخويفك بل قصدت تفهيمك وتحذيرك من هذا العدو الذي يعتبر كونسيني ودوبرنون الحاكم الاعظم شيئاً مذكوراً بالنسبة اليه .

– كفاك مبالغة يا سيدي .

سيسعى الحاكم الأعظم بالقبض عليك ويطلق كونسيني ودوبرنون عليك ورجالهم لاغتيالك وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يعرفونها للانتقام فلا يحاولون عنها وبقليل من الحذق والمهارة يتمكن المرء من اجتناب مكائدهم والتخلص منها .

– وما الذي يستطيع عمله هذا الراهب ؟

– أن اكوافيفا لا يكرهك كرهاً خاصاً ومع ذلك فالخوف منه عظيم لأنه مثال حي للسر الذي لا يدرك بل هو الموت الذي يأتي على غرة .

– يا لي من شقي لأني اكتسبت عدوانه .

– يسرني ان أراك ضاحكاً في ساعة الخطر ولكنك إذا سرت على الطريق فجس بقدميك قبل أن تطأها إذ لربما تكون الأرض ملغومة وأنظر إلى ما خلفك لئلا ينقض عليك شيء من العلاء ويسحقك . . تطلع إلى خلفك لئلا تصيبك رصاصة وتريدك قتيلا وإذا اشتريت خبزاً فافحصه قبل أن تأكله ولا تشرب خمرة قبل أن تتحقق سلامتها وقبل أن تدخل منزلك

تأكد إذا كانت النار لم تضطرم في أحد جوانبه وانظر إلى سقف غرفتك لئلا ينقض عليك وأعمل بنصيحتي إذا كنت تود المحافظة على سلامتك ولا تريد التخلص من حياتك .

– امرك يا سيدي وأني اشكر لك هذه النصيحة واسألك أن تخبرني عن كيفة اطلاعك على الخطر الذي كان يتهدد الملك

– سأطلعك على ما تريده لعل تجني منه نفعاً .

وأخبره ما جرى له وكيف أنه تمكن بمراقبة الاخ كولار الكامل من اكتشاف هذا السر فصرخ جوهان قائلا :

– عجباً يكون هذا الراهب السكير أحد رجال اليسوعيين الذين يعملون في الخفاء ؟ . . . لقد كنت احسبه مكلفاً بمهمة سرية لدى رافالياك المسكين ولم يخطر ببالي قط هذا الامر .

– أن كولار الكامل هو أحد الرؤساء العاملين لهذه الطغمة الرهيبة وذلك يؤيد لك قولي وأني لم اكن مبالغاً بتحذيري اياك .

– شكراً لك يا سيدي لأن من يعرف مكامن الخطر يسعى جهده لاجتنابه .

– ما الذي تنوي عمله هذا اليوم ؟

– سأذهب لأرى كرنكايل واطمئن منه على سلامة برتيل ثم اذهب لمقابلة رافالياك .

– اظنك تريد اقناعه بالعودة إلى انكوليم .

– نعم يا سيدي فقد كانوا يحاولون هذا الصباح اقناعه بالرجوع إلى وطنه وفي هذا المساء سيبذلون وسعهم ليعدل عن

هذا الرأي لذلك أريد أن أكون المتقدم عليهم .

وهل تنوي النوم هذا المساء في شارع الشجرة اليابسة ؟

– اجل .

– لا بأس من نومك فيه الليلة ولكني أنصحك بان تغادر غرفتك منذ الليلة وتذهب فتنام في مغارة مونتمارتر لأنها المكان الوحيد الذي تكون فيه بمأمن على ذاتك وسأحضر في الساعة الواحدة بعد ظهر الغد لنذهب سوية إلى منزل خطيبتك.

– كيف اشكرك يا سيدي، فان الاب لا يعمل مع ابنه ما عملته معي .

ولاول مرة في حياته يشعر بتأثر يسري إلى كل جسده ولم يستطع احتمال النظرات التي سددها اليه ولده جوهان قودعه وانصرف شاكراً العناية الالهية التي أوجدت ولده بمثل هذه الاخلاق السامية .

الفصل السادس والخمسون

مراقبة جوهان الشجاع

لم يخطىء باردليان بقوله لجوهان الشجاع ان كلود اكوافيفا قد غادر دير الكبوشيين الذي كان مقيما فيه .

فانه بعد أن تحادث قليلا مع الاب يوسف فتح باب الدير وخرج منه بعد أن أنزل على وجهه قناعه .

ولم يكد يصل إلى شارع كايلون حتى ظهر أحد الرهبان من شرفة القديس روكس ونزل السلالم بخطى متعثرة ووقف في وسط الطريق متردداً بين الذهاب عن يمينه أو يساره .

ولما رأى اكوافيفا هذا الراهب ابدى اشارة سرية جاوبه عليها بمثلها وظل رئيس اليسوعيين سائراً من غير توقف حتى وصل إلى محاذاة الراهب فهمس قائلا :

– « رولي » :

ولم يكد ينطق بهذه الكلمة حتى بطل تردد الراهب فجأة وابتعد في الحال عن المدينة وقد سبق بمشيه بغلة اكوافيفا .

واجتاز اليسوعي المدينة من باب سانت هونوري إلى باب

سانت انطوان وهو يسير بتمهل حتى إذا وصل إلى ذلك الباب لكز بغلته بهمازيه فاسرعت بعدوها وبعد أن تجاوز ذلك الدير وصل إلى قرية رولى ولم يبق فيها غير عدد قليل من المنازل فوقف أمام واحد منها ودخل كأنه يدخل منزله الخاص وبعد ربع ساعة لحق به الاخ كولار الكامل فجرى بينهما حديث سري طويل قال في ختامه :

– اذهب يا ولدي ولا تنسى شيئاً ما اوصيتك به وأن هذا الشاب يجب أن يموت في أقرب وقت لأن على موته تتوقف سلامة طغمتنا .

– سيموت يا سيدي !

وفي غروب ذلك اليوم ركب اكوافيفا بغلته وعاد إلى المدينة فلما وصل إلى باب سان مرتين شاهد راهباً واقفاً بالانتظار فترجل عن بغلته وفي الحال تناول الراهب زمامها وسار وهو صامت .

وكان قناع اكوافيفا لا يزال مسدولاً على وجهه يغطي عينيه فدخل باريس قبل اقفال ابوابها بهرهة وجيزة فسار في طرق متعرجة حتى وصل إلى الجسر الخاص بدير مونتمارتر فتقدم نحو الباب وكان الليل قد ارخى سدوله فقرع الباب وفتحه له الاخ كولار الكامل الذي أخذ رئيسه إلى الطابق العلوي وادخله غرفة مفروشة فرشاً حسناً فالقى اكوافيفا نظراً دقيقاً على ما حوله وطلب من كولار أن يفحص المكان ففتح له نافذة كانت امامه فتطلع منها وقال له الراهب السكير :

– توجد من الخلف حديقة صغيرة ومن ورائها سور كثير الارتفاع ومن خلفه شارع النقود القديمة .

واقفل النافذة وفتح الباب فشاهد شبه رواق وسلماً شديد الانحدار وأمامه باب عليه قفل ضخم فقال :

– ليس لهذه الغرفة منفذ ولا يدخلها احد .

ثم ذهب إلى الحائط الكائن أمام الباب ورفع المصباح الذي كان بيده وادله على زر صغير موضوع بهارة لا مزيد عليها فضغط عليه بخفة وفي الحال ظهرت امامهما فتحة دخلاها واذا هي غرفة تشبه كل الشبه الغرفة التي كانا فيها وعلمه على طريقة فتح ذلك المكان وقفله ثم نزلا إلى قبية وكان فيها منفذ سري علمه على كيفية فتحه ودخلا بعد ذلك نفقاً واطئاً اضطر فيه اكوافيفا لأحناء رأسه كي يتمكن من المرور وبعد أن اجتازاه وصلا إلى السلم ونزلا منه وقال كولار للكامل :

– لقد وصلنا إلى الجهة الثانية من شارع النقود القديمة وفي هذا المنزل السري بؤلف زاوية المنزل تتمكن أن ترى من نافذتك كل ما يجري في الشارع فتستطيع أن تعطي من نافذتك الاشارات المتفق عليها للراهب الذي يكون ابداً واقفاً بانتظار أوامرك فينفذها في الحال بالسرعة المعهودة .

– حسناً فلنرجع إلى حيث كنا .

وبعد دقيقتين عاد الى المنزل السري فسأله كولار الكامل قائلاً ايريد سيدي أن ادله على الغرف المتحركة .

– لا لزوم لذلك فلنصعد .

www.liilas.com Ami

وجلس اكوافيفا على الكرسي الوحيدة الكائنة في الغرفة وسأل كولار الكامل قائلا :

– ما الذي جرى لرافاليك يا ولدي ؟ فقد صرنا في حاجة اليه بسبب أبن باردليان فانك بعد أن اقنعته بالعودة الى وطنه سنضطر لاستعمال الحيل كي يعدل عن عزمه فهل تتوسم النجاح في مسعاك .

أن ما استصعبته بالامر هو تمكني من جلبه الى هنا من غير تنبيه ظنونه وانا على يقين من نجاحي اذا توقفت لاحضاره معي وانا اكفل عدم سفره بمجرد دخوله هذا المنزل لأني امرت باعداد ما يلزم في الغرف المحركة التي كنت أريد أن تلقي نظرة عليها .

– وما الذي جرى يجوهان الشجاع ؟

– لقد اطلقت في اثره نفراً من رجالنا يلازمونه ليل نهار ولا يفارقونه طرفة عين وسيكونون اتبع له من ظله الى أن نحجز امرنا معه

– احرصك على سرعة العمل لأن وجوده مضر كثيراً بصالحنا

– اربما يكون انتهى امره في الساعة الحاضرة .

– ليتقبل الله طلبك وما الذي تم بمسألة الحفريات ؟

– أنها سائرة سيراً حسناً وقد اكتشفنا المذبح الوارد ذكره في التعليمات السرية وعما قليل نكتشف الزر السري ونقارب الغاية المنشودة .

– وفقك الله الى ما فيه النفع العام .

الفصل السابع والخمسون

الموت يلاحق جوهان الشجاع

بعد أن فارق جوهان الشجاع باردليان خرج من باريس من مونتارتر فمر امام منزل بيريت الحسناء ولم يتوقف ولما وصل الى قصر بورشرون لحق به كرنكايل الذي كان مختفيا هناك فسأل عن بيريت وبرتيل فطمأنه عليهما وامره أن يزيد اهتماماً مع رفيقه بالمراقبة ووعده بان يخلصهم عما قريب من هذه المهمة المتعبة .

وبعد أن ارتاح باله من هذا القبيل ذهب للتفتيش على رافاليك فقيل له من في المنزل الذي كان مقيما به أنه سافر إلى وطنه فسر لهذا الخبر وعاد إلى المدينة من باب سانت هونوري ولما وصل إلى شارع بيتسي سمع من خلفه حركة خفيفة فقفز في الحال إلى الجهة الثانية ومرت رصاصه بجانب رأسه واعقبتها رصاصة ثانية فسقط إلى الارض صريعاً وبعد أن تخبط قليلا بقي في مكانه لا يأتي حراكا وسمع في ذلك الليل البهيم صوت يقول :

– لقد قضي الأمر .

– أظن أنه قد مات .

– كيف كانت الحال يجب علينا التثبت من الامر فان الاجرة التي تقاضيناها تستحق العناء .

وكان جوهان ممدداً على الارض لا يتحرك وهو أما ميت أو مغمى عليه فاقترب منه الرجلان بتحرس وفي يد كل منهما خنجر لامع ولكنهما لم يكادا ينحنيان عليه حتى صرخ صوتاً واحداً دل على مزيد الالم .

ولم يكن جوهان قد اصيب بالرصاص ولكنه لما سمع دوي الرصاصة الثانية من فوق رأسه تظاهر بالاصابة والموت ورأى الرجلين يقتربان منه وكان قد سمع كلامهما فلما انحنيا عليه رفس كلا منهما في صدره فالقاه بعيداً عنه وهم واقفاً وقد عزم على اكراههما على الكلام .

وقبل أن يتمكنا من القيام كان قد قبض على عنق كل منهما بيد حديدية وضغط بشدة فجحظت عيونهما في ارقابهما وسألاه العفو بصوت مختنق فقال لهما :

– أني اعفو عنكما بشرط أن تخبراني باسم الذي استأجركما لقتلي .

– أمرك ولكن خفف ضغطك فقد كدت اخ ...

– تكلما ايها اللئيم فمن الذي استأجركما لقتلي .

– لست اعرفه يا مولاي .

– لقد كذبت ولئن لم تعترف بالحقيقة بتمامها فودع الحياة

– اقسم لك على خلاص نفسي الابدي اننا لسنا نعرفه .

– سمعتكما تقولان بانكما قبضتما اجرة حسنة جزاء قتلي فاذا كنتما لا تعرفان الرجل فصفاه لي .

– لم نر وجهه لأنه كان مسدلا قناعاً سميكاً على وجه غير أن ملابسه تدل على أنه راهب لأن ثيابه كانت سوداء شبه ثياب الرهبان .

– حسناً فاني اعفو عنكما أيها الشقيان فاذهبا من حيث اتيتما واياكما أن تقفا مرة ثانية في طريقي .

فانطلق الشقيان يعدوان وهما لا يصدقان نجاتهما من تلك القبضة الحديدية أما جوهان فانه دخل غرفته وقفل عليه بابها وهو امر لم يتفق له قبل الآن وارتمى على مقعد وقد استغرقته الافكار العميقة وهمس قائلاً :

– لقد بدأ عمل اكوافيفا وكان باردليان صادقاً في قوله ولسوف نرى كيف تكون العاقبة .

وفي صباح اليوم الثاني بينما هو يستعد للخروج من غرفته قرع بابها فنظر من الثقب ورأى أحد خدمة النزل الذي يقيم فيه الفارس باردليان وهو يحمل سلة كبيرة ففتح بابه وقال له الخادم بعد التحية :

لقد ارسل اليك سيدي الفارس باردليان هذه الهدية فتكرم بقبولها :

وكانت هذه الهدية عبارة عن ست زجاجات من الخمر المعتقة وبعض قطع من الحلوى الفاخرة فشكر له في سره هذا التلطف وصرف الخادم بعد أن اجازه بمكافأة مالية وأراد أن يفتح

إحدى الزجاجات ولكنه عاد عن هذه الفكرة لأنه فضل أن يشربها مع باردليان الذي وعد بأن يأتي لزيارته في الساعة الواحدة بعد ظهر ذلك اليوم .

وفي الساعة الواحدة بعد الظهر قرع الفارس باب ولده جوهان فبادر لاستقباله وشكره للهدية التي ارسلها اليه فقال له باردليان بقلق :

– لم ارسل اليك شيئاً ولعلك لم تتناول شيئاً منها .

واخذ جوهان يقص عليه ما جرى له بالامس وكيف نجا من الاعتداء عليه فقال له باردليان :

– الا تزال تعتقد أني بالغت لك لما اخبرتك ما اعرفه عن اكوافيفا .

– كلا وايم الحق فما هذا الراهب الا شيطان قذفه الجحيم

– لم تر حتى الآن إلا المقدمة فانتظر النتيجة .

– سوف نرى وائن وقع تحت يدي أعرف كيف انتقم وارتاح الارض منه .

فتبسم باردليان وأخذ زجاجات الخمر وحطمها ولم يحفظ الا واحدة منها والقى الحلوى وذهب مع جوهان إلى النزل الذي كان يقيم فيه فصادف الخادم الذي حمل لجوهان تلك الهدية فناداه وقال له :

– لقد حملت هذا الصباح هدية إلى جوهان من قبلي وهي عبارة عن ست زجاجات من الخمر فخذ واشرب من هذه الزجاجة فتناول الخادم الكأس وادناه من فمه ليشربها ولكنه قبل أن

يزدردها امره باردليان بالامتناع عن شربها لأنها خمر مسمومة فذعر المسكين ومن فرط خوفه سقط الكأس من يده وتحطمت وهمس قائلا :

– يا له من راهب شرير !

فاكتفى الفارس وولده بهذا القول وقد فهما منه ما يريدانه وذهبا توا إلى حيث كانت تقيم الآنسة برتيل وقد اتخذا كل الاحتياطات لئلا يؤاخذا غيلة .

وفي المساء عاد جوهان إلى منزله في شارع الشجرة اليابسة بناء على نصيحة باردليان ولما دخل غرفته تمدد على سريره لينام فتمطى وتثاءب وبعد أن وضع رأسه على المخدة نظر إلى السقف فقفز عن سريره إلى الارض واصغى بزيد الانتباه فسمع حركة خفيفة لا تكاد تسمع فتناول سيفه ورداءه وخرج مسرعاً من الغرفة بعد أن اطفأ مصباحه .

ولم يكد يصل الطريق حتى سمع ضجة هائلة فالتفت إلى جهة بيته وإذا بالغرفة التي كان ينام فيها قد تهدم وارتفع غبارها إلى عنان السماء فصرخ قائلا :

– حقاً أني نجوت من موت محتم وقد طال مزاحك معي يا اكوافيفا حتى بات ثقيلا فاين اقضي ليلتي يا ترى .. ليس لي الا أن أذهب واطلب ضيافة من كرنكايل .

وأخذ يسير في طريقه وهو يتوقع في كل خطوة أن يصادف ما يذهب بحياته ولكن ظنونه لم تصدق هذه المرة فوصل إلى رفاقه ونام معهم حتى شروق شمس اليوم الثاني .

وفي الساعة التاسعة ترك رفاقه ولم يكد يتخطى عتبته حتى وقعت بجانبه صخرة كبيرة كادت تسحقه سحقاً لو لم تحد عنه بضع شعرات فعاد إلى المنزل وهو يسخط ويلعن في سره ارلئك الاعداء غير المنظورين .

ولما سكنت قليلاً ثورته وحدته سأل كرنكايل قائلا :

– الست تستطيع أن تجد لي مكاناً امينا آوي اليه بضعة ايام سواء كان خارج المدينة أو داخلها .

– أن صهر مرتين وصيفة بيريت يمتلك منزلاً في قرية فيلنوف وهو يدعى سيمون الاعرج ويتمنى أن يؤجرك غرفة فيه

– أني أعهد اليك انجاز هذه المهمة .

– امرك ايها الرئيس .

ولما استراح باله من هذا القبيل ذهبا لمقابلة باردليان فركب كل منهما جوادة وسارا يتنزهان في الغابه وقد صادف باردليان على ما ارتآه ولده من وجوب تغير منزله وقال له :

– سوف ترى أن مغارة مونتمارتر خير مكان تستطيع الالتجاء اليه وتكون آمناً فيه .

وعادا إلى المدينة عند حلول الليل ثم ذهب جوهان إلى منزله الجديد الذي دله عليه كرنكايل ولما وصل اليه قرع بابه ففتحته امرأة عجوز وقالت له :

– لقد كنت بانتظارك يا سيدي بفارغ صبر فاذا احببت ادلك على الغرفة المختصة بك .

– عفواً فقد كنت أتوقع أن أرى هنا سيمون الاعراج فاين

هو الآن ؟

– لقد اسعده الحظ ببيع منزله هذا اليوم وقد خصصنا لك هذه الغرفة فاذا احتجت الى شيء اقرع الجرس ابادر مسرعة لخدمتك .

فتفقد المكان بدقة وبعد أن وطد عزمه على النوم تمدد في سريره واطبق عينيه ولهيلبث أن غط غطيطاً عالياً .

وفي منتصف الليل استيقظ مذعوراً وفتح عينيه فاذا هو في ظلام حالك وشم رائحة قوية تكاد تخنقه وشعر بوخز اليم في كل جسده وسمع من حوله دوياً شديداً كاد يصم اذنيه وكان في يقظة تامة ولكنه حسب ذاته يحلم حلماً قبيحاً فحاول النهوض من سريره ولكنه لم يستطع ذلك رغم الجهد الشديد الذي بذله .

وفي تلك اللحظة سطع نور فجائي واثار الغرفة فادرك في الحال الحقيقة الرهيبة والحلت الربط الغير منظورة التي كانت تمنعه عن الحركة وصرخ قائلا :

– النار

واتجه بصره الى النافذة فرآها قد فتحت ودخل منها الهواء فمدد الذي كاد يخنقه ونظر منها الى الاسفل فعرف الخطر الذي يلحق به اذا قفز منها ولكنه لم يكن يستطيع اضاعة وقته بالتفكير فقفز منها الى الحائط القريب من غرفته وقصد مغارة مونتمارتر وهو يناجي نفسه بقوله :

– ارى أن الحق يجانب باردليان وسأضطر رغماً على النوم في هذه المغارة .

الفصل الثامن والخمسون

اليونورا واللصوص

وفي صباح اليوم الثاني غادر المغارة عند بزوغ الفجر ولم يكن عنده ما يدعوه للتسرع ولكنه رأى ذاته قريباً من ذلك السلم المدفونة تحته تلك الكنوز الطائلة فأحب أن ينجو من التجربة .

وقبل خروجه من النفق تأكد بأن المكان خال من الرقباء فسار قاصداً المدينة وهو ينوي زيارة الفارس باردليان ولكن الساعة كانت باكرة جداً فأحب أن يضيع الوقت وأخذ يتمشى على غير هدى حتى أشرقت الشمس فسار الى النزل الذي يقيم فيه الفارس وترآه على أهبة الخروج منه فقص عليه ما جرى له بالأمس وكيف نجا من موت محتم .

وودعه الفارس بحجة أنه يريد القيام بمهمة خطيرة تستدعي غيابه كل ذلك اليوم وليلته ولم يخبره انه ذاهب للتفتيش على الأخ كمبلار الكامل الذي يؤمل الوصول بواسطته إلى اكوافيفا

وقضى جوهان الشجاع ذلك اليوم وحده حزيناً ولما أقبل

الليل اسرع نحو باب مونتمارتر من طرق متعرجة ليصل الى مخبأه بأسرع ما يمكن ولما وصل الى شارع اللحامين خيل له أنه يسمع عن بعد صوت عراك ونداء استغاثة وتصور انه يعرف صاحبة ذلك الصوت فلم يتردد بأمره وهرول نحو ذلك المكان حتى وصل الى شارع ضيق فرأى سبعة او ثمانية من اللصوص يحيطون برجل واحد وهم يقاتلونه وهو يدافع عن نفسه بمنتهى الشدة ومن خلفه امرأة كانت تصيح طالبة النجدة والمعونة وعلى مقربة منها شبح يشبه الرهبان بملابسه .

وبأسرع من لمح البصر امتشق جوهان حسامه وانقض به على اللصوص يصليهم طعناً فراكاً فسقط ثلاثة منهم صرعى وفر الباقون وقد تولاهم الذعر العظيم فأعاد جوهان سيفه الى غمده ونظر الى الرجل الذي بادر لنجدته فعرفه في الحال وضحك ضحكاً عالياً لأنه كان مربيه ساتيا .

وتقدمت المرأة التي كانت تصرخ مستنجدة ودنت من جوهان الذي كان مديراً لها ظهره وقبلها مسدول على وجهها فلما رآها ساتيا تدنو من الشاب أخذ يبدي لها اشارات سرية لم تفهمها أو لم ترها وقالت لجوهان :

– لقد انقذت حياة هذا الأب المحترم وحياتي وإذا كنا لا نستطيع مكافأتك على جميلك فلا أقل من اظهار عواطف امتناننا ونسألك ان تذكر اسم الشجاع الباسل الذي عرض حياته لانقاذنا لنذكره دائماً في صلواتنا .

www.liilas.com Ami

فالتفت جوهان الى المرأة وقال لها بصوت متهـــدج من الغضب :

- تريدين معرفة اسمي افلا ترين ساتيا يبدي لك الاشارات السرية افلا تزالين تجهلين من أنا ؟

- جوهان الشجاع !

ومن الغريب ان هذه المرأة التي اظهرت بسالة فائقة حين هاجمها اللصوص جزعت اشد الجزع لمصادفتها جوهـان غير أن تأثرها لم تطل مدته ولحظ منها جوهان هذا الأمر فقال لهـا ساخراً :

- أراك قد عرفتيني فابتعد من هنا يا ساتيا إذ يجب ان أكلم هذه السيدة ورفيقهـا المحترم ... قلت لك ان تبتعـد في الحال لأني تعلمت كل طعناتك وعرفت الصاعقة وكيفية الوقايه منها وزدت عليها معرفة كثير مـا تجهله ولا اراني في حاجـة لأخبرك اسم الشخص الذي علمني .

فزجر ساتيا من فرط خجله وحنقه وتذكر مبارزته مع باردليان فخاف خوفاً عظيماً ولم يكن خوفه ناجماً عن الموت لأنه لم يكن يرهبه بل عن العار الذي يلتحق به اذا ظفر بـه تلميذه فأطاع أمر جوهان وابتعد عنـه فتقدم من اليونورا غاليكاي وكلود اكوافيفا وقال بصوت أجش :

لقد عرفتك في الحال كما عرفت رفيقـــك المحترم أو المعظم وإذا أراد أن اذكر له اسمه فلم يبق من موجب لتكتمكما على هذين القناعين الكثيفين .

ولم يكادا يسمعان هذا القول حتى انزل كل منهما قناعه عن وجهه وقال جوهان بسكينة :

- لقد شاءت الاقدار ان اكون واسطة لتخليص حياتكما فكونا مطمئنين لأني لست من الوشاة وأظنك يا سيـــدي لم تنس انك حاولت تحريضي على قتل الملك وبذلت جهدك أكثر من مرة لتجعلني قاتلاً ولم ابقَ في قيد الحياة حتى الآن إلا رغم انفك وأما انت أيها المحترم فقد حاولت قتلي بالرصاص فلم تنجح وعمدت الى تسميمي فلم تفلح وهدمت علي منزلي فلم تنل مبتغاك ورميتني بصخرة كادت تسحقني لو لم تسعدني العناية الالهية بالخلاص منها ثم حاولت احراقي حياً فخانك الحظ فهـــل أنا صادق في قولي ؟

- نعم

- الا أكون محقاً إذا قابلت ضرركما بمثله وسحقتكما الآن تحت قدمي ؟

- بلى ولكنك لا تفعل ذلك .

- وما الذي يؤخرني عنه ؟

- أنت لأنك لا تضرب هذه السيدة لأنهـا أمرأة ضعيفـة وليس لها من معين ولا تضربني لأني عجـوز هرم صرت على ابواب القبر ومثل ذراعك القوي لا يرفع إلا على الأشداء فهل صدقت بحكمي عليك ؟

- انك تتكلم حسب هواك فأنت أيتها السيدة غنية وعظيمة السلطة وأنت رئيس لا راهب جمعية دينية ولك سلطة هائلة

يرتجف أمامها ملك فرنسا بذاته ولست بالنسبة اليك إلا هباء منثوراً لأني لا اعتمد على غير ذراعي .

– صدقت ولكن ذراعك قوي البطش وأنا الآن وحدي بلا سلاح ولا معين وليس اسهل عليك من الفتك بي ولكني قلت لك بأنك لا تقتلنا لأننا لا نستطيع الدفاع عن ذواتنا .

– صدقت فاذهبا الى حيث اردتما لأني اعفو عنكما .

– اني أقبل منك هذه النعمة شاكراً ليس لتعلقي بالحياة لأن من وصل الى عمري أيها الشاب لا يصبو لغير الراحة الابدية ولكني ارغب البقاء حياً بضع سنوات أيضاً لأتم الأعمال العظيمة التي ابتدأت بها لمجد الله العظيم .

وقالت اليونورا برباطة جأش مدهشة :

– لست انكر اساءتنا اليك ولكنك قد لاحظت ولا ريب بأن زوجي لم يعد يتعرض للاساءة اليك وسأخبره بما جرى لنا وانك انقذت حياتي فيتخذك بعد الآن صديقاً له .

وذهبت قاصدة منزلها وسار اكوافيفا مع جوهان الى المنزل السري الذي كان يقيم فيه فقرع بابه بطريقة خاصة وفتح له في الحال ولكنه لم يدخله بل خاطب جوهان قائلاً :

– لا بد لي من الاعتذار اليك لأني حسبتك بعد أن عرفتني تسعى للوشاية بي وما ارتبت بك إلا لاني لم اكن اعرفك حق المعرفة ولولا ذلك لما أتيت الاعمال التي ارتكبتها والتي أنا آسف عليها لأنها كانت بلا فائدة أما اليوم فلست اتردد بارشادك على المكان الذي اقيم فيه وانك بسببي قد تأخرت حتى هذه الساعة

التي قفلت فيها ابواب المدينة فاريد التكفير عن الضرر الذي الحقته بك من غير تعمد فقل لي من أي باب تريد دخولها ؟

– من باب مونتمارتر .

– خذ هذا الريال ومتى وصلت الى الباب الذي تريد الدخول منه استدع الضابط المأمور بالحراسة وأره اياه وقل كلمة رولي فيفتح لك الباب في الحال وتذهب الى حيث تريد وتنام في النفق الذي لجأت اليه بعد الحريقة الاخيرة .

فلم يسع إلا أن دهش من السلطة العظمى التي كان متمتعاً بها هذا الراهب الذي قال له :

– لقد انقذت حياتي أيها الشاب وهو عمل لا يذكر بمجد ذاته ولكنه عظيم في نظري لأني سأتمكن من اتمام الاعمال السامية التي بدأت بها ولا بد لي من مقابلتك على جميلك بمثله .

– لست اقبل منك عطاء وأنت غير مديون لي بشيء .

– اني على يقين بأنك لم تعمل ما عملته معي إلا اراحة لضميرك فاسمح لي ان اقتدي بك وكن على ثقة بأني منذ هذه الساعة لم اعد احاول الاعتداء على حياتك .

– شكراً لك يا سيدي المعظم .

– افقه ما اقوله لك أيها الشاب ولا تعاكسني في بعض اعمالي وإذا كنت اعدك بالامتناع عن السعي وراءك فحذار ان تقع تحت قبضتي .

– وإذا خانتني الاقدار وحصل هذا الامر فما الذي يجري لي؟

– تموت من غير شفقة ولا رحمة .

الفصل التاسع والخمسون

الرؤية المذهله

لا بد لنا من الرجوع حديثـــاً الى باردليان الذي ذهب للتفتيش على الاخ كولار الكامل الذي كان يعلم علم اليقين انه من أهم رجال اكوافيفا بل هو الرجل الوجيد من طغمـــة اليسوعيين الذي كان يعرف مقر رئيسه الاعظم .

— وبعد تفتيش دقيق رآه في حانة يتناول مسكراً فلم يعد يفارقه طرفه عين .

وادرك في الحال بحدة بصره ان للمنزل منفذاً ثانياً يؤدي الى شارع النقود القديمة فاختار حانة كانت على زاوية الشارعين وكان من مكانه يستطيع مراقبة المنفذين وطلب زجاجة خمر وجلس أمام طاولة وأخذ يتظاهر بالشرب وهو لا يفارق ما يراه ببصره .

وفي اثناء ذلك ذهب كولار الكامل من النفق إلى المنزل السري الذي يقيم فيه اكوافيفا وبعد نصف ساعة خرج من باب السجن وكانت عندئذ الساعة الحادية عشرة صباحاً .

وظل سائراً الى الامام لا يلوي على شيء حتى وصل الى

فندق حقير يدعى فندق الاهلة الخمسة ولم يكن يرتاده غير الجند والطبقة العامة من الشعب وفيه كان قد أقام رافالياك ولم يعد الى وطنه كما اخبروا بذلك جوهان الشجاع لما افتقده في فندق الحمامات الثلاث وكان كولار الكامل قادماً للتفتيش عليه .

لا يعلم أحد ما جرى بينهما من الحديث السري حتى اقنعه على المجيء معه وغاية ما نعلمه ان رافالياك كان بعد برهة يسير بجانب الاخ السكير ودخلا سوية الغرفة التي اراها الاخ كولار الى اكوافيفا وهي غرفة صغيرة للغاية ليس لها من نوافذ ولا يدخلها النور من غير الباب ولم يكن فيها من متاع غير سريرين موضوعين ازاء طاولة خشبية وكرسيين وعلى الطاولة طعـــام بسيط فأخذ رافالياك ورفيقه يتناولانه باشتهاء زائد .

أما كولار فقد اظهر نفرته من شرب الماء القراح وذهب فارتمى على أحد السريرين وطلب من رفيقه أن يقتدي به فأجابه رافالياك الى طلبه وهو يبتسم ولم تمر عليه خمس دقائق حتى أخذ يغط بنوم عميق عندئذ انتصب كولار واقفاً وأخذ يفتش بيده على المحرك الذي يفتح الباب السري وفي الحـــال ظهر راهبان قويا البنية للغاية فقبضا على النائم من رجليه وكتفيه وحملاه وكان كولار الكامل يتبعهما وهو صامت .

وبعد خمس دقائق ثانية كان الرجلان قد أقاما في غير المنزل الأول والغرفة الأولى وكانت هذه الغرفة التي كانا فيها شبيهاً لا مزيد عليه بالحجم والرياش فظل رافالياك نائماً نحو ساعة ثم استيقظ ولم يشعر بشيء من هذا التغيير وكان يشعر بثقل في

رأسه ولكنه لم يبال به فاستوى جالساً وتأمل رفيقه الذي كان يغط في نومه فهمس قائلاً :

ـ اهكذا تقام الصلاة وتصير الندامة على الخطايا ولا ريب بأن هذا الراهب رحيم على ذاته كما هو رحيم على الغير وعلى كل حال فهو حسن الطوية وسأصلي بالنيابة عنه .

وقام واقفاً فشعر بأن رجليه لا تقويان على حمله واضطر ان يستند على الطاولة لئلا يقع على الارض وشعر بحرارة قوية تحدق به وان مصدرها الحائط الذي كان أمام الباب فتناول الابريق وشرب منه جرعات كثيرة وأخذ العرق يتصبب غزيراً من جبهته فعاد الى سريره وخر جاثياً على الأرض بين السرير والطاولة وقد أدار ظهره الى الباب وأخذ يصلي ويقرع صدره ضارعاً بحرارة .

وبينما هو كذلك ارتجف فرقاً من رأسه الى اخمص قدميه فاغمض عينيه ولما فتحهما رأى ذاته وسط ظلام دامس فزادت افكاره قتاماً وهمس قائلاً :

ـ الظلام الابدي .. ظلام الموت والهلاك حيث ستسجن نفسي الشقية الى الابد فارحمني يا إلهي واشفق علي .

واغمض عينيه مرة ثانية ثم فتحهما كأنما يريد التحقق بأنه لم يكن عرضة للاوهام ولكنه تأكد لسوء الحظ بأن ما رآه كان الحقيقة التي لا ريب فيها وكان الظلام الدامس يحيط به من كل جهة وصورت له مخيلته المضطربة اشباحاً مخيفة كادت تذهب بالبقية القليلة من عقله .

وأخذت الحرارة تتزايد حتى لم تعد تحتمل وتوهم أنه يدوس على بلاط مضطرم فصرخ بوجل لا مزيد عليه .

ـ الظلام .. النار .. الجحيم .. لقد احترقت .. أني هالك . هالك لا محالة .. ارحمني يا الهي فاني لا استطيع قتله لأنه ابوها .

فتحرك كولار الكامل قليلاً على سريره وضغط بخفة على زر صغير وفي الحال ظهرت فتحة صغيرة بجانبه فانحنى عليها وهمس بعض كلمات سرية وعاد كل شيء إلى مكانه .

واشتدت حرارة المكان إلى درجة لا تطاق فشعر المسكين بان ركبتيه تحترقان وبات يعتقد الاعتقاد الوطيد أنه اصبح في الجحيم ولم يبق له مفر من النار الابدية فاخذ يبكي وينتحب وفجأة ظهر مكانه نور يعمي الابصار ولهيب مختلف الالوان فانتصب رافالياك واقفاً وقد اصفر وجهه ووقف شعر رأسه وصرخ صوتاً عظيماً كالثور المذبوح فتظاهر كولار أنه استيقظ من نومه فجأة وقال له مؤنباً :

ـ ما بالك يا جان فرانسوا تزأر كالثور ؟ الا يمكن للانسان أن ينام براحة معك ؟ وما بالك تنظر إلى هذا الحائط بوجل كأنك ترى فيه الشيطان ؟ اعمل مثلي ونم مستريحاً .

فاعاد هذا الصوت قليلاً من شجاعته ولكنه ظل يبصر النور واللهيب ويسمع الدوي الهائل الذي اقلقه فاراد أن يكذب حواسه ويتثبت من الامر فاسرع إلى سرير كولار وضغط عليه بمنتهى قوته وسأله قائلاً بصوت متهدج :

— هنا .. هنا .. الست ترى شيئاً ؟

— أرى الحائط .

— كلا بل هو نور يعمي الابصار .

— أنك لمجنون لأن الظلام حالك في هذه الغرفة .

— الست ترى النار الم تشعر باننا نكاد نحترق ؟

— أني احس بقليل من الحرارة الناشئة عن الزوبعة .

— كلا بل هي نار الجحيم وإذا كنت لا ترى شيئاً ولا تشعر بشيء فما ذلك الا لأني هالك وحدي فاني اشعر بالحريق وأرى أمامي هوة لا قرار لها وهي شبه اتون عظيم .

وكان رافاليناك صادقاً بقوله فقد ظهرت مكان الحائط حفرة عميقة للغاية وهي توازي بحجمها الغرفة التي كانا فيها وفي اسفلها اتون مضطرم فاصبح منظرها وهيباً .

وتراجع المسكين إلى الباب وأخذ ينظر إلى النار بوجل واضطراب وفي تلك اللحظة دوى الرعد القاصف فارتجف لصوته وهمس رافاليناك قائلا :

— الم تسمع هذا الصوت الرهيب ؟

— لم اسمع شيئاً لأن ما تراه ناجم عن مخيلتك المضطربة فانت حر بان لا تنام ولكن دعني استريح لأني وعدتهم بمرافقتك .

وارتمى الراهب مرة ثانية على سريره وانزل قناعه على رأسه كمن لا يريد أن يرى أو يسمع شيئاً وفي تلك اللحظة اخذت اصوات بعيدة تنادي قائلة :

— جان فرنسوا .. جان فرانسوا هل أنت هنا .

— نعم . نعم

— انظر يا جان فرانسوا واصغ لما هو معد لك لأنك جبنت عن قتل الظالم فستصبح من حزبنا وتأتي الينا .

وظهر في وسط الاتون الذي كان يتقد بلهيب احمر وأزرق وبنفسجي اشباح كثيرة تتراكض وتصرخ من فرط الالام التي كانت تعانيها واخذت كلها تتفرس به كأنها لا تصدق بحلول الساعة التي تأخذه اليها وانتصبت بين هذه الاشباح امرأة حدقت به مليا وقالت له :

— أنظر إلي يا جان فرانسوا فانا والدة برتيل التي لم تجسر بسببها على قتل الجاحد الهرطوقي الملعون لأنه ابوها فيالك من مجنون ... اعلم أني هنا وسط النيران اقاسي عذاب الجحيم بسببه لأنه هو الذي فضحني واصبح والداً لابنتي بطريقة تعجز عنها الابالسة فهل يمكن اعتبار مثل هذا الأب ؟ وهل عرفت ما أقوله يا جان فرانسوا ؟

وصمتت برهة كأنها تتوقع أن تسمع منه جواباً ثم اردفت كلامها قائلة :

— كلا لا يجب اعتباره بمثابة والد وابنتي تكرهه وتحتقره وقد كنت أؤمل أن تنتقم لنا وتأخذ بثأر جميعنا ولو فعلت ذلك لكان أنتقامك يخفف آلامنا ولكنك جبان لم تقدم على العمل بل تراجعت عنه فانا وسائر الذين ذهبنا ضحاياه نلعنك وستكون من عدادنا يا جان فرنسوا لأنك جبان .

فوقف شعر رافاليناك من فرط ذعره وصرخ قائلا :

Aml www.liilas.com

– ساقتله .. ساقتله ... أني أقسم بالله وبالعذراء باني كنت أحسب ذاتي أحسنت صنعاً بعملي ولكن بما أنه ابوها بالاثم فسيموت لا محالة !

وسمعت في تلك الساعة زمجرة قوية وغابت تلك المناظر الجهنمية وانطفأ ذلك النور الساطع الذي كاد يعمي بصره وعاد الحائط إلى مكانه الاول .

وكان رافاليك واقفاً في منتصف الغرفة فاخذ يتساءل إذا كان لم يحلم حلماً مزعجاً ولكن الحرارة الشديدة والحائط الناري اثبتا له بانه لم ير غير الحقيقة فاخذ يصلي ضارعاً إلى الله ليغفر ذنوبه ويقبل توبته .

واخذت الحرارة تتناقص تدريجياً وحلت محلها رطوبة منعشة وأنتشرت الروائح الذكية فعقبت الغرفة واستبدل جزع المسكين وخوفه بنشاط داخلي لا يوصف .

وبينما هو كذلك وصلت الى مسامعه انغام الموسيقى السماوية من بعد فرفع رأسه إلى العلاء مبهوتاً وعاودته الافكار العميقة فارتجف مرة ثانية ولكن ارتجافه كان ناجماً عن سرور .

وغاب الحائط فجأة وانار الغرفة نور اصفر ضئيل فضم يديه الى بعضهما لانه كان لا يزال يرى الهاوية أمامه ولكنها لم تكن هذه المرة مضطرمة بالنيران بل كانت مزدانة بالخضرة والزهور التي لا مثيل لها فكانت تنتشر روائحها الذكية وتعطر بها سائر الارجاء فخر جاثيا على ركبتيه وقد أخذه هذا المنظر البديع الذي يأخذ بمجامع القلوب .

وشاهد عن بعد كثير عرشاً ذهبياً عليه ذو الجلالة كما كان يراه مرسوما في الصورة المزدانة بها الكنائس وعن يمينه كرسي فارغ ومن حوله ملائكة لا يوصف جمالها يروحون ويجيئون مترنمين بالتسابيح الملائكية التي كانت تصحبها انغام موسيقية ليس اطرب منها .

وكان كل ملاك لابسا ثوبا طويلا من الحرير الناعم وفوق رأسه اكليل ذهبي مكتوب عليه اسم صاحبه وهم ينشدون تسبيحة المجد ولما انتهوا منها قال ذو الجلالة :

– اذهب يا جان فرانسوا وتم المهمة المقدسة التي نيطت بك فان مكانك محفوظ هنا .

– ساطيع ساطيع يا ربي والهي .

وصعقه الفرح الزائد فاغمى عليه ولكن اغماءه لم يطل كثيراً فانه لما عاد الى وعيه وجد ذاته في ذات المكان الذي وقع فيه على بعد خطوتين من الحائط ورأى الاخ كولار الكامل يبذل مجهوده للاعتناء به وقال له بفرح زائد وقد عاد الى وعيه

– لا يتطلب الله منا اكثر مما نقوى عليه ومن الخطأ الفادح ما نأتيه من الاعمال الجنونية التي تنهك قوانا الجسدية فضع حداً لتورعك .

– الم اكن نائما .

– كلا ولم تغمض عيناك لحظة واحدة ولو نمت لما اغمي عليك من فرط تعبك وما عانيته من الجهد في صلاتك .

الم تر ولم تسمع شيئا مما رأيته وسمعته ؟

– عجبا هل عاودتك افكارك الغريبة . .

– اذا كنت لم تر ولم تسمع مثلي فانت لست بمختار فاعلم باني عدلت بتاتا عن العودة الى وطني ولا افارق العاصمة بعد الآن الى أن يقضي الله امراً كان مفعولاً لأني اذا سافرت يقضي علي بالهلاك الابدي وهذا امر لاتريده لي ولا يسعني الا الأمتثال للاوامر التي تلقيتها .

– من الذي بلغك هذه الأوامر .

– الله جل جلاله فهل استطيع الذهاب الآن .

– ومن الذي يحجز عليك حريتك ايها الصديق ؟

– وكانت الساعة السادسة مساء لما خرج كولار الكامل من مكمنه وكان باردليان لا يزال بانتظاره وفي الحانة التي تركناه فيها فاخذ يتعقب خطواته الى أن رآه دخل حانة وطلب طعام اخذ يلتهمه بنهم لا مزيد عليه ويتجرع الخمرة التي يقدمونها له الكاس تلو الآخر فتركه هناك باردليان وعاد على أعقابه الى المنزل الذي كان يقيم فيه فتناول طعامه وتمنطق حسامه ووضع رداءه على كتفيه وخرج بقدم ثابتة وهو يناجي نفسه قائلا :

– هيا بنا الى حيث الملايين لأني متشوق لمعرفة ما يمكن أن يحدث من الأمور الجديدة التي لا تكون بالحسبان .

الفصل الستون

جوهان والكنز

لما غاب اكوافيفا عن نظر جوهان الشجاع ابتعد مسرعاً وقد اثرت عليه اللهجة التي خاطبه بها اليسوعي .

وكان قد وصل إلى باب مونتمارتر فاظهر الصحيفة التي اعطاها له اكوافيفا إلى الضابط وقال له كلمة رولي وفي الحال تقدم الضابط وفتح الباب له بذاته وهو يبدي له من ضروب الاحترام ماملأه دهشة .

وتقدم إلى النفق المؤدي إلى المغارة السرية بمزيد الانتباه والتحذر وهو يحس الارض عند كل خطوة متوقعاً مصادفة العراقيل الهائلة لم يتنهد تنهد الارتياح الا بعد وصوله إلى المغارة حيث شعر أنه اصبح في مأمن على نفسه .

ولما وصل إلى المغارة اثار مشعلا وجلس على صندوق وظل برهة طويلة مفكراً وكان قد ملاء زجاجتين من الخمر فشربهما من غير انتباه لأمره ثم قال وأخذ يتمشى ذهاباً وايابا ويمر من حين

إلى آخر أمام السلم المدفونة تحته تلك الكنوز الطائلة وكل مرة يحول نظره عنه إلى أن توقف أمامه فجأة وهمس قائلا :

ـ ما الذي يمنعني عن فعل ذلك ؟ وأي جرم أرتكبه إذا فشلت في هذا الأمر ؟

وتناول المشعل بيده ووقف أمام السلم وظل برهة لا يأتي حراكا وبعد أن تفحص ملياً الدرجة الاولى وهمس قائلا :

ـ تحت هذه الدرجة توجد الكنوز والتعليمات التي بيدي هي الصحيحة وألقى على ما حوله نظراً دقيقاً فشاهد معولاً ومجرفة ومنجلا ففحص كل واحدة من هذه الآلات ورأى الصدا يعلوها فاعادها إلى مكانها ورجع فنام على القش ولكن نومه كان متقطعاً مضطرباً ولما استيقظ في اليوم الثاني احس بثقل في راسه وخدر في سائر اعضائه ولكنه لم يترك المغارة مسرعاً كما فعل بالامس بل ظل برهة يفكر بامره ثم قام وأثار المشعل وشرع بالحفر وبينما هو كذلك وإذا بمعوله قد اصاب جسماً صلباً فنزعه من مكانه فرأى حفرة فيها تابوت من خشب السنديان فاخذ يحاول رفع غطاءه برأس المعول وإذا به توقف فجأة وجمد الدم في عروقه لأنه رأى رجلاً يراقبه وأمارات الحزن الشديد بادية على محياه فعرفه في الحال أنه الفارس باردليان وقفز من مكانه الى القبو وتطلع إلى سائر الجهات ولم ير احداً فجمجم قائلا :

ـ حقا أن ذلك لغريب !

واندفع إلى الباب السري وفتحه وتطلع الى الامام فلم ير من

كان يفتش عليه وقال لا ريب أن ما رأيته كان من الأوهام

وعاد إلى المغارة وقفل الباب وأخذ يعالج التابوت ولو رفع راسه في تلك اللحظة لابصر باردليان ينظر اليه وهو يبتسم ابتسامة التهكم .

ولم يلبث أن رفع غطاء التابوت الخشبي فرأى فيه تابوتا رصاصيا قضى في فتحه مدة طويلة فرآه مملوءاً بالنشارة ولما رفعها من مكانها رأى صندوقاً لم يستطيع تحريكه لفرط ثقله فكسر في الحال القفلين اللذين كانا على بابه وتراجع مدهوشا !

كان الصندوق مقسوما الى ثلاثة أقسام متساوية ففي القسم الاول اكداس الذهب وفي الثاني الحلى على اختلاف أنواعها واشكالها وفي الثالث الجواهر والاحجار الكريمة النادرة المثال .

ومد يده الى القسم الذي كانت فيه الاحجار الكريمة وتناول قبضة منه وكان باردليان ينظر اليه بمنتهى الحزن والاسف فانتصب واقفا وقبض على الخنجر وهو متلبس بجريمته .

الفصل الحادي والستون

سقوط جوهان في الحفرة

لا بد لنا من العودة إلى سان جوليان جاسوس اليونورا غاليكاي فقد وعدنا القراء الكرام أن نريهم اياه وهو قائم بعمله وبتنفيذ الاوامر السرية التي تلقاها من زوجة كونسيني الرهيبة .

وفي اليوم الثاني في ذات الساعة التي احب فيها جوهان الشجاع أن يتحقق وجود الكنز ذهب سان جوليان وهو مصحوب باربعة رجال اشداء مقنعين الى الطريق المؤدية للنفق وسأل رجلا كان هناك عما جرى فقال له :

ـ لقد دخل النفق ولم يخرج منه وقد اتممنا المعدات اللازمة .

ـ فليخرج متى أراد فقد صار في قبضتنا .

وابدى اشارة للاربعة الرجال الذين كانوا يصحبونه وسار معهم الى سفح الجبل وكانوا قد تلقوا تعليمات سرية فظلوا سائرين

الى أن وصلوا الى مكامن أعدوها خصيصا فاختفى كل واحد في مقره وسار سان جوليان نحو الدير ولا ريب بانهم كانوا ينتظرونه هناك اذ رغما عن الساعة الباكرة ادخلوه في الحال غرفة ماري دي بوليفار رئيسة الدير .

ولما خرج من الدير كان معه نائب الرئيسة يصحبه ستة من رجاله فتركهم في الكنيسة وذهب فاحضر عشرة من رجال اكتراهم خصيصا للغاية التي كان يتوخاها وذهب بهم الى المنزل الذي تقيم فيه بيريت وأمرهم بان يتوجلوا حراسته ولما انجز هذه المعدات كانت قد ازفت ساعة فتح ابواب المدينة .

ولما فتحت الابواب خرج كرنكايل واسكوركاس من باب مونتمارتر القريب من المنزل الذي كانوا يقيمون فيه وذهبا لحراسة الفتاتين كما كانا يفعلان كل يوم فتقدم اسكوركاس الى الباب الخلفي الذي كان يدخل منه جوهان وباردليان ولكنه قبل وصوله اليه عثرت قدمه بجذع شجرة فسقط على وجهه وقبل أن يتمكن من القيام انقض عليه اربعة رجال اشداء وباسرع من لمح البصر قيدوه ووضعوا كامة في فمه واخذوه الى قبو مظلم يجوار كنيسة الشهيد .

واصاب كرنكايل ما أصاب رفيقه فقد سقط في قبضة رجال سان جوليان الذين كانوا كامنين له فقيدوه وكموه والقوه بجانب رفيقه .

وبعد أن اتم سان جوليان هذا الخطف المزدوج أمر رجاله زيادة الانتباه في مراقبة المنزل وعاد الى مدخل النفق فصادف

الرجل الذي حادثه أولا وسأله عما جد معه فقال له :

– أنه لا يزال داخل النفق . ولم يخرج منه .

– عجبا ايكون قد فر من ايدينا .

– مهلا يا سيدي فلا بد له من الخروج .

– وهل أنت على يقين بانه لا يوجد للنفق غير هذا المخرج ؟

ليس من أحد يستطيع الحكم على هذه الانفاق السرية ولا معرفة الاماكن التي تنتهي اليها والذين اشتغلوا فيها قد ماتوا ولم يبق منهم أحد على قيد الحياة ولكني لم اسمع بان لها غير هذا المنفذ .

وقاد الرجل سان جوليان الى حفرة خبأه فيها مع الستة رجال الذين صحبهم معه ولو مر وقتئذ باردليان الذي لم تكن تخفاه خفية لما استطاع رؤيتهم .

ولنعد الآن الى جوهان الشجاع الذي تركناه قد أخذ من الصندوق حفنة من الجواهر وباردليان الذي كان مستعداً للقبض عليه وهو متلبس بجريمة السرقة .

تأمل جوهان يده بنظر مشتت وابدى اشارة كالسارق الذي يتساءل عن المكان الذي يخفي فيه سرقته ثم ابدى اشارة عنيفة وطرح ما كان بيده في الصندوق وصرخ قائلا :

– لا لست افعل هذا الامر .

وقفل جوهان الصندوق بشدة واعاد البلاطة الى مكانها وأهال عليها التراب وقال :

– أني اجهل صاحب هذه الكنوز واذا لم يكن سواي من

متعمد لسرقته فانه يستطيع الاطمئنان على ماله .

وكاد باردليان يصرخ به ويؤكد له أنه هو صاحب تلك الكنوز ولكنه رأى أن الوقت لا يسمح له بالحديث الذي لا جدوى منه وأنه يجب عليه أن يقوم بما افترضه على ذاته من العمل الهام لينقذ ولده من الخطر العظيم الذي يتوقعه فخرج مسرعا نحو المدينة وقد ارتاح باله من ولده بعد هذه التجربة الشديدة .

وجرت هذه الحادثة في الساعة التي عاد فيها سان جوليان الى النفق بعد قبضه على كرنكايل واسكركاس وكانت عندئذ الساعة السابعة من الصباح .

وبعد أن أعاد جوهان كل شيء الى مكانه تناول طعامه في القبو وبقي فيه الى الظهر فخطر بباله أن يذهب لزيارة حبيبته برتيل فسار في الظلام بتحرس ويده على قبضة سيفه وكان كلما اقترب من المنفذ يزداد اطمئنانا حتى وصل اليه فالقى على ما حوله نظراً دقيقا ولم يرما يدعوه للريب فاسرع في مشيته ولكنه لم يكد يتقدم بضع خطوات حتى فتح ذراعيه فجأة وصرخ صوتا عظيما لأن الارض خلت تحت قدميه ووقع في حفرة عميقة تشبه البئر .

واحس بشدة تلك السقطة وخيل له أن ساقيه قد دخلتا في صدره فظل برهة لا يأتي حراكا وقد استولت عليه دهشة لا توصف واصاب رأسه صخر ناتئا وسال الدم من جرحه وبعد قليل اغمى عليه وغاب عن الصواب .

Aml www.liilas.com

وكان سان جوليان ورجاله يراقبونه فخرجوا من مكانهم كالاشباح الرهيبة وتقدم الجاسوس من البئر ونظر الى داخلها وقال لرجاله .

قوموا بما يجب عليكم عمله .

وتركهم هناك وذهب الى كنيسة الشهيد حيث كان نائب رئيسة الدير ورجاله بانتظاره وسار معهم في الطريق المؤدية إلى قرية مونتمارتر .

**

الفصل الثاني والستون

بيريت وبرتيل في السجن

لندخل المنزل الذي كانت تقيم فيه بيريت الحسناء والانسة برتيل فقد كانتا جالستين تتحادثان بسرور وهما غافلتان عن حوادث الايام وغير بما تخبئه لهما الاقدار .

وبينما هما كذلك قرع الباب فحسبتا أن القارع هو جوهان الشجاع أو باردليان واسرعت الخادمة مارتين لفتحه ولكنها في الحال صرخت صوتاً عظيماً لأنها ابصرت أمامها رجلا متقدماً في العمر عليه ملابس سوداء قد دخل البيت كما لو كان منزله ومن خلفه اربعة من الحرس عليهم شعار رئيسة دير مونتمارتر وهذا الرجل هو نائب الرئيسة .

فذعرت الفتاتان لدخولهما عليهما بهذه الصفة ومن غير سابق استئذان وتقدم النائب منهما وقبعته على رأسه وقال لهما بصوت جهوري .

— باسم الكلية القداسة والعظيمة السلطة والفائقة السمو

رئيسة دير مونتمارتر اقبض عليكما ايتها الفتاتان فافعلوا واجبائكم أيها الحرس .

فتقدم الحرس بخطى متماهلة وأحاطوا بالفتاتين وكانت برتيل كما عرفهما القراء ذات جأش رابط فتخلصت من يديها التي كانت تضمها بين ذراعيها وقالت بلهجة ماؤها العظمة .

– ما الذي عملته لرئيسة الدير حتى تريدالقبض علي وما هو الذنب الذي ارتكبته ؟ حذار لنفسك ايها الرجل فانك تسيء معاملة فتاة نبيلة هي بحد ذاتها قوية وتعادل التي ذكرتها والتي تعمل باسمها فليس لي والحالة هذه من علاقة معها ولا لاحد سلطة علي غير الملك وسأشتكي امري لجلالته .

فلم يتأثر النائب لهذا التهديد وقاله لها بمنتهى السكينة

– سيصير التحقيق عن هذه النقطه متى جاء دور دعواكما أما الآن فيجب أن تتبعاني إلى سجن الدير .

– إذا أبيت اطاعتكما ؟

– لا تلومي عندئذ الا نفسك إذا استعملت العنف معك وبذلك تضاعفين جرمك .

– حسناً وأني اخضع مرغمة للقوة ولكني اؤكد لك بأني ساشكو أمري لجلالة الملك .

فهز النائب كتفيه كأنه لا يبالي بهذا الوعيد ووضعت كل من الفتاتين رداءها على منكبيها وسارتا محفورتين بهذه القوة إلى سجن الدير .

وكان كاركان قادماً في تلك الساعة ليساعد رفيقيه بحراسة

المنزل وهو يعرف كل صنف من الحرس فلما صادف هذا الجمع في طريقه رفعت إحدى السجينتين قناعها عن وجهها فتراجع مذعوراً إلى الوراء حتى مر الحرس ولم يلاحظه احد وأخذ يسير من خلفهم متعقباً اثارهم حتى وصلوا إلى سجن الدير فاعتقلوا فيه الفتاتين .

وبعد قليل خرج النائب ورجاله وساروا قاصدين الدير فاخذ سان جوليان من منطقته كيساً مفعماً بالدراهم واعطاه لرجاله صرف كلا منهم إلى شأنه وانتظر قليلا حتى تفرقوا وجاء فقرع باب السجن بدوره ودخله

وكان كاركان يتبعه كظله وبعد طول التفكير عزم على التفتيش على رفيقيه ليعلم ماذا ألم بهما من الكوارث .

ووضعت برتيل وبيرنت في احسن غرف السجن وأخذ السجان يتلو عليهما مجامد رئيسة الدير وأنها أمرت بتخصيصهما بهذه العناية التي لم تحصل لسواهما فظهرا عدم الاكتراث لهذا الامر ولكنهما كانتا مسرورتين بعدم افتراقهما عن بعضهما لأن اعتقالهما في غرفة واحدة خفف عنهما اثقال السجن وآلامه .

الفصل الثالث والستون

موت سان جوليان

وكانت الساعة الرابعة قد انقضت لما خرج سان جوليان من سجن الدير فانتظر الى الساعة السادسة وهي الساعة التي وعدته اليونورا بمقابلته فيها لأن زوجها لا يكون وقتئذ في قصره .

فذهب الجاسوس إلى الموعد المضروب وأمرت اليونورا بادخاله إلى غرفتها وابتدرته بسؤالها عما عمله فقال لها :

— لقد تم كل شيء على وفق مرامنا .

— وهل قبض على الاثنين ؟ وهل مات جوهان ؟

— نعم يا سيدتي ولكن جوهان لا يزال حياً يرزق .

— يمكنك الآن أن تخضع للاوامر التي يبلغك اياها زوجي بشأن هذين الشابين فاذهب واعلم بأني راضية عنك .

ولم يكد يصل إلى شارع أورليان حتى شعر بيد قد وضعت عليه فتراجع إلى الوراء مضطرباً ويده على قبضة حسامه ولكنه سمع صوتاً يقول له بمنتهى السكينة .

— ايه ياسان جوليان ماذا اصابك ولماذا كل هذا الاضطراب

وكان محادثه هو كونسيني بذاته الذي كان يتبسم له فقال الجاسوس متلعثما :

— عفواً يا مولاي فاني لم اعرفك وقد افوت علي هذه المباغته التي لم اكن اتوقعها .

— لا أرى مباغتتي لك تستحق هذا الجزع ومن يراك مرتجفاً يحكم عليك بانك غير مرتاح الضمير وأني ذاهب الآن إلى قصر اللوفر فهل تود مرافقتي اليه ؟

— امرك يا سيدي .

— وفي اثناء الطريق تقص علي ما عرفته وتطلعني على ما اعددته لحملة الغد لأن صبري قد فرغ ولم أعد استطيع الانتظار ويجب أن يكون الشقي وحبيبته في قبضتي يوم غد .

— أنت الذي أمرتني بتأجيل العمل إلى الغد .

— صدقت فان فروغ الصبر قد ذهب بعقلي .

— أني بدأت اليوم في العمل وقد قبضت على الشقيين اللذين يحرسان منزل الفتاة ولا اتركهما الا مساء الغد بعد أن أكون قد انجزت كل ما هو مطلوب مني .

— كنت أعتقد أن رفاق جوهان كانوا ثلاثة .

— نعم يا سيدي ولكن ثالثهم كان ثائما لما قبضت على رفيقيه فلم أر من الصواب أن اذهب وامسكه في منزله خصوصا وأني رأيت الانسب تركه وشأنه حذراً من أن يسعى جوهان للتفتيش على غير هؤلاء الرفاق إذا لم ير أحداً منهم .

— صدقت وأحسنت .

وترك ذراع سان جوليان وأخذ يمشي أمامه وقد أخرج من وسطه خنجراً صغيراً أخذ ينظف به اظافره بينما كان رفيقه يشرح له ما عمله قائلاً :

— لقد استأجرت عشرة من الرجال الذين اعرفهم وأثق بهم كل الثقة واحتطنا بالمنزل وقبضنا على الفتاة وسيأخذها رجالك إلى حيث تريد ونبقى نحاصرين المنزل إلى أن يأتي الشقي لزيارة حبيبته فنقبض عليه بكل سهولة .

ولما وصلا الى شارع سان توما رفع كونسيني الخنجر بيده وهوى به على صدر سان جوليان بطعنة قاتلة صرعته ولم يتلفظ بكلمة شكوى فاقترب منه وقال له :

— لم تمت بعد يا سان جوليان وأنك سامع ما أقوله لك فقد اتفقت معها على خيانتي وأخذت بمقتبل الى السجن الخاص بدير مونتمارتر حتى إذا ذهبت غداً الى المنزل أراه خاليا ممن فيه فانصرف الى يأسي ولكني وقفت على خيانتك وهذا جزاء الخونة عندي فمت هنا ككلب أكلب .

الفصل الرابع والستون

ورقة التصريح بدخول السجن

ولم يذهب كونسيني الى اللوفر بل ذهب وقرع باب المنزل الواقع في شارع الكتاب بطريقة خاصة ففتحه له الاخ كولار الكامل وقال له بان كلود اكوافيفا متغيب في تلك الساعة وجرى بينهما حديث طويل خرج بعده الايطالي من ذلك المنزل مسروراً .

وخرج الاخ كولار بدوره من المنزل ومر من أمام السجن وسار نحو باب سان دنيس وإذا ببارديلان قد تعقب خطواته وبينما هو كذلك رأى ورقة كبيرة ملقاة على الارض فالتقطها ووضعها في جيبه ولما وصل إلى غرفته في النزل فتحها وقرأ فيها ما يلي :

« امر من رئيسة دير مونتمارتر بان يسمح لحامل هذه الورقة بدخول سجنها متى أراد وأن يطاع بكل ما يامر به » .

فسر بارديلان سروراً عظيما من هذه اللقيا وهي الورقة التي كان يحملها سان جوليان ودخل بموجبها السجن وتحادث مع

مديرة الدير وسنخبر القراء بكيفية وجودها على قارعة الطريق حين نعود في حديثنا إلى سان جوليان الذي تركناه على وشك الموت .

ولما ابتعد كونسيني تقدم رجل كان يتبعهما منذ شارع أورليان وانحنى على سان جوليان وفحص جرحه بدقة وتمتم قائلا

— طعنة نجلاء وأيم الحق ولست اطلب الا أن يبقى حياً ساعة واحدة لاقناع السيدة .

واحتمله بين ذراعيه كما لو كان يحمل طفلا وفي أثناء الطريق سقطت الورقة التي كانت في وسط سان جوليان ووقعت في المكان الذي رآه قبه باردليان .

ودخل ساتيا غرفة اليونورا ووضع الجريح بلطف على مقعد فلما عرفته اليونورا التي سألت ساتيا قائلة :

— هل مات .

— كلا يا سيدتي فهو لا يزال في قيد الحياة .

— من الذي جرحه ؟

— لست أدري !

— يجب أن أعرف ذلك .

وأخذ بيندلان للجريح كل عناية حتى فتح عينيه فسألته اليونورا باهتمام عن الذي جرى فاخبرها بانه زوجها كونسيني ولم يعد يقوى على الكلام فاسلم الروح .

وقرعت جرساً كان على مقربة منها وأمرت الخادم بان يحمل الجثة ويلقيه في مكان بعيد عن القصر وخاطبت ساتيا قائلة :

— أتعتقد أننا بارسالنا الفتاة إلى بيت منفرد نصيب بحجر واحد هدفين ونتخلص في وقت واحد من جوهان والملك !

— نعم يا سيدتي .

وأخذ يشرح لها الخطة التي رسمها في فكره وعول على العمل بمقتضاها ولما انتهى من حديثه قالت له :

— أظنك مصيباً في رأيك فعد إلى هنا في الساعة العاشرة من صباح غد أبلغك تعليماتي بهذا الشأن .

Amal www.liilas.com

الفصل الخامس والستون

تعذيب جوهان وبرتيل

ولنعد في حديثنا إلى جوهان الشجاع فقد عرفنا أنه جرح في رأسه جرحاً طفيفاً واغمى عليه فجردوه من سلاحه ونقلوه وهو فاقد الرشد الى سجن الراهبات ومنه الى المنزل السري الذي كان يقيم فيه كلود اكوانيفا .

ولما عاد إلى رشده راى ذاته محاطاً في ظلام دامس فظل برهة لا يحسر على الحركة وقد شعر بتحطيم جسمه وانتهاك قواه واخذت الذاكرة تعود اليه تدريجاً .

وقام من مكانه لأنة أحس بالارض تحته تنقد كالنار وأخذ يقفز بخطى واسعة على أمل أن يخفف حرارة الجمر التي كانت تلسعه في رجليه وتحقق أن المكان قرب الباب أخف حرارة من سواه .

ثم خيل له أنه يرى عن بعد حبيبته برتيل تظهر وتغيب عن المكان الذي هي فيه ثم رأى كونسيني وشاهدهما سوية في مكان لم يعرفه فجمد في مكانه وقد كاد يجن لهذا المنظر الرهيب

وغاب الحائط فجأة وظهر بدلاً منه نور محمر كانه صادر من هوة نارية وشاهد خلف ذلك النور بكل وضوح غرفة صغيرة فيها طاولة خشبية وكرسي وسرير والمحنى إلى اليسرى فابصر كانها تراقب حركات عدو غير منظور وهي واقفة بجانب السرير . وكونسيني يخاطبها بتهكم ظاهر :

— لم تكوني تتوقعين مقابلتي بعد أن حسبت ذاتك قد تخلصت مني بتاتاً فها قد وقعت في الشرك الذي نصبته لك وهيهات تستطيعين الافلات من يدي بعد الآن . ولكن هل تريدين أن أخبرك أين هو الشقي الذي تحبينه . أنه موجود في قبر حميت حرارته إلى درجة البياض وليس ذلك فقط بل هو موجود في مكان بعيد تفصله عنا هاوية من نار ومع ذلك فهو يرانا ويسمع اقوالنا . . فهل تعرفين ما الذي نويت عمله ؟ ساخذك عنوه أو برضاك ويرى حبيبك اذلالك بعينيه ولا يقوى على نصرتك بل يقاسي عذاب الموت إلى أن تذهب روحه الشقية إلى سقر وبئس المقر فما رأيك بهذه المكيدة التي انتجتها فكرتي الوقادة ؟ وهل تشهدين لي بحسن الانتقام ؟

وشعر جوهان حين سماعه هذه الكلمات بان الدم يحمد في عروقه والقى على ما حوله نظراً مشتتاً وأخذ يمزق صدره بأظافره ويزمجر قائلاً :

ليس هذا الانتقام . . . ليس هذا الانتقام . . . أنه لفظيع ورهيب . . اسألك العفو عنها . . برتيل . . برتيل . . رباه كيف العمل لانقاذها من هذا الشيطان الذي يريد اذلالها .

ورآه جوهان يتقدم نحوها ورأته برتيل يدنو منها فتراجعت إلى الوراء ولما لم يعد لها مهرب منه قبضت بيديها النحيلتين على الكرسي ورفعتها فوق رأسها واهوت بها على رأس كونسيني الذي كان يراقبها فخطف منها الكرسي ووضع يده الثقيلة على كتفها وقال لها ضاحكاً :

– لا تنسي بانه يرانا وأنك صرت لي .

فصرخت برتيل صوتاً عظيماً كمن لسعتها افعى وقالت :

– إلي يا جوهان . ! إلي يا جوهان .

وسمع جوهان هذا النداء فصرخ قائلا :

– هأنذا ايتها الحبيبه .

ونسي موقفه الرهيب فقفز إلى الامام ولكنه لم يعد يرى الا هوة عظيمة من النار لا يمكن تجاوزهـا فتوقف عند حافتها بمعجزة الهية وتقلب عليه حب الحياة فتراجع الى الوراء مذعوراً والتصق مرة ثانية بالباب وتطلع منه فخر جاثياً على ركبتيه وصرخ قائلا :

– مجداً لله فقد نجوت .

الفصل السادس والستون

برتيل في قبضة الملكة

وكان جوهان لا يزال جاثياً على الصحيفة المعدنية التي لم يعد يشعر بحرارتها واليك ما راه ولم نذكر للقراء بعد :

ولما وضع كونسيني يده على كتف برتيل فتح الباب فجأة ودخلت منه امرأتان وكانت ملامح احداهما تدل على السكينة وهي اليونورا غالبكاي زوجة كونسيني والثانية تدل هيئتها على العظمة وقد سدلت قناعاً من المخمل الاسود على وجهها .

ولما رأى كونسيني هاتين المرأتين توقف فجأة ولم يكن قد رأى في بداية الأمر غير زوجته فتقدم نحوهـا بخطى ثابتة وعيناه تتقدان كالجمر وقد وضع يده على قبضة خنجره ورأت هيئة زوجها التهديدية وأن حياتهـا متوقفة على التقارير ومع ذلك ظلت ثابتة في مكانهـا ولم يبد عليها شيء من أمارات الجزع .

ولما رفع كونسيني يده بخنجره ليطعن بـه زوجته رأى المرأة الثانية فعرفها رغماً عـن القناع السميك المسدول على

وجهها فتراجع الى الوراء مذعوراً وقد شابه الاموات بلونه وأنحنى الى الارض باحترام لا مزيد عليه .

وكانت عينا المرأة الثانية ترسلان من تحت قناعها اشعة غريبة من الحنو وأبدت بيدها اشارة تحبب الى كونسيني فانتصب واقفاً وقالت اليونورا بسكينة مدهشة :

– رباه . . رباه ... أن هذا عار يشق عليّ احتماله .

فصادقت المرأة المقنعة باشارة من رأسها على قول اليونورا وخاطبت برتيل التي كانت واقفة في مكانها منتصبة القامة بشجاعة زائدة وقالت لها :

تعالي ايتها الانسة وستكونين معي في مأمن على ذاتك .

– سأتمسك الى حيث تريدين يا سيدتي على أن أكون بعيدة عن هذا المكان الجهنمي وهذا النتن اللئيم .

– ما معنى قولك أيتها الانسة ؟

فتداخلت اليونورا بالامر وسبقتها بالجواب قائلة :

– تذكري ماقلته لك يا سيدتي فهذا هو العار الذي كان كونسيني معرطاً له ذاته وهذا ما أرادت بيانه هذه الانسة .

– صدقت يا سيدتي وأني أشكر لكما مداخلتكما لانكما خلصتماني من أعظم المصائب .

ولم تنتظر المرأة المقنعة جواباً فطلبت من برتيل أن تتبعها وأبدت برأسها اشارة الى كونسيني وزوجته فانحنيا أمامها وخرجت من الغرفة تتبعها برتيل .

وظلت اليونورا برهة واقفة قرب الباب المقفل ولما تأكدت ابتعاد المرأة المقنعة قالت لزوجها .

كن مرتاح البال يا كونسيني فان الملكة لم تطلع على شيء وهي تحسب أن الملك مغرم بهذه الفتاة وأنه يحبها حباً يقارب العبادة فحركت في فؤادها عوامل الغيرة وأثرت مخاوفها واكدت لها بانها اشد خطراً من مدام دي فورنيل وحسبت أنها تسيء إلى الملك بخطفه حبيبته فهل فهمت مقصدي ؟

ولم تكن الامرأة المقنعة غير الملكة فلما ابتعدت عن الغرفة التي كان فيها شعر بغضب زائد يستولي عليه وبدت على وجهه أمارات التهديد الرهيب فقبض على خنجره بيده وزمجر قائلاً :

– وأنت التي أتيت بها في الساعة التي . . .

– نعم أنا التي جئت بها لخلاصك يا زوجي المحبوب فاعد خنجرك في غمده ولا تدع غرامك يستولي عليك وأعلم بأني لم اخطف هذه الفتاة الا لأننا لا نستطيع الاستغناء عنها في نجاح مسعانا الذي تصبح به سيداً على هذه المملكة .. لا تصرف اسنانك بغضب لأنك قد بدأت تفهم قولي وأن الساعة قد اقتربت فلا تدع هذه الفرصة الثمينة تفلت من يدك لئلا ترمى بالجنون فالاقداح تساعدك مساعدة لا مثل لها والملكة بذاتها تهيء لك سبل غرامك على غير علم منها ولست تحتاج الا إلى القليل من الجرأة والفطنة فتصبح الحاكم المطلق .

وأن هذه الفتاة ستسير على طريق رولي لتقيم في القصر الذي كان ملكاً للملك فيما مضى واصبح الآن في حوزة كلود اكواقيفا

وقبل ظهر اليوم يزهب لاجابة دعوة ابنته ويسارع لنجدتها وبما أن جوهان الشجاع غير موجود هذه المرة لانقاذه من الموت المحتم فيعودون به قتيلاً إلى قصر اللوفر وعنـــد الظهر تبتدىء ساعة ملكك السعيد فهل ادركت الآن السبب الذي دعاني لخطف هذه الفتاة ؟

نعم .. نعم .. ولكن هل أنت واثقة من النجاح ؟

– لقد اتخذنا كل التحويطات اللازمة وأني أؤكد لك موته هذه المرة فهو لا ينجو من ايدينا ومـــتى ضربت السيد المطلق تصبح ابنته في حوزتك أني أحبك إلى درجة اغتفر لك فيها هذه التسلية وناجت نفسها بقولها :

– ولكنك لا تجدها الا جثة هامدة .

هذا ما راه وسمعه جوهان الشجاع الذي كان ملصقاً على الصفيحة المحترقة فقد تأكد نجاة برتيل ولكن خلاصها لم يكن إلى عهد طويـــل ففي اليوم الثاني يعود الوحش فيقبض على فريسته ولا يعود بامكان أحد تخليصها من مخالبه .

وعاد الحائط إلى مكانه الاول وساد الظلام مرة ثانية على غرفته وانتشرت الحرارة إلى كل الصحيفة المعدنية ولم يبقى له الا قسم صغير للغاية يستطيع الوقوف عليه بكل صعوبة .

وبينما هو كذلك شعر بأن الحائـط الذي كان مستنداً عليه يفور من خلفه فالتفت إلى ورائه ورأى خرقاً فيه يظهر منه نور اصفر فلم يتردد في امره ودخل في الخرق وفي الحال قفل الحائط عليه .

وكان هذا السجن مدوراً وهو يشبه بئراً عظيمة الحجم وكان سقفه وأرضه وجدرانه من قطعة معدنية واحدة صقيلة تلمع تشبه المرآة ولم يكن فيه باب ولا نوافذ ولا امتعة .

ولم يمض بضع دقائق الا ورأى كرة هائلة قـد سقطت في ارض الغرفة وأتجهت نحوه فاخذ يركض بمنتهى قوته وهو كلما ازداد سرعة في عدوه تقتدي به الكره .

عندئذ بدأت تلك المطاردة الجهنمية الـــتي لا تخطر ببال الانالسة لأن تلك الكره كانت تدور حينما دار جوهان ولا تترك له لحظة واحدة للاستراحة فاخذ يلهث من فرط تعبه واعيائه وشعر بخوار في عزيمته ورأى الخطر يدنو منه سريعاً .

الفصل السابع والتسعون

اقتحام سجن الدير

وعاد كاركان إلى منزل بيريت الحسناء وقرع طويلا بابه فلم يفتح له احد فذهب واستعار سلما وتسلق بواسطته سور الحديقة ودخل المنزل فرأى الخادمة مارتين مختبئة تحت السرير من فرط خوفها

وذهب عدة مسرات إلى حيث كان يقيم رفيقاه اسكوركاس وكرنكايل لمراقبة المنزل ولكنه لم يراهما ولما يئس من مقابلتهما عاد إلى المدينة وأخذ يطرق الاماكن التي يترددان اليها ولكن مجهوده ظل عقيما وذهبت اتعابه أدراج الرياح .

وعاود في اليوم الثاني تفتيشه ولكنه لم يتوصل للاهتداء إلى مقر رئيسه جوهان ورفيقيه حتى كاد يقنط من الاهتداء اليهم غير أنه صادف في الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم رفيقيه في شارع مونتارنر فكاد يجن من فرحه باجتماعه معهما .

وسارا سويه إلى منزل بيريت الحسناء فاخبرتهم مارتين كيفية القبض عليها وعلى الآنسة برتيل فقال لها كرنكايل :

– اذهبا إلى سجن الدير وراقباه إلى حين عودتي أما أنا فذاهب إلى مغارة مونتمارتر لعلي أرى رئيسنا فيها .

وأسرع نحوها ولكنه رأى عند مغارتها البئر المفتوحة فدهش لرؤيتها لأنه لم يكن عارفاً بوجودها وخطرت بباله فكرة فجائية ارتاح لها وهي أنه اعتقد سقوط رئيسه جوهان في هذه البئر .

وذهب تواً إلى المحطة المجاورة وأعطى عاملين من عمالها ريالا فرنكا على مساعدته فيما أراد واحضروا معهما حبالا طويلة تتدلى بواسطتها إلى البئر فوجد فيها سيف رئيسه وخنجره وبهازيه فتأكد صدق فكرته .

وأخذ الاشياء التي عثر عليها في البئر وعاد إلى المغارة فوضعها جانباً وذهب تواً إلى صندوق الاسلحة فاختار منه احسنها وذهب لمقابلة رفيقيه اللذين كانا ينتظراه في المكان الذي أرسلهما اليه وساروا سوية وباعوا تلك الاسلحة .

وقضوا ليلهم وهم يطوفون الضواحي ويتبادلون الافكار

ولما عادوا إلى مقرهم لم يبق معهم شيء من ثمن الاسلحة التي باعوها وكانت علائم السرور بادية على وجوههم وفي الساعة التاسعة في اليوم الثاني ذهبوا الى سجن الدير وكان معهم خمسة عشر رجلا من الرجال الاشداء استأجروهم لفتح باب السجن ودخلوه عنوة .

وكان باردليان لا يزال يتعقب كولار الكامل بقية الاهتداء

Aml www.liilas.com

بواسطته الى مقر اكوافيفا فلما ابصره لم يعد يفارقه ورآه داخل السجن ثم شاهده خرج من شارع الكتاب فلم يبق عنده شك بصدق فراسته .

وظل سحابه يومه يتعقب هذا الراهب بصبر عجيب فكان يروح ويجيء في المدينة من طرق مختلفة ولكنه يعود دائماً إلى شارع الهومبري وإذا دخل من باب السجن يخرج من شارع الكتاب وإذا دخل من هذا الشارع يخرج من باب السجن فلم يبق عنده ريب بوجود اكوافيفا في ذلك المكان .

وذهب لتفقد السجن بذاته فجلب انتباهه عن قرب ذلك البيت الصغير الواقع على مقربة منه فأخذ يسأل عنه الجيران وعرف منه أنه مهجور وأن بابه لا يفتح قط ونوافذه تظل مقفلة فاكتفى بما سمعه .

وفي اليوم الثاني عزم على الذهاب الى السجن لعله يهتدي الى الطريقة الحسنة بمباغته اكوافيفا فرأى مهاجمه يحملون جسراً كبيراً يريدون تحطيم باب السجن بواسطته فتقدم الى الأمام وعرفه كرتكايل فاسرع اليه وقال له :

– لقد أرسلتك السماء يا سيدي باردليان لتنصحنا بما يجب عمله . وقصوا عليه باختصار وصراحة ما كانوا يعرفونه فلما سمع باردليان باختفاء ابنه زمجر قائلا :

– علي أن لا أكون وصلت متأخراً . وأمر بطرح ذلك الجسر العظيم وأن يتبعه ثمانية رجال ويظل الباقون في انتظاره

وأخذ الثمانية الرجال إلى شارع الكتاب وقد قلنا أن للمنزل منفذاً ثانياً من طريق النقود القديمة فاقام اربعة على كل باب وقال لهم :

– إذا أراد أحد الدخول فاسمحوا له وامنعوا أياً كان من الخروج .

وعاد إلى السجن فاقام السبعة الباقين أمام باب المنزل السري وأمر كازكان وكرنكايل واسكركاس باتباعه وذهب إلى الباب فطرقه بالطريقة التي كان يفعلها كولار الكامل ففتح الباب في الحال وتنهد تنهد الارتياح لأنه كان يخشى عدم فتحه ودخل مع رفاقه إلى حيث كان مدير السجن فاراه الأمر الذي لقيه في الطريق فقبله المدير باحترام وسأله عما يأمر به فقال له :

– لقد احضروا اليك أول من أمس بامر رئيسة الدير فتاتين

– نعم يا سيدي .

– وجاؤا أيضاً بشاب جريح أو قتيل .

– بل كان مغمياً عليه يا مولاي .

– يجب أن تذهب بي إلى حيث الفتاتين .

– بستحيل علي يا سيدي تنفيذ هذا الأمر .

– أظنك تحسن القراءة فهذا أمر من الرئيسة المحترمة .

– لست اعصى أوامر امنا المقدسة ومعاذا الله أن ارتكب هذه الجريمة ولكن السجينتين ليست هنا أو بالحري قد ذهبت واحدة منهما والثانية باقية .

– خذني اليها في الحال .

– أمرك يا سيدي .

وصعدوا إلى الدور الثالث وفتح السجان باب السجن فأمره باردليان بالوقوف في آخر الرواق لأن حديثه مع السجينة يجب أن يكون سريا وأشار بعينيه إلى الرفاق لكي يراقبوه بدقة اثناء غيابه .

ودخل باردليان الغرفة التي كانت مسجونة فيها بيريت الحسناء وبعد عشر دقائق خرج الفارس مع السجينة .

الفصل الثامن والستون

السم لبرتيل

بينما كان باردليان يخلص بيريت الحسناء من سجنها كان اكوافيفا جالساً قرب النافذة المفتوحة .

وكان يتحادث مع كولار الكامل الذي كان واقفاً أمامه باحترام وكان هذا الحديث بغاية الاختصار أو هو عبارة عن سؤال وجواب فسأل اكوافيفا .

– رافاليك ؟

– في الطريق .

– وكيف أنذر بالأمر ؟

– سمع حديثاً من الجند لم يشترك به .

– حسناً والملك ؟

– تلقى الكتاب وأصدر أوامره وهو سيسافر لا محالة .

– من الذي سلمه الكتاب ؟

العجوز كولنيكل وهي ترجو مكافأة حسنة .

والحاكم الأعظم ؟

– لم أهتم به لأن ساتيا قد تكلف بهذه المهمة لحسابه الخاص

– وكونسيني ؟

– هو ايضاً أتخذ احتياطاته ليكون في المكان المعلوم وقت الظهر وقد زاد عشقه للفتاة .

– هل هو صادق بحبها ؟

– أنه يكره جوهان الشجاع فوق كل شيء .

فقام اكوافيفا يتمشى في الغرفة ذهاباً وايباباً وهـو يفكر بالامر ويناجي نفسه بقوله :

– أن كونسيني رجل أحمق فهو يريد اعادة الحرية لجوهان الشجاع كي يرسله إلى رولى وقد نسي أن أبن باردليان مثل ابيه غريب الطباع وليس كسائر البشر ومتى توفق المرء إلى القبض على واحد من هذه الفئة يجب سحقه في الحال ولو أمهله دقيقة واحدة تكون هذه الدقيقة كافية لخلاصه ... لا ... بعد أن قبضت على جوهان لمضايقته اياي فلا يبلغ بي الجنون إلى درجه لفركه واطلق سراحه وخاطب كولار قائلا :

– يجب أن يموت هذا الشاب قبل ساعة فاعمل مـا هـو متوجب عليك في الحال .

– لقد ذكرتني يا سيدي بان كونسيني اصدر أوامره وأنا نسيت ابطالها .

– اتعني بذلك أنهم اطلقوا سراح جوهان ؟

– كلا يا مـولاي ولكني اخشي أن يكونوا اخـذوه إلى الغرفة المتحركة .

– ليس من موجب لهـذا العذاب الفارغ فـاذهب واوقف هذا التعذيب إذا كان لم يفت الوقت .

– أمرك يا سيدي .

واسرع إلى الباب وفتحه ولكنه توقف مذعوراً لأنه رأى باردليان منتصباً أمامه وقد اكرهه للرجوع إلى الغرفة .

خرج باردليان من سجن بيريت وهو ممسك بذراعي بيريت وقال للسجان بلهجة الأمر .

– خذنا إلى الطابق الثاني .

فاطاع السجان هذا الامر من غير اعتراض وفتح له بـاب الغرفـة التي سجنت فيها برتيل وبيريت في الليلة الأولى وسأل باردليان رفيقته همساً .

– أي الأسيرين يا ابنتي .

فدلته على السرير الذي عرفته في الحـال وتقدم كلاهما إلى الحائـط وأخـذ باردليان يجسه بأصابعه بمنتهى التدقيق حـتى عرف ما كان يريده فعاد إلى الباب وفتحه وادخـل الرفـاق الثلاث وقال للسجان :

– اجيز لك قفل الباب والانصراف فلم أعد في حاجة اليك

ولما أقفل الباب وابتعد الحارس تقدم باردليان إلى الحائط وضغط على زر صغير ففتح باب صغير دخلوه واجتازوا رواقاً ضيقاً حتى انتهوا إلى باب الغرفة التي كان اكوافيفا فيها يحادث كـولار فتقدم اليه باردليان واصغى باهتمام إلى الحديث الذي كان يسمعه ولما فتح كولار الكامل رأى باردليان واقف أمامه

وهو كتمثال حي للانتقام الرهيب .

وكان اكوافيفا يتمشى بتمهل في غرفته فرأى هذا الغريب وابصر ملامح كولار منقلبة فادرك ما جرى وأنه قد حدثت أمور ذات بال أوجبت رجوعه الفجائي فلم يفقد سكينته بل اسرع نحو النافذة .

وكان باردليان قد لاحظ هذه النافذة المفتوحة وابصر راهباً واقفاً في زاوية شارع النقود القديمة فسبق اكوافيفا واقفلها وارخى ستارها .

وأراد اكوافيفا التظاهر بالسكينة فسأل باردليان برباطة جأش قائلاً :

— ما معنى هذا العنف يا سيدي مع راهب لم يسيء إلى أحد ومتى كانوا يدخلون المنازل بهذه الصفة .

— اعلم يا سيدي باني ادعى الفارس باردليان واريد منك أن تقودني في الحال إلى حيث يقاسي جوهان الشجاع عذابكم السري فسر أمامي لأن الدقائق ثمينة .

فرفع اكوافيفا رأسه ونظر إلى باردليان بثبات وقال له بمنتهى السكينة .

— أنك الفارس باردليان وانا أمتنع عن الامتثال لطلبك العنيف وبشوقني أن أعرف إذا كان باردليان الشجاع المضروب المثل ببسالته وشهامته يجسر على قتل عجوز ضعيف مثلي .

فادرك باردليان مقصد اليسوعي المحتال ولم يقع في الشرك الذي نصبه له وابدى اشارة إلى الرفاق الثلاثة فقبضوا على

كولار الكاهل وقبض باردليان على اكوافيفا وجره إلى السلم وقال له بلهجة تشف عن الغضب الذي لا يوصف .

— أن الشجاع الذي ذكره لا يتدانى لقتل رجل عجوز ضعيف مثلك ولكنني أنذرك منذ الآن بما أريد عمله فاذا كنت لا تصغي إلى طلبي وتعمل ما أقوله لك وقتل ولدي جوهان بسبب عنادكم فاقسم بالله على صدق قولي يا اكوافيفا أني أقودك ورفيقك إلى اللوفر وأقول للملك « هذا هو يا جلالة الملك اكوافيفا رئيس اليسوعيين وناثبه كولار الكاهل وهما اللذان يعملان سراً على قتلك وهما اللذان سلحا المتعصب رافالياك لقتل جلالتك » عندئذ يأمر بقتلكما وقطع رأسيكما .. أني على يقين من شجاعتك وأنك لا تبالي بالموت غير أن الطغمة التي أنت رئيسها يقضى على أمالها الواسعة التي وضعتها قريحتك الجهنمية فهل فهمت مـــا الذي أقوي عليه يا سيدي إذا لم تطاوعني .

فادرك اكوافيفا أن باردليان ينفذ وعيده بالحرف الواحد إذا لم يلب أوامره فقال لكولار الكاهل .

— خذنا أيها الاخ المحترم إلى حيث ابن باردليان .

ونزلوا إلى القبو فاخذ الراهب يفتح ابواباً غير منظورة ودخلوا رواقاً ضيقاً وكانوا كلما تقدموا في سيرهم يسمعون دوياً كدوي الرعد القاصف وصدمات شديدة وتجف لهولها الجدران وضجيجاً يصم الاذان يتقطعه صراخ اليأس وقبض الراهب بيده على عتلة كبيرة واهوى بها بمنتهى قوته واسرع إلى زر

ضغط عليه فظهر باب اسرع اليه باردليان ورفاقه كالبرق الخاطف .

وكان هناك جوهان الشجاع يركض كالمجانين لينجو من الكرة الحديدية التي كانت تندفع إلى الامام بقوة سرية مهددة اياه بسحقه إذا لم يفر من طريقها .

ولم يرى جوهان اباه ورفاقه الذين كانوا ينظرون اليه بوجل لا مزيد عليه وظل يركض بمنتهى سرعته حاسباً أن الكرة الحديدية لا تزال تتهدده وأن الأرض لا تزال تتحرك تحت قدميه لأنه لم يشعر بانها اصبحت ثابتة .

وللحال امتدت اليه اربعة اذرع قوية وخطفته اثناء ركضه وحملته بعطف وقد اغمى عليه .

ولم يطل اغماء جوهان الشجاع ففتح عينيه وتنهد تنهداً قوياً فقال اكوافيفا .

— حمداً لله فقد نجا .

وادرك باردليان ما في هذه الكلمات من المفاخر فاحنى أمام اليسوعي وقال له :

— لست أريد أن اتذكر الا امراً واحداً هو أن لا دخل لك بالعذاب الذي عاناه جوهان لذلك فانا اعفو عنك وأني انصحك نصيحة خالصة بان تعدل عن السعي في الاستيلاء على كوزه لأني اضمن لك عدم نجاحك وخيرلك أن تعود الى وطنك ولقد اكفل لك صمتي وكتماني أمرك ولكني لا اكفل صبري .

— سأعمل بمقتضى نصيحتك .

وخرج صامتاً فنظر جوهان إلى ما حوله كانه يفتش على شيء فقده فرأى باردليان منحنياً فوقه وبيريت تذرف دموع الشكر لخلاصه وبالقرب منها الرفاق الثلاثة فادرك الحقيقة ولم يعجب لما جرى ولا شكر منقذيه ولا سألهم ايضاً بل انتصب واقفاً وقال بلهجة تشف عن الوجل الزائد :

— في أي يوم نحن من الاسبوع ؟

— يوم الخميس .

— وما هي الساعة الآن ؟

— العاشرة ونصف من الصباح .

فبدت على محيا جوهان امارات الفرح والسرور فصرخ قائلا

— لقد كنت على يقين من وصولي في الوقت الملائم فاسرعوا باللحاق بي .

وهرول نحو الباب الذي فتحه له كولار الكامل فنظر اليه باردليان ورفقاؤه بدهشة لا توصف حتى صاروا في الطريق فاستوقف الفارس ولده وسأله عما يريد عمله فقال له بسكينة :

— بما انها الساعة العاشرة ونصف الآن فاريد الذهاب أولاً إلى قصر اللوفر .

واسرعوا في سيرهم نحو قصر الملك وأخذ جوهان يقص على ابيه الحديث الذي سمعه من كونسيني وزوجته ولما كان في الغرفة المضطرمه فعرجوا في طريقهم على النزل الذي كان يقيم فيه باردليان فاسرج جوهان بيده جوادين وسلم باردليان بيريت الحسناء إلى عناية صاحبة النزل واسر إلى الرفاق بعض أوامر

. رية فاندفعوا من النزل كالسهم المارق وركب باردليان وجوهان جواديهما وأسرعا إلى قصر اللوفر فوصلا اليه بعد قليل .

* *

لم يكن قصر الملك في روبي يشبه قصور الملوك بل هو اشبه بمنازل القرويين ويؤلف من قسمين تفصلهما حديقة كبيرة ومن خلفها برج كثير الارتفاع وقد سجنت الانسة برتيل في ذلك البرج .

وفي ذلك اليوم في ذات الساعة التي سار فيها باردليان وجوهان إلى قصر اللوفر فتح باب الغرفة التي كانت مسجونة فيها الانسة برتيل ودخلت اليونورا غاليكاي فوقفت أمام الفتاة وتأملتها برهه وهي صامتة فشعرت برتيل برعشة الموت تسري إلى عروقها فتراجعت وقد استغرقتها الافكار العميقة ولكنها لم تلبث أن تمالكت روعها وقالت :

– لقد خلصت لي يا سيدتي بالامس ما هو اعز من حياتي فشكرت لك عملك وباركتك واليوم أرى أني لم اتوافق الا بتغيير سجني وقد بت أشعر أني سجينة بأمرك وصرت في حوزتك وتحت أمرتك وأرى من عينيك أنك تكرهيني كرهاً عظيما وتريدين موتي فما الذي عملته معك وأي ذنب جنيته ومن أنت يا سيدتي ؟

– عفواً يا سيدتي فقد اسأت بك الظن منذ هنيهة لأني

رأيتك في مقتبل العمر ذات جمال باهر وأنا ايضاً فتية ولكني قبيحة الصورة للغاية فلم اتمالك أن شعرت نحوك بعاطفة تشبه البغض .

ولست ادري السبب الذي دعاني أشعر بهذه العاطفة واعلمي أني أنا زوجة كونسيني الذي يلاحقك بغرامه الحيواني منذ مدة بعيدة ولما جئت الى هنا لاطمئن عليك رأيت هذا المنهل محروساً ومن خلفه رجال كونسيني وهم يقتلونني من غير شفقة ولا رحمة إذا حاولت تهريبك ولا ريب من مجيئه الى هنا لاذلالك ولعله يصل عن قريب أو بعد بضع دقائق .

– رباه أني هالكة .. ليس أمامي سلاح ولا شيء استطيع به الدفاع عن نفسي وحماية شرفي .

– نعم أنك هالكة ولكن بامكاني انقاذ شرفك فهل تقبلين مني ذلك ؟

– بربك تكلمي يا سيدتي فقد اعدت الراحة لنفسي .

فمدت اليونورا يدها الى صدرها واعطتها زجاجة صغيرة وقالت لها :

– نقتطان من هذه الزجاجة تخلصانك من كونسيني وليتني كنت استطيع المزيد في نفعك .

فاخذت برتيل الزجاجة من اليونورا وقد ارتاح بالها وتأكدت أنها ستنجو من كونسيني بالموت وقالت برباطة جأش مدهشة .

– أن الخدمة التي قدمتيها لي لا تقدر بثمن فاشكرك عليها .

– الوداع الان يا عزيزتي .

وانسلت اليونورا بخفة من غرفة الفتاة المنكودة الحظ وخرجت من حديقة المنزل فرأت عربة بانتظارها ركبتها وسارت بها جيادها تسابق الرياح .

الفصل التاسع والستون

فشل قتل الملك

وكانت الساعة تقرع اذنه بانتصاف النهار والشمس ترسل اشعتها المحرقة على تلك البطاح وكانت السهول مقفرة والسكوت مخيماً عليها لان تلك الساعة كانت مخصصة للراحة من عناء الاعمال .

وكان قرب باب ذلك المنزل شبه هضبة اختبأ خلفها رافالياك وقد وضع يده داخل ردائه واخذ يلاعب قبضة خنجره وكانت عيناه تتقدان كالجمر وهو ينظر الى الطريق بتلهف وتشوق كأنه يستدعي اليه ضحية .

وكان ساتيا مختفياً قرب باب سان دنيس وبجانبه جواد مسرج وهو يداعب مثل رافالياك خنجره بيده .

واجتازت عربة تجرها ستة من الجياد المطهمة ذلك الباب بسرعة البرق وهي ذاهبة في طريق رولي فهمس ساتيا في نجواه قائلا وقد ظهرت عليه أمارات السرور :

– هذا هو الملك ... والويل لكونسيني اذا كان قد سخر مني ولم يأت جوهان في اثره .. لا انه صادق في وعده فهذا هو وكان قد خرج فارسان من الباب وهما يعدوان بجواديهما بسرعة لا تقل عن سرعة موكبة الملك وكانا رغماً عن حرارة ذلك اليوم رافعين اردیتهما على وجهيهما ولا تظهر منهما غير العيون فلم يعجب سانيا لهذا الامر لأنه كان مقنع ومتنكراً مثلها والظاهر أنه عرف الفارسين لأنه لم يكد يراهما حتى تزايد فرحه .

واسرع الى الباب وتجاوزه ودار خلف الباستيل حتى وصل الى شارع مانت انطوان فرأى نفراً من الجند يتقدمون بسرعة فعاد الى حيث كان وركب جواده وانطلق به يسابق الرياح حتى وصل اول منزل صادفه على طريقه فرأى كونسيني ورفاقه مختبئين وراء سوره مع عشرين من قطاع الطرق فسأله كونسيني بنظره عما عرفه فقال له :

لقد مر بي عربته وكان جوهان وابوه يتبعانه على جواديهما وسيصلون في ساعة متأخرة وقد خرج الحاكم الاعظم من المدينة وسيصل في الوقت الملائم للقبض على جوهان وأني اكفل لك هلاكه هذه المرة .

– فلننتظر النهاية لنرى النتيجة .

ولم يطل عليهم الانتظار اذ بعد قليل اقبل فارس ينهب الارض بجواده وهو يلهث من فرط تعبه وقال :

– لقد قضي الامر يا مولاي وكفت طعنة واحدة

واصحت الطريق حرة .

وطلب كونسيني من الرجل ايضاح ما يعرفه ولكنه لم يكن رأي الشيء الكثير بل ابصر عربة وقفت امام باب المنزل فهجم عليها في الحال رجل قوي البنية طويل الهامة وطعن بيده اليمنى طعنة نجلاء كفت لقضاء الأرب لأنه سمع عقب هذه الطعنة صوتاً يخترق الفضاء فبادر بموجب الاوامر التي تلقاها لاخبار سيده بما شاهده .

وكانت هذه الايضاحات مهمة في حد ذاتها ولكن كونسيني اكتفى بها فاستنار وجهه بعلائم الكبر والخيلاء وأمر رجاله بان يتبعوه على الأثر .

وبعد بضع دقائق وصل إلى الباب الذي خرجت منه زوجته قبل ساعات قليلة فأوقف امامه خمسة من رجاله وأمرهم بان يعتنوا بالخيول ودخل المنزل مع الباقين .

وكانت برتيل منذ ذهاب اليونورا تتوقع من دقيقة إلى أخرى مفاجأة كونسيني لها ولكنها كانت رابطة الجأش لذلك لم ترتعب لما رأته داخلاً غرفتها لأنها تناولت الزجاجة الصغيرة التي اخذتها من زوجته ووقفت مستعدة لمقابلة الطوارىء .

ووقف كونسيني أمامها وأخذ يضحك ضحكة السخرية والامتهان وكان منظره مرعباً لأنه شف عن الوعيد والتهديد ثم انقلبت ملامحه وتحولت إلى قسوة لا مزيد عليها ، فدنا من الفتاة ووضع يده على كتفها وكانت تشابه الأموات باصفرارها وقال لها بلهجة لا توصف :

– لم يعد لك مفر من يدي يا برتيل

فلم تجبن الفتاة ولا جزعت بل تمتمت قائلة .

– الوداع يا جوهان ... الوداع أيتها الحياه ... الوداع يا حبنا الطاهر .

وباسرع من لمح البصر وقبل أن يتمكن كونسيني من منعها عن عملها اخذت الزجاجة الصغيرة التي وصلت اليها من اليونورا ووضعتها على فمها .

رأينا العربة الملوكية تجتاز بسرعة البرق باب سانت انطوان وكان ينقلها ستة جياد مطهمة وظلت سائرة بتلك السرعة حتى وقفت أمام الباب الذي كانت مسجونة داخله الآنسة برتيل وفي الحال خرج رافالياك من مكنه ووضع رجله على كرسي المركبة التي كانت نافذتها مفتوحة وامتشق خنجره بيده وأهوى به بشدة تكاد تكون غير اعتيادية .

وفي تلك اللحظة دوى صوت عظيم وهو الصوت الذي سمعه رسول كونسيني وأعاد ما شاهده على مولاه ولو أنه تمهل هنيهة لكان بلاغه غير ما رواه وكان قص على كونسيني حقيقة ما جرى واليك البيان

لم يكد رافالياك يرفع يده بخنجره حتى شعر بيد حديدية تقبض على ذراعيه وتمنعه عن الحركة وسمع صوتاً يسأله بمنتهى السكينة :

– أيه يا جان فرانسوا الا تزال مصمماً على قتلي ؟

فذعر رافالياك لهذا السؤال وأخذ يفتش بنظره داخل العربة على الرجل الذي كان يريد الفتك به فلم ير غير باردليان

الذي كان قابضاً على ذراعيه بشدة وكان جوهان الشجاع الذي كان ينظر اليه بسكينة لا مزيد عليها فلم يتمالك المسكين أن صاح قائلا :

– سيدي جوهان الشجاع .. لا ريب بأني رجل ملعون .

ووقف في مكانه وهو ينظر إلى جوهان نظرات الجسانين فتركه باردليان وهو على يقين من عدم هربه وفي تلك اللحظة وقف والفارسان اللذان حسبهما سائسا جوهان واباه مع أنهما لم يكونا في حقيقة الأمر إلا كرنكايل وكاركان اللذين كانا مرتدين ملابس جوهان وباردليان فترجلا عن جواديهما وقال كرنكايل

– أن الفرسان يحدون في اثرنا وسيلحقون بنا بعد ربع ساعة وفتح جوهان باب العربة ونزل منها مع رفيقيه فتراجع رافالياك أمامهم ولكنه لم يحاول الهرب بل قال بلهجة تشف عن اليأس الذي لا يوصف :

– هذه هي ثاني مرة ارفع بها يدي على المحسن عليّ فأنا ملعون .. أنا ملعون ..

– وهل كنت تريد قتلي يا رافالياك ؟

فحملق رافالياك عينيه وهو لا يفقه ما يسمعه ولكنه ابدى اشارة دلت على احتجاجه على هذا القول واردف جوهان حديثه قائلا :

– لقد اردت قبل هذه المرة قتل الملك فجاء الحاكم الاعظم وقبض علي لأنه توهم أني أنا الذي تعمدت قتل الملك فاسمع الآن هذه الضوضاء من خلفنا فهي صوت الفرسان المقبلين من

الحاكم الاعظم وقد اسرعوا للقبض علي لأن الذين تخدمهم قد قرروا عقابي بالجريمة التي ترتكبها وإذا كررت جنايتك مرة ثانية اجازي بجريمتك ويحكم علي بالقتل .

– وهل يصح ما تقوله ؟ أني سأعترف بالحقيقة كما جرت ولا اكتم عنهم سراً اعرفه .

– وهبك أعترفت بالحقيقة فيقبض عليك ويزج في أحد السجون ولا تتمكن من تخليصي .. وإذا كنت صادقاً في ودادك فالوسيلة الوحيدة لانقاذي هي أن لا تحاول فعلتك الشنعاء مرة ثانية أما الآن وقد انذرتك بالعاقبة فقل لي ما الذي تنوي عمله يا راقاليك ؟

– أني رجل ملعون ولا ريب بان الهلاك الابدي سيكون جزائي العادل وأني ذاهب إلى انكوليم من غير تردد فالوداع وداعاً ابدياً .

وذهب باردليان إلى باب المنزل الذي كان ينفتح لذاته فمد يده اليه ليفتحه وإذا به يرى ساتيا أمامه فقال له ساخراً :

– عجباً أني ارى كيدولوبيني .

وصرخ جوهان بحدة لا مزيد عليها :

– لا عجب من رؤيتك هنا وقد تألب سائر القتلة في هذا المنزل للفتك بي .

ودخلا المنزل ولم يدعا ساتيا وقتاً كافياً ليعود من دهشته وكان رجال كونسيني مختبئين داخل البرج فلم يتمكنوا من

مشاهدة ما جرى عند الباب وكان ساتيا يعلم هذا الأمر حق العلم وأنه إذا استنجد بهم يسمعون صوته فيلبون نداءه .

ولهذا شهر سيفه بيده فقابله جوهان بالمثل وباسرع من لمح البصر اشتبك الحسامان بطعنات متوالية غير أن جوهان كان ارشق من خصمه وأقوى منه عضلا وأثبت جناناً فلم يلبث أن اطار السيف من يد ساتيا وقال له :

– لأن تحركت من مكانك فانت مقتول في الحال .

– ليس من يمنعك عن قتلي فافعل ما تحبه .

فهمس جوهان في اذن كرنكايل بعض كلمات وترك ساتيا وشأنه واسرع إلى المنزل ومن خلفه باردليان وهو ينادي قائلا باعلى صوته :

برتيل .. برتيل .. ها انذا قد جئت لنجدتك .

AmI www.liilas.com

الفصل السبعون

انتهاء المؤامرة

وكانت برتيل في تلك اللحظة قد رفعت الى شفتيها الزجاجة الصغيرة التي اخذتها من اليونورا غاليكاي . ولو مر ربع ثانية على نداء جوهان لكانت جرعت ذلك السم الزعاف وقضي عليها في الحال .

ولكنها سمعت صوت حبيبها فعادت اليها قوتها ودفعت من كان يحاول اغتصابها بمنتهى الشدة وصرخت قائلة :

– إلي يا جوهان ... إلي يا جوهان .

– لبيك ايتها الحبيبة فها قد اقبلت اليك .

وسمع كونسيني صوت جوهان ايضاً فزمجر قائلا :

– يا للجحيم ألم يقبض عليه الى الآن .

واسرع نحو الباب وفتحه بعنف لا مزيد عليه وقد أشهر سيفه بيده فرأى جوهان وباردليان يتقدمان جنباً إلى جنب بخطى ثابتة وكل منهما يمتشق حسامه بيده فتقدم اليه جوهان واكتفى أن يبعده من أمامه باشارة من يده فألقاه بعيداً عنه

ولم يعد يبالي به فهطلت على وجنتي كونسيني دمعتان من الخجل والحقد .

ولم يلبث أن عاد جوهان وهو متأبط ذراع حبيبته برتيل التي خلصها من سجنها وكان كلاهما يبتسمان بسرور .

وفي تلك اللحظة سمعت طرقات شديدة على باب المنزل كادت تزعزعه من اركانه وبعد قليل دخل فارس معفر الثياب بالغبار ووقف أمام كونسيني وقال له بعد أن حياه باحترام :

– لقد ارسلتني مولاتي اليونورا لاخبرك يا سيدي بان الملك قد غادر قصر اللوفر عند الظهر وسيكون هنا عن قريب .

فألقى كونسيني على جوهان الذي كان يصغي إلى هذا الحديث نظرة تائهة كالجانين ونظر بجزع لا يوصف إلى باردليان الذي قال له بمنتهى السكينة .

– انج بنفسك يا كونسيني فقد عفوت عنك .

– أما أنا فلست أعفو .

– هذا ما كنت اؤمل سماعه منك ولكني انصحك بالهرب في الحال وأن تنجو بنفسك .

فأسرع كونسيني بالهرب ليس خوفاً من الموت بل فراراً من هذه الاقوال التي كانت تؤثر عليه اشد تأثير فأخذ جوهان برتيل بيديها وتبعته بثقة لا مزيد عليها فوقف عن يمينها وابوه باردليان عن يسارها وتقدموا نحو الباب الذي كان رجال الحاكم الاعظم يحاولون تحطيمه .

وكان كاركان وكرنكايل واسكركاس يسيرون من خلفهم

وسيوفهم مشهرة في ايديهم وملابسهم مضرجة بالدماء ومزقة تمزيقاً ومنظرهم مخيفاً رهيباً يدعو للوجل .

وفتح جوهان الباب بيده فلم يتمالك دي نوفي عند رؤيته مع رجاله إلا أن تراجع بضع خطوات وكانت عربة الملك لا تزال هناك فتقدم اليها جوهان وباردليان واركبا فيها الفتاة .

وعاد الحاكم الأعظم فتمالك روعه ووقف أمام العربة وهو يبتسم ابتسامة الفوز ومد يده نحو جوهان وقال له :

– باسم الملك أقبض عليك .

وكان جوهان ممسكاً بحسامه بيده اليمنى فلم يجاوبه على قوله بل نقل السيف إلى اليد اليسرى وفعل معه كما فعل مع كونسيني فدفعه بشدة فسقط بين رجاله وقال جوهان لبرتيل التي كانت تنتظره بكل سكينة .

– اركبي يا سيدتي العربة .

فأطاعت برتيل هذا الأمر وابتسمت لحبيبها ابتسامة ملائكية وأخذ دي نوفي يسخط ويزمجر قائلاً :

– هذه هي المرة الثانية التي يجسر فيها هذا اللئيم على مد يده علي فاقبضوا عليه ايها الحرس .

وتظاهر جوهان بانه لا يرى شيئاً مما هو جار حوله وأخذ يساعد برتيل على الصعود إلى المركبة بسكينة ادهشت اعداءه فكأنه لم يكن يرى غيرها في عالم الوجود .

ولم يكن باردليان ليسهى عن الخطر المحدق بولده فانه

اشهر حسامه بيده ووقف في وجه الحاكم الاعظم كالأسد الرئبال الذي يدافع عن عرينه وقال له بلهجة الآمر :

– ارجع إلى الوراء يا دي نوفي لئلا تندم على عملك .

– وما معنى قولك يا سيدي ؟

– الا تسمع صوت المركبة القادمة من طريق شارنتون فاعلم أنها مركبة الملك وحرسه وهم قادمون إلى هنا ولجلالته وحده حق الحكم بهذه المسألة .

فتراجع دي نوفي مذعوراً وقال :

– الملك فاذن هو لم ...

فهز باردليان كتفيه باستهزاء وكانت برتيل قد جلست في العربة فتركها فيها جوهان وقد اطمأن باله عليها وتقدم إلى الحاكم الاعظم وسأله برباطة جأش قائلاً :

– ما الذي تريده مني يا سيدي ؟

فتضاعف غضب دي نوفي لهذا السؤال الذي كان يشف عن السخرية وزمجر قائلاً :

– أريد أن أقبض عليك فامسكوه أيها الحرس .

وكان دوي المركبة التي اشار اليها باردليان يدنو بسرعة فحكم جوهان في فكرته أنها لا تلبث أن تصل اليهم عن قريب فأعاد سيفه إلى غمده وقال بمنتهى السكينة :

– لا بأس فما تريده ولست أمانعك في عملك غير أني اطلب منك أن تأمر رجالك بان يبقوا بعيداً وأنا أقسم لك بشرفي

بأني لا اتحرك من هذا المكان حتى يصل الملك ويصدر الأوامر التي يريدها .

فاجابه دي نوفي الى طلبه لأنه كان واثقاً من عدم استطاعته الهرب ودخل المنزل فوجد فيه ساتيا مقيداً ومطروحاً في أحد الجوانب فسلمه لرجاله .

ووصلت العربة في تلك اللحظة ووقفت أمام المنزل وكان فيها جلالة الملك هنريكوس ومعه الدوقان دي ليانكور ودي بلفراد والمارشال دي باسومبيير والدوق دي مونتمازون ومن خلفهما الضابط دي فيتري مع فرقة من الحرس .

فترجل الملك واصدقاؤه وصف دي فيتري رجاله كأنه يعدهم للقتال فتقدم هنريكوس الرابع توآ إلى باردليان وجوهان اللذين كانا راقدين بجانب العربة ونظر الى ثيابهن الممزقة والدم الذي كان يسيل منها فلم يتمالك أن قال :

— يظهر لي أن المعركة كانت حامية .

فلم يجاوبه جوهان على هذا السؤال الذي كان موجهاً اليه بل نظر الى باردليان باحترام لأنه كان قد اطلع في قصر اللوفر على حقيقة نسبه فادرك باردليان مقصده وأجابه فقال له بعطف :

— تكلم يا ولدي اذ يحق لك التمتع بالهناء بعد أن ذقت مزيد العناء .

— لقد كانت المسألة طفيفة في حد ذاتها ولم تدم المعركة اكثر من بضع دقائق هرب بعدها اللصوص .

— وأين هي الفتاة ؟

— أنها بانتظار جلالتك في العربة .

— وماذا جرى بحادثة الاعتداء ؟

فقال باردليان متهكماً :

— لقد فشل الخونة وبامكان الحاكم الاعظم اخبار جلالتك أنه وصل في الوقت الملائم للقبض على القاتل .

— اذن لقد توفق بمسك أحد هؤلاء اللئام فسأتوج سؤاله بنفراتي وأعرف منه تلك العصابة الشريرة التي تريد هلاكي .

— أن الذي قبض عليه دي نوفي الحاكم الأعظم يتشرف بالانحناء أمام جلالتك .

ما معنى هذا المزاح البارد يا دي نوفي فقد خاطر هذا الشاب بحياته قبل هذه المرة لخليصنا واذا بك جئت تقبض عليه لو لم نمنعك عن هذا الأمر واليوم تريد تكرير هذا الاعتداء عليه بعد أن تحققت اخلاصه لنا وأنه لولا رغبته بانقاذنا لما وجد في هذا المكان فحقاً أنك تفهم واجباتك بشكل غريب فاذهب الآن والتزم منزلك الى أن تصدر لك أوامري الجديدة .

فصعق الحاكم الأعظم لهذه النكبة وكاد يقع على الارض لو لم يتداخل جوهان بشأنه وقال للملك :

— لي نعمة التمسها من جلالة الملك

قل ما تريده وإذا لم تكن مغالياً في سؤالك فطلباتك مقضية منذ الآن — أني التمس العفو عن دي نوفي فهو اراد القبض علي وقد حسب أنه يحسن صنعاً واؤكد لجلالة الملك أنه يجهل كل الجهل ما كان جارياً .

– لا يسعنا رفض هـذا الطلب الذي يزيدك رفعة ولكن حذار يا دي نوفي من العودة الى مثل هذا الخطأ».

وأخذ جوهان بيده وقال له بصوت عال سمعه الجميع :

– اقدم لكم ايها السادة صديقنا جوهان الذي انقذ حياتنا اربع مرات في بضع اسابيع والذي احبه واحترمـه اكثر من سائر الناس بعد ابيه الفارس باردليان فقدمـوا لهما فروض الاكرام والاحترام ، فعلت اصوات الجميع بالدعـاء للملك وامرهم بالرجوع الى قصر الوفر .

★★

الفصل الواحد والسبعون

زواج جوهان من برتيل

وبينما هم في العربة اخذ الملك يد ابنته برتيل ووضعها في يد جوهان الذي كاد يطير من فرحه وسعادته وقال لها .

– اظن انني اكفر عن ذنوبي معك بتزويجك للرجـل الذي اخترتيه والذي هو وحده جدير بالحصول على مثل هذا الكنز الثمين .

ولما وصل الى اللوفر ارسلوا الآنسة برتيل الى قصر الدوق والدوقة داندبلي فعرفا من جوهـان الشجاع واستقبلا هذين العاشقين كما لو كانا ولديهما .

وفي اليوم الثاني اخـذ باردليـان ولده الى نفق مونتمارتر فأخبر جوهان اباه بما جرى له لما اكتشف ذلك الكنز الدفين فقال له باردليان ضاحكاً :

– أني اعرف ذلك فقد رأيتك وسمعتك وهذه الكنوز التي حسبت أنك تسرقها هي ملك لك فما الذي تنوي عمله بها ؟

– لقد قيل لي أنك لما جعلت كونتاً لمارجنتس تنازلت عن

ايراد هذه الكونتية البديعة الى فقرائها وأنك ورثت من زوجتك مائتي الف ذهب تخليت عنها لفقراء سان دنيس .

– صدقت يا ولدي – وقيل لي أنـــك لم تقبل من المليك المديون لك بمرثه وحياته لا هدية ولا لقباً ولا وظيفة .

أنك والحالة هذه كنت سبباً لسعادة الالوف بل الملايين من المساكين فما الذي يمنعني من الاقتداء بك .

اني اكتفي بمئة الف ذهب من هذه الكنوز واعطي كلا من رفاقي الذين نعرفهم مثل هـذا القدر والباقي اتنازل عنه للفقراء

فضم باردليان جوهان الى صدره بعطف وقال له :

– حقاً انك ولدي وارى بك ذات اخلاقي .

* * *

وبعد شهر تم زفاف جوهان الشجاع على برتيل الحسناء في سوجيس ولم يحضر تلك الحفلة احد من الاصدقاء حتى ولا الملك نوفي ذاك اليوم زفت بيريت إلى كاركان واعطى جوهان كلا من رفاقه الهبة التي وعدهم بها .

بقي علينا أن نعرف ماذا جرى لباقي الاشخاص الذين مثلوا الادوار الهامة في روايتنا فقد عاد كوافيفا الى روميه ولحق به كولار الكامل ويئس ساتيا من الحياة لأنه فشل في انتقامه من جوهان فانتحر وسجنت كولنيكل ولم تخرج من السجن الا على آلة حدباء ولم تسعد الا رئيسة دير مونتمارتر التي اصبح ديرها مورداً للزوار يقصدونه من كل مكان لزيارة مذبح القديس

الذي اكتشفوه عليه .

أمـا باردليان فبقي ثلاثة اشهر مع ولده وعاودته فطرة النجول فودع جرهان وعروسه ولم يصغ لتوسلاتهما ليبقى معهما بل قال لهما

– سأعود بعد عشرة اشهر لاعمد حفيدي فلا تخيبا ظني بكما .

* * *

واهنأوا الآن بحياتكما الزوجية واحرصا على ما خصكم الله اخيراً من هناء بدل ما تعبتموه من فراق وعناء وأني معكمامابقيتم فلا تخيبا ظني بكما واعفو عمن اساء اليكم .

فالله وحده يجازي الخاطئين

تمت الرواية

Aml www.liias.com